الموسوعة الكونية الكبرى



آيات الله

في الإعجاز اللّغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم

د. ماهر أحمد الصّوفي

الباحث في وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
دولة الإمارات العربية المتحدة

٢٦٩ عالماً وباحثاً شاركوا بآرائهم في هذه الموسوعة

قدّم للموسوعة

د. محمد سعيد رمضان البوطي

د. عكرمة سليم صبري — د. محمد جمعة سالم

د. فاروق حمادة — د. عبد المعطي البيومي



المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الموسوعة الكونية الكبرى

آيات الله

في الإعجاز اللغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم

د. ماهر أحمد الصوفي
الباحث في وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
دولة الإمارات العربية المتحدة

٢٦٩ عالماً وباحثاً شاركوا بآرائهم في هذه الموسوعة

قدّم لها:
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدكتور عكرمة سليم صبري	الدكتور محمد جمعة سالم
الدكتور فاروق حمادة	الدكتور عبد المعطي البيومي

١٦ ـ ١٧





صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

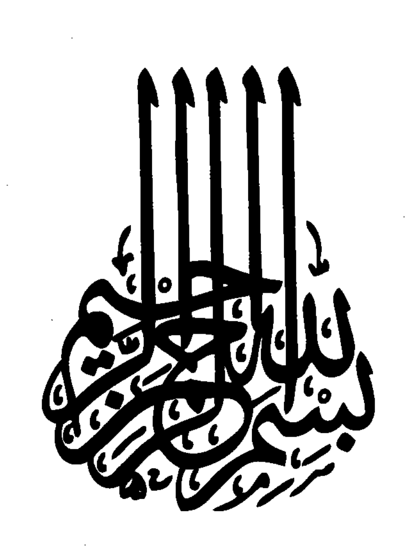
• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-804-9



قدَّم
للموسوعة الكونية الكبرى
كل من السادة الأفاضل

١ ـ الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي ـ المفكر والداعية الإسلامي الكبير دمشق ـ سوريا .

٢ ـ الدكتور : عكرمة سليم صبري ـ خطيب المسجد الأقصى ومفتي القدس والديار المقدسة .

٣ ـ الدكتور : محمد جمعة سالم ـ وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف . دولة الإمارات العربية المتحدة .

٤ ـ الدكتور : فاروق حمادة ـ أستاذ السنة وعلومها بكلية الآداب جامعة الملك محمد الخامس المغرب ـ الرباط .

٥ ـ الدكتور : عبد المعطي البيومي ـ عميد كلية أصول الدين جامعة الأزهر ـ القاهرة جمهورية مصر العربية

الموسوعة الكونية الكبرى

١ ـ الجزء الأول : آيات العلوم الكونية وفق أحدث الدراسات الفلكية .

٢ ـ الجزء الثاني : آيات العلوم الكونية وفق أحدث النظريات العلمية .

٣ ـ الجزء الثالث : آيات اللّه في خلق الكون ونشأة الحياة .

٤ ـ الجزء الرابع : آيات اللّه في السماء الدنيا والسماوات السبع .

٥ ـ الجزء الخامس : آيات العلوم الأرضية وفق المعطيات العصرية .

٦ ـ الجزء السادس : آيات اللّه في خلق الأرض وتأمين معايشها .

٧ ـ الجزء السابع : آيات اللّه في نشأة الحياة على الأرض وظهور الإنسان .

٨ ـ الجزء الثامن : آيات اللّه في البحار والمحيطات والأنهار .

٩ ـ الجزء التاسع : آيات اللّه في الجبال والصحاري والغابات .

١٠ ـ الجزء العاشر : آيات اللّه في النبات والثمار والأزهار والألوان .

١١ ـ **الجزء الحادي عشر** : آيات اللَّه في خلق الحيوانات البرية والبحرية وبعثها وحسابها.

١٢ ـ **الجزء الثاني عشر** : آيات اللَّه في ممالك الطير والنحل والنمل والحشرات.

١٣ ـ **الجزء الثالث عشر** : آيات اللَّه في الرياح والمطر والأعاصير والبراكين والزلازل.

١٤ ـ **الجزء الرابع عشر** : آيات اللَّه في خلق الإنسان وبعثه وحسابه.

١٥ ـ **الجزء الخامس عشر** : آيات اللَّه في النوم والرؤى والأحلام ورؤيا الاستخارة.

١٦ ـ **الجزء السادس عشر** : آيات اللَّه في الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم.

١٧ ـ **الجزء السابع عشر** : آيات اللَّه في الإعجاز التشريعي والغيبي في القرآن الكريم.

١٨ ـ **الجزء الثامن عشر** : آيات اللَّه في الأرقام ومعانيها وفواتح السور في القرآن الكريم.

١٩ ـ **الجزء التاسع عشر** : آيات اللَّه في الموت ونهاية الكون.

٢٠ ـ **الجزء العشرون** : آيات اللَّه في قيام الساعة وبعث الخلائق وتبديل السماوات والأرض.



يقول تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤]

ويقول تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[سورة يونس، الآيتان: ١٥، ١٦]

ويقول تعالى:

﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة فصلت، الآيات: ١ ـ ٣]

ويقول تعالى:

﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[سورة الزخرف، الآيات: ١ ـ ٣]

حديث شريف

ـ قال رسول اللَّه ﷺ:

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه اللَّه إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

ـ عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«كتاب اللَّه فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه اللَّه ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللَّه، وهو حبل اللَّه المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

[سورة الجن، الآيتان: ١، ٢]

من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي رقم ٢٨٣١.

ـ قال رسول اللَّه ﷺ:

«أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» رواه ابن حبان.



الإهداء

وهبت عملي :

إلى اللَّه تعالى . . . . ربنا ورب السماوات السبع والأرضين السبع، وما بينهما ورب الخلق أجمعين، الذي لا تضيع عنده الأعمال الصالحات، القائل في محكم كتابه :

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

[سورة الكهف، الآية: ٤٦]

والقائل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

[سورة التوبة، الآية: ١٠٥]

فتقبل مني إنك أنت العليم الخبير .

وإلى رسول اللَّه ﷺ الذي بيَّن لنا في أحاديثه الشريفة الكثير عن حقائق الخلق، ونشأة الكون وخلق السماوات والأرض، والإنسان، والحيوان، والنبات، والبحار، والأنهار، والجبال، والطب. . . . وبيَّن لنا كيف تكون نهاية الحياة، وانفطار السماوات، وقيام الساعة، وكيف يكون البعث والنشور والحشر، ويوم القيامة . .

اللَّهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله صلاة أهل السماوات والأرضين، واجعلنا اللَّهم بالصلاة عليه من الفائزين، وبسنته من العاملين، وعلى حوضه من الواردين، وبشفاعته من الناجين، ومنه ومن آله وصحبه في جنات النعيم من المقربين .

هذه الموسوعة الكونية الكبرى

تشتمل في أجزائها العشرين على علوم جمعت أكثر من خمسين علماً فصلت القول فيها مستمداً العون من:

١ ـ كتاب اللَّه تعالى.

٢ ـ سنة رسول اللَّه ﷺ.

٣ ـ من كبار المفسرين لكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٤ ـ من العلوم والمعارف الإنسانية وفق أحدث النظريات العلمية الحديثة.

٥ ـ من الموسوعات العالمية والإسلامية والعربية.

٦ ـ من الموسوعات الشخصية لكبار الكتاب والمؤلفين المعاصرين.

٧ ـ من كبار المفسرين والعلماء والباحثين والمفكرين.

٨ ـ وقد استمدت هذه الموسوعة الآراء والأفكار من ٢٦٩ عالماً وباحثاً في شتى العلوم والمعارف الإنسانية.

وقد تحدثت هذه الموسوعة عن خلق الكون، والأرض، ونشأة الحياة، وخلق الإنسان، والحيوان والطير والحشرات، والنبات، والنوم، والرؤى، والأحلام، وتحدثت عن الإعجاز في الأرض، والجبال، والبحار، والفضاء، وكذلك تحدثت عن الإعجاز التشريعي والغيبي، والرقمي، واللغوي، وآيات اللَّه في الرياح، والمطر، والبراكين.

وقد تحدثت عن نهاية الكون، والحياة، والموت، وقيام الساعة، والحشر، وتبديل السماوات، والأرض.



تقديم

بقلم
المفكر والداعية الإسلامي الكبير
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
دمشق ـ سوريا

«الموسوعة الكونية الكبرى»!!

استوقفني هذا العنوان.. وسألت نفسي: من الذي يملك أن يضع موسوعة علمية عن الكون كله؟... وهل الكون إلا معجم لكلمات اللّه؟.. ألـم يقل اللّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ١٠٩]

إذاً، فلا بد أن يستنفد الباحث الجليل الشيخ ماهر، مياه البحار كلها، مداداً لرسم الكلمات الكونية كلها، مترجمة إلى ظواهر علمية!!.. ولكن أفيمكن هذا؟!..

غير أني نظرت، وأنا أستعرض من هذه الموسوعة بعض أجزائها العشرين، وإذا الباحث حفظه اللّه ينظم من عناوين هذا الكتاب الكوني وحدها هذه الموسوعة الشاملة الكبرى.. ترى ماذا سيكون حجم عمله لو حاول أن يعرض لما تحت العناوين؟..

ومع ذلك، فممَّا لا ريب فيه أن إنشاء موسوعة كونية من هذه العناوين وحدها، يحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل، وعرض لكل ما يقال اليوم وقيل بالأمس عنها... غير أن التوفيق الذي حالف باحثنا العالم النشيط عندما أخرج لنا «موسوعة الآخرة» سيكون رفيقه إن شاء اللّه في رحلته الكونية هذه.

العقبة التي أود أن أذكِّر أخي الشيخ ماهر بها، وهو ماضٍ في رحلته العلمية

الفريدة هذه، هي: أنه سيجد الباحثين العلميين الأجانب، لم يتركوا ظاهرة كونية، في سماء اللّه وأرضه وبحاره، وفي غابر الأزمنة ومستقبلها، إلا وأدلوا بتقرير (علمي) حسب قناعاتهم بشأنها، فيتلقفها الناس أَو جُلُّهم على أنها حقائق علمية ثابتة. ولا ريب أن هذا التعميم في الحكم ينطوي على خطأ كبير.

إن قرار «**المنهج العلمي لمعرفة الحقائق**» يقول: إن الظواهر الكونية المادية الخاضعة للتجربة والمشاهدة، لا يمكن أن يتم الوصول إلى يقين علمي بشأنها إلا عن طريق التجربة والمشاهدة.. وأقول: إن هذا ممكن وميسور لا سيما في هذا العصر الذي تكاثرت وتطورت فيه أجهزة المشاهدة والتجربة.. أما حقائق الماضي السحيق أو المستقبل البعيد، فهي من الغيب الذي لا سبيل إلى العلم به إلا عن طريق الاعتماد على الخبر الصادق بشروطه العلمية المعروفة.

غير أن الغربيين اليوم يقتحمون بأفكارهم ظلمات الماضي واحتمالات المستقبل، وينسجون من تخيلاتهم التي يعودون بها، ما قد يجزمون بأنه من الحقائق العلمية، كحكمهم الغيبي بأن الكون قد انبثق أيام كان معدوماً من **الانفجار الأعظم**، وكقرار كثير منهم بأن الإنسان كان ينتمي إلى فصيلة حيوانية أقل شأناً، ثم تطور صعداً تحت سلطان قانون البقاء للأصلح، وكالتوقعات المستقبلية المتعلقة بالفلك ومصير الأرض والإنسان.. فهذه الأحكام وأمثالها لا تعلو فوق درجة الفرضيات أو النظريات. ومن ثم لا يجوز اتخاذها سنداً في تفسير أو تأويل شيء من كلام اللّه عز وجل عن الكون في القرآن.

إن المأمول أن يكون لهذه الموسوعة صدى إيجابي كبير في الأوساط العلمية والإسلامية، إن سار باحثنا الجليل في رحلته العلمية الموسوعية هذه، ملتزماً قواعد منهج البحث عن الحقيقة، واضعاً الأحكام الغربية المتسرعة عن غيبيات الكون تحت مجهر النقد. وذلك من واقع اهتماماته العلمية ونشاطاته الفكرية وغيرته الدينية.

واللّه ولي التوفيق.

الدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي

١٢/ شوال/ ١٤٢٦هـ

٢٠٠٥/١١/١٤



تقديم

بقلم
الدكتور عكرمة بن سليم صبري
خطيب المسجد الأقصى
والمفتي العام للقدس والديار المقدسة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين المبجلين وصحابته الغر الميامين المحجّلين، ومن تبعهم وسار على دربهم واقتفى أثرهم وسن سنتهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإني أمام موسوعة كبيرة في حجمها، غزيرة في معانيها، عميقة في أفكارها، إيمانية في توجهاتها، إنها تجسد جهداً مباركاً فتحه اللّه رب العزة للأخ الفاضل الباحث ماهر أحمد الصوفي حفظه اللّه ورعاه، وزاده بسطة في العلم وما حواه، وجعل الجنة مأواه.

وحينما تمعنت في هذه الموسوعة الزاخرة أيقنت أن أمتنا الإسلامية لم تمت ولم تسترخ بل فيها رجال وعلماء يبحثون وينقبون في كنوز القرآن التي لا ينضب معينها.

فهذه الموسوعة الكونية لم تترك شاردة ولا واردة تتعلق بالآيات الكونية في القرآن الكريم إلا تناولتها للدلالة على عظمة الخالق رب العالمين وقدرته على تيسير الكون وتنظيمه، هذا الكون الذي يسبّح للّه عز وجل ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٥٣].

هذه (الموسوعة الكونية الكبرى) التي ضمت بين دفتيها عشرين جزءاً بموضوعات متعددة ومتنوعة ومتناسقة ومتكاملة تبرز فيها آيات اللّه عز وجل

وقدرته في أكبر أجرام الكون وتتجلى في أصغر مخلوقاته، سبحانك يا رب ما أعظم قدرك وما أعلى شأنك!

وأرى أن هذا العمل الكبير غير مسبوق في تعداد أجزائه، وتنسيق معلوماته، واشتماله على كثير من العلوم الموثوقة منذ خلق اللّه السماوات والأرض، إلى نهاية الكون وقيام الساعة، وفق أحدث النظريات العلمية المعاصرة.

وإنّه لَمِن البديهيات أن التفكر في نظام الكون وفي مخلوقاته هو عبادة من العبادات، لأنها تقود إلى إيمان فوق إيمان، وإلى يقين فوق يقين.

وعليه فإني أوصي كل إنسان مثقف، مسلماً كان أو غير مسلم، أن يقتني هذه الموسوعة العظيمة ليزداد المسلم إيماناً ومعرفة، ولينشرح صدر غير المسلم للإيمان وقلبه للإسلام.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أقول: **جزى اللّه الأخ الفاضل الباحث ماهر أحمد الصوفي على إخراج هذه الموسوعة الكبيرة خير الجزاء**، وأسأله عز وجل أن يكون عمله خالصاً لوجهه الكريم وأن تكون في ميزان حسناته: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩].

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد للّه رب العالمين.

الدكتور: عكرمة بن سليم صبري
خطيب المسجد الأقصى
والمفتي العام للقدس والديار المقدسة
في ٢٠/ رمضان/ ١٤٢٦هـ



تقديم

بقلم
الدكتور محمد جمعة سالم
وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبو ظبي

الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً وجعل القرآن هداية ونوراً وبشّر فيه عباده الصالحين أن لهم من اللّه أجراً عظيماً، ورفع فيه ذكر الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات فضلاً منه ورحمة وتكريماً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً. . . فالقرآن الكريم آيات بينات جعله اللّه سبحانه تبياناً لكل شيء بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]

فقد نهل منه المفسرون والعلماء على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان مادة أصيلة لكتبهم وعلومهم ومؤلفاتهم، وبذلك تفرعت منه عشرات الآلاف من الكتب تنهل من معينه وعلمه وإعجازه وما أودعه اللّه فيه من علم الأولين والآخرين ولم يبق علم من العلوم إلا استقى مادته واستشهد من هذا الكتاب العظيم فقهاً وتشريعاً وتفسيراً وعلماً، فهو الكتاب الذي أنزله اللّه سبحانه بعلمه ليكون منظماً لحياة الناس في شؤون دينهم ودنياهم.

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٦]

ولا شك أن القرآن الكريم لما نزل على سيدنا محمد ﷺ نقل البشرية نقلة كبيرة حيث أخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والعلم بما تحتويه آياته الكريمة من إشارات علمية عن هذا الكون العظيم. . . وكانت هذه الإشارات

العلمية مفتاح العلوم والدراسات ومنذ العصور المتقدمة، وعمد مفسرونا السابقون إلى تفسير هذه الإشارات العلمية القرآنية بما آتاهم اللّٰه سبحانه من علم فمنهم من برع في علوم التفسير خاصة في الآيات الكونية والإشارات العلمية كالإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب ولكن الحركة العلمية لتفسير آيات الإعجاز العلمي في القرآن لم تبدأ فعلياً إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وذلك بعد التطور الكبير الذي شهدته العلوم الحديثة والاكتشافات الكونية في شتى أنحاء العالم، وقد شجعت هذه الاكتشافات العلمية الحديثة في الكون والتي وافقت ما ذُكِر في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، لذا سارع العلماء والكتاب والمفسرون إلى شرح وبيان إعجاز هذه الآيات القرآنية التي تحدثت عن الكون والأرض والإنسان والجبال والنبات والحيوان، وكثرت هذه المؤلفات وتعددت مناهجها وسبل طرحها وتفسيرها واستشهادها بالنظريات العلمية الحديثة وكلها تؤكد بالحجة والبرهان والعلم والعقل أن هذا القرآن هو من عند اللّٰه سبحانه، وقد سارع المسلمون وخاصة في الآونة الأخيرة إلى مدارسة القرآن الكريم وتوسعوا في فهم علومه وبيانه وإعجازه ذلك أن اللّٰه سبحانه رفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات. يقول تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ١١]

ومن هذه المؤلفات ما تناول علماً واحداً كعلم السماء، ومنها ما تناول الإنسان، ومنها ما تناول النبات، أو الجبال، أو البحار ومن الكُتَّاب من جمع أكثر من علم في كتاب واحد، وجميع هذه المؤلفات جمعت ما بين إعجاز الآيات الكريمة والعلم الحديث وهذا أدى إلى تفاعل العلوم والتفسير فأصبحت هذه الكتب رافداً علمياً جيداً للمسلمين فمع بيان إعجاز اللّٰه سبحانه في كتابه جاءت التفصيلات العلمية وأحدث النظريات مثل تفسيرهم لقوله تعالى:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

[الواقعة، الآيتان: ٧٥، ٧٦]

استعرض المؤلفون علم النجوم، والكواكب، والمجرات، وجاؤوا بأحدث ما توصل إليه العلم في هذا المجال العلمي وكذلك تعرضوا لآيات

الإنسان، وآيات النبات، والحيوان والبحار، والمطر والرياح وغيرها كثير.

..... ومن هؤلاء الذين شاركوا في هذا العلم وهذه المؤلفات العلمية الكونية وبيان إعجاز القرآن الكريم في الآيات الكونية الباحث ماهر أحمد الصوفي في موسوعته الجديدة غير المسبوقة **(الموسوعة الكونية الكبرى)** حيث وصل عدد أجزائها إلى عشرين جزءاً، والمطلع على عناوين هذه الموسوعة يجد أن هذه الموسوعة شملت أنواعاً كثيرة من العلوم حيث بدأ المؤلف هذه الأجزاء بآيات العلوم الكونية ثم آيات اللّه في خلق الكون وآيات اللّه في السماوات، ثم انتقل إلى آيات اللّه في الأرض في خلقها وتأمين معايشها ونشأة الحياة عليها وظهور الإنسان، ثم انتقل الباحث المؤلف إلى آيات اللّه في البحار والجبال والنبات والحيوان وممالك الطير والحشرات وكذلك آيات اللّه في الرياح والأمطار ـ والأعاصير ـ وتحدث عن خلق الإنسان ـ والرؤى والأحلام وكذلك تحدث في الأجزاء الخمسة الأخيرة عن الإعجاز اللغوي والبياني والغيبي والتشريعي والإعجاز الرقمي والعددي وآخر الأجزاء تحدثت عن الموت ونهاية الكون والبعث والنشور وتبديل السموات والأرض التي بدأ الحديث عن خلقها في الأجزاء الأولى... حقاً إنها موسوعة نادرة وحديثة ولم يسبق إليها أحد في هذا المستوى العلمي والعددي وتنوع العلوم وبيان إعجاز آيات اللّه سبحانه في هذا الكون العظيم من الذرة إلى المجرة ومن بداية الخلق إلى يوم القيامة.

أسأل اللّه العظيم أن يكون هذا العمل خالصاً للّه وابتغاء وجهه الكريم وأن يجعل له انتشاراً واسعاً في عالمنا الإسلامي كما نأمل من المؤلف أن يسعى إلى ترجمة هذا العمل الكبير إلى مختلف اللغات لتعم الفائدة جميع المسلمين على مختلف أقطارهم وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسنات المؤلف وكل من ساهم في هذه الموسوعة من مقدمين وعلماء ومدققين وناشرين، وجعل موعدهم الجنة أجمعين وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول: « **من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل اللّه له طريقاً للجنة** » وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

الدكتور محمد جمعة سالم
وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
أبو ظبي/ دولة الإمارات العربية المتحدة
١٠/ رمضان/ ١٤٢٦هـ





تقديم

بقلم
الأستاذ الدكتور فاروق حمادة
أستاذ السنة وعلومها
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب

الحمد للَّه رب العالمين ـ والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد اللَّه، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغُرّ الميامين ـ أما بعد:

أخي العزيز الطَّلعة الأستاذ ماهر أحمد الصوفي ـ زادك اللَّه توفيقاً، فقد اطلعت ـ وأنا على جناح سفر، وشغل بالٍ ـ على طرفٍ من كتابك المسمى «الموسوعة الكونية الكبرى» وليس هذا بأول أعمالك وفضائلك، فقد سعدت من قبل بكتابك النافع المتميِّز (موسوعة الآخرة). وها أنت تتبعه اليوم بموسوعة الكون ـ في وقت تعاظم فيه الحديث عن نتائج العلوم وخطواتها الواسعة، وميادينها الشاسعة في دراسة الحياة، والكون ومظاهره، وشارك في هذه الدراسات كل شعوب الأرض ـ وإن كان ذلك بنسب مختلفة ـ من خلال مسيرة طويلة بدأت منذ آماد بعيدة، وهي متتابعة إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

وتقوى هذه المسيرة حيناً، وتضعف حيناً آخر. وقد وصل الدارسون إلى حقائق أصبحت قطعية، وأخرى لا زالت في حيز النظر والتخمين. وأخرى انكشف عُوارُها، وثبت خطؤها وبوارها.

لقد كان نزول القرآن الكريم منعطفاً عظيماً، ومحطة هامة في توجيه الإنسان للنظر في الكون ـ والحياة، فالكون بما فيه ـ دال على اللَّه، هادٍ إلى

معرفته، مظهر لأسمائه الحسنى وصفاته العُلى وهو خاشع خاضع، مسبِّح لبارئه.

لهذا كانت دعوة القرآن من أول يوم من نزوله. إلى التأمل فيه، وإدراك قوانينه، ومعرفة أحواله، وتقلباته، وأصنافه، ومتفقاته ومختلفاته. وقد بين لنا القرآن الكريم قواعد وحقائق عنه حتى لا يزلّ الإنسان ولا يتيه...

فمن كتاب اللّه المنظور، ينتقل العاقل المتأمل الرشيد إلى كتاب اللّه المسطور ليوقن بصدق الوحي، فيسمو بروحه وفكره إلى درجة الخاشعين المصدقين الذين تنطلق من حناجرهم ومشاعرهم ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٩١]

وإن النظر في كتاب اللّه المسطور، والوقوف أمام آيات الكون خاصة، والنظر فيها بحقائق العلم، ويقينيات المعرفة المعاصرة ستكشف عن صدق هذا الكتاب العزيز. وأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فتزول غيومُ شكٍّ وأوهامُ غفلةٍ رانت على بعض القلوب، وغشيت بعض العقول، كيف لا؟ واللّه تعالى قد أخذ العهد على نفسه أنه سييسر للمكلفين هذه السبيل ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ * أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾؟!

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

وإنك بعملك هذا الذي قدمته أيها الأخ الباحث ماهر أحمد الصوفي في الموسوعة الكونية الكبرى ـ من ضمِّ الآيات ذات الموضوع الواحد، والعطف عليها بما توصلت إليه الدراسات العلمية في موضوعها، وخاصة تلك الدراسات التي أنجزها الباحثون في القرن العشرين للميلاد، قد أفدتَ فيه وأجدتَ.

وعملك هذا يأتي في السياق القرآني في الجمع بين الآيات المسطورة والمنظورة، وتثير بذلك وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني المستمر الدائم، المتنامي المتعاظم، وتثبت كذلك أنه لا يوجد في القرآن الكريم ـ على كثرة الدراسات وتنوعها في الكون والحياة ـ خطأ، أو تناقض، أو قصور.

وهذا جهد جليل في الدلالة على اللّه والهداية إليه وإقامة الحجة على الشاردين المعرضين تحت شعار العلم، وتقدمه، بمعطيات العلم وقطعياته بل وظنياته وفرضياته. مما يتعلق به المعرضون المدبرون وغيرهم.. **فهنيئاً لك بهذا الجهد العلمي الضخم الواسع،** ولكم كنت أتمنى أن يكون البحث في هذا الموضوع من كل مَنْ كتب فيه مركزاً مقصوراً على القطعي اليقيني ـ حتى لا تصبح آيات القرآن الكريم وتفسيرها في هذا الباب مهيعاً لا حدود له ولا ضوابط. وفي الختام أسأل اللّه تعالى أن ينفع بهذا الكتاب، ويهدي به، وبغيره من الكتب التي ألفتها إلى الحق والصواب. وأن يرزقنا وإياك الإخلاص والسداد والرشاد في القول والعمل وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

وكتبه
خادم القرآن والسنة
الأستاذ الدكتور فاروق حمادة
أبو ظبي في ٢٨/ رمضان المبارك ١٤٢٦هـ



تقديم

بقلم
الدكتور عبد المعطي البيومي
عميد كلية أصول الدين
جامعة الأزهر ـ مصر

أرسل اللَّه سبحانه الرسل، وأنزل الكتب، لترسم معالم المنهج الصحيح لرقي الإنسان المعرفي والثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولتكون حياته البشرية على أتم ما يكون الكمال والسعادة في الحياة، وما بعد الحياة.

ولا يتم ذلك إلا باستيعاب الرسالات السماوية، وتدبر الكتب التي نزلت بها تدبراً يتسع به وعي الإنسان، لتحقق سعادته حين يتعقل كلية.

والقرآن الكريم نزل آخر الكتب السماوية ليفسر العالم وجوده ومظاهر الطبيعة فيه ليستطيع الإنسان تسخير كل ما في الكون، والانتفاع به. كما يقول تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة الجاثية، الآية: ١٣]

ومن ثم اشتمل القرآن على آيات كونية وأخرى إنسانية، ولفت النظر إلى السماء والأرض والجبال والبحار والنبات والحيوان، ليشير إلى القوانين التي سخرت بمقتضاها هذه الأكوان، وحضَّ الإنسان على معرفة مفاتيح هذه القوانين، وسبب تسخير هذه الأكوان، ثم التوصل بها إلى معرفة الخالق لها، وإبداعه في خلقها.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾

[سورة القمر، الآية: ٤٩]

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

[سورة الفرقان، الآية: ٢]

ولذلك توارد المفسرون منذ نزل القرآن الكريم على تفسير واكتشاف آياته الكونية وإعجازه العلمي، كل على حسب مستواه العلمي، ومستوى ثقافة عصره وإحاطته بمعاني آياته، وإلمامه بإنجازات عصره.

وكان الإمام «فخر الدين الرازي» من أشهر هؤلاء المفسرين الذين وقفوا على الآيات الكونية في القرآن الكريم فحاولوا مبكرين أن يفسروها في ضوء ثقافة عصرهم مطبقين ومتمثلين لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

فكان تفسيره الجليل مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أكثر التفاسير وقوفاً عند الآيات الكونية وتأمل إعجاز الخالق وإعجاز القرآن معاً.

لكن القرآن نزل لكل العصور، ويكشف عن نفسه ومعاني آياته لكل الأجيال، في ضوء ما تحرز هذه الأجيال من الثقافة العلمية، وكذلك جاء بعد الرازي **الشيخ حسن العطار** من أوائل شيوخ الأزهر العظماء الذين تعرضوا لشرح الآيات الكونية، وجاء بعده **الشيخ طنطاوي جوهري** الذي توسع في شرح هذه الآيات الكونية، بأكثر ممَّا فعل الشيخ العطار وتوالت المحاولات.. حتى من الذين لم يدرسوا الثقافة الإسلامية دراسة مبكرة أو تخصصوا في علومها الدينية واللغوية، وكونهم تخصصوا في العلوم الكونية فعرفوا العلم، وقارنوا ما استطاعوا بين القرآن والعلم، ليكشفوا آيات اللَّه في الكون، ويمكن أن يؤخذ هنا على سبيل المثال لا الحصر الدكتور «**موريس بوكاي**» في كتابه عن **حقائق العلم في ضوء الكتب المقدسة الثلاثة** بل إن الموضوع اتسع لغير المسلمين أحياناً كثيرة من أولئك الذين بهرهم القرآن بإعجازه في الإشارة إلى حقائق الكون وإشارات لا تخطئها الحقائق العلمية في عصر تقدم العلم واتساع آفاقه، حتى إن تقدم العلم واتساع آفاقه أيّد قضية القرآن وكشف توافق القرآن في تعبيره وإشاراته مع الحقائق التي اتفق عليها العلماء.

ومن ثم كان لدينا فريقان من الذين اهتموا بالآيات الكونية في القرآن الكريم:

١ ـ فريق متخصص في العلوم، مطلع على الآيات القرآنية، يفهمها في ضوء تخصصه العلمي، ويعرفها في ضوء العلم.

٢ ـ وفريق متخصص في الدراسات الإسلامية، مطلع على حقائق العلم، يفهمها في ضوء مقررات الإسلام وآيات القرآن، ويعرض حقائق العلم في ضوء هذه المقررات والآيات.

وهناك فارق ملحوظ بين الفريقين:

ذلك أن «**معالم الأمان**» أكثر توفراً لدى الفريق الثاني الذين استوعبوا الحقائق الدينية ويعرضون مقررات العلم في ضوئها لطول خبرتهم بالدراسات الإسلامية فإنتاجهم أكثر أماناً من الخطأ في المقارنة بين الإسلام والعلم، من الفريق الأول الذي قد تُؤَثِّر ثقافة بعضهم العلمية على حساب الحقائق الدينية.

وعلى كل حال، خطأ المتخصصين في الإسلام إن أخطؤوا في حقائق العلم، أهون من خطأ الدارسين للعلم ـ وإن حدث ـ في حقائق الإسلام. لأن الرصيد في العلم الشرعي يحمي الدارسين له أكثر مما يحمي المطلعين على هذا العلم الشرعي مجرد اطلاع دفعت إليه الرغبة أو الهواية التي انطلقت أساساً من العلم التجريبي ونصرته بالدين، بينما انطلقت رغبة الفريق الثاني من نصرة الدين بالعلم.

ولا يمنع من هذا الفارق ما قد يوجد من بعض هؤلاء وهؤلاء ممن نجحوا في المقارنة بين الدين والعلم، دون خطأ في الدين أو العلم.

. . . **على أن العمل العلمي الضخم الذي بين أيدينا الآن لكاتبه الباحث ماهر أحمد الصوفي** هو من الفريق الثاني حيث تخصص كاتبه في الدراسات الإسلامية وسبق له العمل الموسوعي في مجال الدين حيث قدم لقراء العربية «**موسوعة الآخرة**» من بداية أشراط الساعة حتى بلوغ أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، مع وصف موسع للجنة والنار وبهذا الاتساع والاستيعاب في البحث بدأ عمله العلمي الضخم بدراسة الكون منذ قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾

[سورة هود، الآية: ٧]

واستعرض البدايات المبكرة لعلم الفلك، وما جرى من خلق الكون بسماواته وأراضيه، وما في الكون من حياة وأحياء، وما فيه من بحار ومحيطات وأنهار، ومن جبال ووديان وصحاري وسهول وأدغال، ومن حيوان ونبات وألوان حتى بلغ أحدث النظريات، والحقائق العلمية في ساعة كتابة ما كتب في هذا العمل الكبير.

فهو بالإضافة إلى تخصصه الديني الذي يجعله أكثر أماناً من الخطأ لأنه يقف على حقائق العلم ويراها في ضوء الدين أكثر مما يرى المتخصص في العلم حقائق العلم، ويقرأ الآيات القرآنية في ضوء معارفه العلمية، فإنه يتوسع بهذه المرجعية الدينية المأخوذة في عرض المسائل العلمية على حقائق القرآن ولا يعرض ـ كما يفعل بعضهم ـ حقائق القرآن على مقررات العلم وهكذا اجتمع لهذا العمل العلمي الكبير عدة ميزات:

١ ـ **هذه المرجعية الدينية الأولى** التي أشرنا إليها، وهي مرجعية آمنة، وأمينة على حقائق الدين، يواكبها التزام بحقائق العلم الثابتة والأخبار العلمية الصحيحة.

٢ ـ **يقدم أحدث ما أنتج العلم** مع الأصالة فيما قرره الدين.

٣ ـ **يقدم بالمقارنة بين الدين والعلم في اتساق واضح**، لأنه يلتزم بالحقائق العلمية الثابتة التي لا تتغير حتى لا تتغير المفاهيم القرآنية بتغير بعض النظريات العلمية المتطورة دائماً، وقد يؤدي تطورها إلى تغيرها بالكلية، فلجوؤه إلى ثوابت العلم أنسب في تناول الموضوع حين يكون مقارنة مع ثوابت الدين.

٤ ـ **كل ذلك مع سهولة الأسلوب، وتبسيط العلم، وتيسير عرض حقائقه للقارئ. ولعل ذلك هو الذي دفع الباحث ماهر أحمد الصوفي كاتب هذه «الموسوعة الكونية الكبرى»** إلى عرض عمله العلمي بطريقة تختلف عن الموسوعات الأخرى التي تلتزم بالموضوعات وفق حروف الهجاء، مع ما يترتب على هذه الطريقة من عرض المعلومات المتفرقة المفككة فهي

تحتاج إلى رابط بينها، لكن الطريقة التي اعتمد عليها الكاتب الباحث تقدم عرض الموضوعات تحت عنوان موضوعي يجمع شتات الموضوع في عرض تاريخي علمي كأن يعرض المعلومات المتفرقة تحت عنوان آيات اللّه في السماء، أو آياته في البحار والمحيطات والأنهار، فذلك أجمع في عرضه لذهن القارئ وأكثر إفادة في ربط المعلومات في سياق واحد مفيد.

نرجو اللّه أن يجعل له ذلك في ميزانه، خدمة للدين والعلم، ومرضاة له، وتجلية لما احتوى عليه القرآن الكريم من وجوه الإعجاز في مجال الخلق والعلم على السواء.

الأستاذ الدكتور عبد المعطي البيومي
عميد كلية أصول الدين
القاهرة ٢٢/ رمضان/ ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
في الإعجاز اللغوي والبياني

كتاب اللّه القرآن الكريم، هذا الكتاب العزيز عند اللّه سبحانه أعزه بعزه وأنزله بعلمه.. كل كلمة فيه تدل على عظيم منزِّله، وكل آية فيه تدل على علم منزِّله.

نزل القرآن الكريم على مدى ثلاث وعشرين سنة ولو نزل مرة واحدة فلا يمكن للبشرية لو اجتمعت أن تفهمه ولا أن تأتي بمثله.. وهو بآياته المتفرقة نزولاً صرع أهل زمانه وهم أعلم الخلق بلغة العرب وفنونها وبيانها وفصاحتها وأسلوبها ورجزها وشعرها ونثرها بل لو نزلت كل سورة كما نقرأها اليوم دفعة واحدة لأحدثت مثلما لو نزل القرآن دفعة واحدة ذلك أن علم اللّه سبحانه في السورة الواحدة هو علمه في القرآن الكريم كله لذلك جاء التحدي في القرآن كله ثم في عشر سور منه ثم في سورة واحدة لعلم اللّه بعجز خلقه عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة واحدة.

وكثير من الناس عندما يقرأ قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٨]

يظن أن التحدي قائم من ناحية لغة القرآن وبيانه وصياغته وربما جلس كثير من الناس محاولاً أن يأتي بمثل القرآن نظماً أو لغة أو بياناً، ويظن أن محور الإعجاز يتمحور حول هذه القضية قضية نظم القرآن لغة وأسلوباً وبياناً، فيعمد إلى صياغة مثل آياته كما فعل مسيلمة والمتنبي وغيرهما كثير فقال مسيلمة مقلداً سورة الفيل صياغة (الفيل وما أدراك ما الفيل له خرطوم طويل وذنب وبيل) فهل جاء تحدي اللّه سبحانه للعالمين من إنس وجن ولو

كان بعضهم لبعض ظهيراً أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة من أجل الصياغة واللغة فحسب.. فإن قال أحدهم: نعم فهذا هو الجهل بعينه.. بل الصياغة لغة وبياناً وأسلوباً مجتمعة واحدة من إعجازه التي تتعدى العشرات بل المئات فالقرآن الكريم أصل إعجازه ما قاله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]..

فالكلمات ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ هو موطن الإعجاز العام للقرآن الكريم تماماً كقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٣٨]

إذاً قضية الإعجاز القرآني أكبر بكثير حتى من مجموع مداركنا بل تخيلاتنا ذلك أنه من علم اللَّه سبحانه، فكيف لنا بعلمه وهو شديد المحال كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٣]

وكيف لنا بعلمه وقد وصف اللَّه عباده في الأرض بأنهم لم يؤتوا إلا قليلاً من العلم، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٥]

ومع ذلك لا نستطيع أن نقول: إن القرآن لما نزل على سيدنا محمد ﷺ في مكة المكرمة كان متعدد الإعجاز في التحدي لعرب قريش والجزيرة العربية، بل كانت معجزته لهم هو في صياغته، وجاء التحدي لهم من باب اللغة والأسلوب والبيان والصياغة، وفي هذه كفاية لهم لأن العلوم التي ذكرها اللَّه سبحانه في كتابه كانت بعيدة عنهم بعد السماء من الأرض بل بعيدة عن بني البشر تماماً كما هي بعيدة عن عرب الجزيرة كلها.. فلم يكن العلم متوفراً في أي مجتمع موجود على الأرض في زمن نزول القرآن بل كانت المجتمعات تغط في سبات عميق وجهل مطلق عن العلوم الكونية والأرضية وما فيهما.. ولذلك كان التحدي من نوع واحد وهو اللغة ثم بعلم اللَّه بتقديم هذا التحدي للأزمان القادمة عندما يتطور العلم وإلى أن يرث اللَّه سبحانه الأرض ومن عليها.

نعم لقد جاء الإعجاز لأهل الجزيرة العربية وقبائلها عامة ولقريش خاصة

إعجاز لغة وبيان، جاءهم الإعجاز بما يفهمونه ويعتبرونه مفخرتهم وعزهم فهم أهل عكاظ وسادة الكلمة والقبائل في كل الجزيرة العربية تهفو إليهم في كل عام بشعرائها وخطبائها وصانعي نثرها علهم يلقون سمعة وحظوة من خلال قريش وسوقها وحكامها فعندهم سحر القوافي وسجع الكلام وكنايته وتوريته ورونق الجمل وبيان الخطبة وروعة النثر، حقاً إنهم كانوا يملكون مصانع الكلمات يزرعون في أرضهم البيان فيخرج سحراً ويزرعون القوافي فتخرج شعراً وفي كل عام يحصدون ثمار ما جاءت به العرب من أدب ونثر وشعر يضاف إلى خزائن شعرهم ونثرهم ولا يملكون شيئاً يتباهون به بين الأنام إلا صناعة الكلام وقوافي الشعر ونثر الخطب وسلامة اللسان من اللحن وهم في ذروة مجدهم في علم اللغة بُعث رسول اللّه ﷺ بدين الإسلام ونزل القرآن الكريم المعجز الخالد من إله عليم على نبي أمي كريم لا يقرأ ولا يكتب بلسان عربي مبين فزلزل قواعد بنيانهم من الأساس وأسكت أكثرهم ثروة في علم الكلام ورضخ له كبراؤهم وأعلمهم باللغة والشعر والبيان.

صدحت الآيات بعلم ربها على لسان نبي يعلمون جميعاً أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس له في شأن اللغة والشعر والبيان والنثر دلالة وتاريخ أو عهد أو مبارزة مع أحد، ولم يكن في يوم قبل البعثة خطيباً ولا شاعراً ولا ناثراً، ولا علموا عنه أنه كان من أصحاب القلم وليس له في مصانع الكلام عندهم نصيب أو شراكة أو عهد قديم.

نزلت الآيات الكريمة على سيدنا محمد ﷺ تباعاً فأسكتهم بيانها وسحرتهم كلماتها وبهرتهم معانيها، إذ لم يألفوا من قبل مثل هذا الكلام ولم يعهدوه عند قبيلة عربية لا في الجزيرة ولا خارجها وما كان مثله في سوق عكاظ من قبل على مدى عشرات السنين.

جاءت الكلمات تقرع أسماعهم فيهربون منها خوف الإيمان أن يدخل قلوبهم وهم لا يريدونه، جاءت كلمات القرآن الكريم فأثارت أحاسيسهم وهيجت شعورهم وعبرت مسالك جلودهم وعروقهم حتى وصلت قلوبهم فأغلقوها عسى أن يصيبهم الإيمان وهم لا يريدونه.

نعم إنها لغة القرآن الكريم التي جاءتهم بأسلوبها الفذ وبيانها الواضح

من فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم يهربون منها ثم يعودون إليها ليسمعوها خلسة ومن وراء جدر، كما فعل الوليد بن المغيرة وغيره، يتعاهدون أن لا يسمعوا لهذا القرآن في النهار ثم يتسللون في الليل مخالفين ما تعاهدوا عليه ليسمعوا من أحد الصحابة وهو يقرأ القرآن ثم ينكشف أمر بعضهم لبعض فيعودوا فيتعاهدوا مرة أخرى أن لا يسمعوا لهذا القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٢٦]

لقد أعيتهم الحيلة في وصف القرآن الكريم ووصف النبي ﷺ الناقل الأمين لهذا القرآن.. حقاً لقد علموا أن هذا الكلام كتاب اللّه لا يمكن أن يكون من بشر منهم أعلم الناس بكلام البشر حتى لو أوتي محمد من قبل مجامع الكلم ولكن محمداً ﷺ هم أعلم به وهو يعيش بين ظهرانيهم ولا يخفى عليهم من محمد شيء فهم يعلمون حق العلم أنه أمي وما عهدوا عنه القراءة والكتابة أبداً وكل الوقائع والأحداث تشهد بهذا لذلك لم تنجح خطتهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٢٦]

فإذا لم يسمعوا هم فسيسمع غيرهم ويؤمن به، وهذا أقلقهم وشددوا الحرب عليه، إذاً لا بد من افتراءات جديدة قوية تخدم ما يخططون له.

.. عندما استمع الوليد بن المغيرة القرآن وأعجب به كشف أمره عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل وأنبه تأنيباً شديداً بعد أن سمع رأيه في القرآن فقال عنه: «إن أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه» فقال له: أصبئت يا وليد، فأقسم الوليد أنه لم يصبأ، فقال له أبو جهل: إذاً قل غير هذا وأخذت الأفكار الشيطانية تجول في خاطره لعله يجد له تسمية تنفر الناس منه وهو يعاند ويكابر على الحقيقة التي أدركها وأنه ليس بكلام بشر وأن أعلاه مثمر وأسفله مغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الأمر ووصف تلك الحادثة بين جهابذة الكفر وكبار المعاندين ظلماً وزوراً، فقال اللّه سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾.

[سورة المدّثر، الآيات: ١٩ ـ ٢٥]

فيتوعده اللّه لهذا الافتراء والضلال والكذب بأنه سيصليه سقر ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ المكابرون للقرآن الكريم أسياد وأصحاب المال وربائب العبيد يعيشون في بحبوحة العيش ورغد من الحياة ووافر من الصحة يشربون ما لذ لهم وما طاب من الخمور ويفعلون الفاحشة كيف يحلو لهم لا رقيب ولا محاسب لا تمنعهم آلهتهم المزعومة من تركها بل يحثهم شيطانهم عليها. . الناس لهم تبع وعبيدهم لا يأتون بشيء يغضبهم إنها أوهام السيادة والريادة والنعيم الذي يعيشون به ولا يريدون من يعكر عليهم مجونهم وفسقهم. . فكيف يأتيهم من يتكلم عنهم ويفضح أمرهم ويسويهم مع العبيد ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ .

[سورة الحجرات، الآية: ١٣]

«لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى» فهذا تسفيه لأحلامهم وتقليل لشأنهم وإضعاف لمكانتهم، إذاً لا بد من الحرب، فرأوا تسفيه ما جاء به محمد ﷺ وبإطلاق الصفات العشوائية عليه وعلى ما نزل عليه من القرآن الكريم.

معاندة ومكابرة وربما هم أول الناس غير المقتنعين بهذه الصفات ولكنها المصالح والسيادة والريادة والكبرياء والتعالي على اللّه سبحانه ورسوله، نعم على رسوله ﷺ. . فكيف نزل هذا القرآن على محمد ﷺ وهو رجل برأيهم ضعيف يتيم من قريش هناك من هو أعز منه وأعظم شأناً وأكبر مكانة، وقد بين اللّه سبحانه هذا فقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ .

[سورة الزخرف، الآية: ٣١]

فالقضية مكابرة وكبرياء وتعالٍ وتسفيه، إذاً هي الحرب لا مناص منها على محمد ﷺ وعلى هذا الكتاب الذي يأسر قلوب الناس بكلماته وآياته، وقد بسط القرآن الكريم محاولاتهم جميعاً يقول تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآية: ٥]

تُهَمٌ ثلاث ذكرتها الآية الكريمة لما جاءهم به محمد ﷺ من القرآن الكريم فإن ما يقوله أضغاث أحلام: أي كلام غير موزون لا تكافؤ فيه ولا بيان، أو هو

كلام افتراه كذباً على الله فهو من كلامه أو وحي شيطانه، أو هو شاعر أتى به على طريقة مغايرة لشعر القوافي إنما يشترك مع الشعر في السجع والتقفية.

فهذه صفات عشوائية ثلاث أضافوا عليها صفة أخرى صفة الجنون كما كانوا يقولون، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

[سورة الحجر، الآية: ٦]

يقولون: إنه لمجنون فلا بد إذاً من الاستهزاء به وبما جاء من الذكر الحكيم، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٤١]

ثم قالوا: نطلق عليه صفة أخرى صفة السحر والساحر لعلها تكون أشد تأثيراً في عقول أتباعه أو من يضمر في نفسه اتِّباعه ولتشيع هذه الصفة بين القبائل فلا يؤمن به أحد، يقول تعالى: ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٢]

ولما لم تجد نفعاً هذه الصفات كلها فهو ليس بساحر وما أتى به ليس بسحر، وليس هو أضغاث أحلام وليس هو بشعر وليس محمد بشاعر، وليس هو كذباً، وما محمد ﷺ بكاذب وكان اسمه الصادق الأمين، ولا يمكن أن يكون افتراه، وما محمد بمفترٍ، وكان اسمه الصادق الأمين، ولا يمكن أن يكون أعانه على القرآن قوم آخرون فمن هم؟ وأين هم؟ وهل يعقل أن لا يظهر منهم أحد وهم ينقبون عن محمد في كل مكان ويبحثون وراءه.. ولا يمكن أن يكون أساطير الأولين، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٥]

وأساطير الأولين سواء كانت كتب الأولين أو غيرها، فالقرآن الكريم مغاير تماماً عن هذه القصص وأسلوب عرضها، وأساطير الأولين لم تأت بعلوم الكون والسماء، ولم تأت بعالم الحيوان، ولم تأت بأدق تفاصيل خلق الله للسموات والأرض.. فكلما افتروا صفة لهذا القرآن الكريم ينقضونها هم بأنفسهم، وكلما اختاروا صفة لهذا النبي ينقضونها بأنفسهم، ولم يبق في جعبة المشركين والمناهضين للقرآن الكريم ودعوة الإسلام وبعثة رسول الله ﷺ إلا المكابرة والاستعلاء والاستكبار والتعنت، هم بقوا على استكبارهم والقرآن

الكريم بقي على حقيقته متيناً في أسلوبه واضحاً في بيانه صحيحاً في لغته بلسان عربي مبين صحيح وفصيح كان قوياً في معلوماته صحيحاً في علمه، هادياً في آياته، متيناً في أحكامه، مرشداً فيما يدعو إليه، صادقاً في قيله، يفهم كلماته القاصي والداني والمتعلم وغير المتعلم، يهدي إلى صراط مستقيم، بليغاً في تركيبه، ساحراً في انسياب ألفاظه، يأخذ بالقلوب والعقول، آسراً الألباب والأفكار دافعاً إلى الإيمان، يهدي للتي هي أقوم، ينهى عن الفحشاء والمنكر تنزيلاً من حكيم حميد، تنزيلاً ممن يعلم السر في السماوات والأرض، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً، ولو كان من عند غير اللّه ما سحرتهم آياته، وهدتهم كلماته، وأسرتهم معانيه.

فليست القضية صف كلمات وجزل عبارات، وتميز أسلوب، وفصاحة لسان، وبلاغة تركيب، ووضوح بيان، بل كلها مجتمعة واحدة من إعجازه ولا يعلم مجموع إعجازه إلا منزله وهو اللّه سبحانه عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

إن قارئ القرآن الكريم تشده نشوات ورغبة عجيبة عندما يقرأه فلا يمل منه ولا يشبع ولا يزداد على كثرة الرد والقراءة والتكرار إلا جمالاً في نفس قارئه.

وأجمل ما قرأت في وصف هذا الكتاب العظيم ما جاء في الحديث الشريف عن علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**كتاب اللّه فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه اللّه ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللّه وهو حبل اللّه المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهو اء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

[سورة الجن، الآيتان: ١، ٣]

من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[١].

(١) سنن الترمذي: رقم الحديث ٢٨٣١

هكذا سحر القرآن ألباب الناس في لغته وبيانه وأسلوبه فهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد.. إنه أروع تصوير لكتاب اللّه المعجز في حلاوته وطلاوته وبيانه وأسلوبه ولغته، فهو أسلوب لم تأت به العرب من قبل ولا من بعد وسيبقى إعجازه خالداً على مر الدهور والأيام في الدنيا إلى أن يرث اللّه سبحانه الأرض ومن عليها، وسيبقى خالداً في قلوب وعقول المؤمنين في الآخرة وهو معهم في جنات الخلد يرفع اللّه به المؤمنين درجات في الجنة فيقال لقارئ القرآن اقرأ واصعد.. أي في الدرجات فهو في درجة ومنزلة مع آخر آية يحفظها ويتلوها، ومن يتلوه يوم القيامة يرتقي بدرجات كبيرة في جنات النعيم ويبقى حياً في قلوب حفاظه ومرتليه وقارئيه خالداً بخلودهم باقياً ببقائهم.

قال رسول اللّه ﷺ: «**يقال لقارئ القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»[1].

(١) رواه الترمذي برقم ٢٩١٤، وأبو داود برقم ١٤٦٤.

الفصل الأول

- آيات التحدي والإعجاز .
- الإعجاز اللغوي للقرآن العظيم ومحاولات فاشلة للتقليد .
- لغة القرآن الكريم .
- الأحرف السبعة والقرآن الكريم .
- وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً .
- تأثير القرآن الكريم في اللغة العربية .
- مفردات القرآن الكريم .
- الكلمات وحروفها في القرآن الكريم .
- الجمل وكلماتها في القرآن الكريم .



آيات التحدي والإعجاز

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤]

اللَّه سبحانه يعلم أن البشرية لن تأتي بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فأتى اللَّه المشركين والمعاندين من ضعف آخر لهم، وهو أن يأتوا بعشر سور من مثل هذا القرآن ولم يحدد اللَّه سبحانه سوراً طويلة أو قصيرة زيادة في تسفيه مَن كفر وأشرك باللَّه وطعن في هذا القرآن العظيم.. بل لا يزال التحدي قائماً في دعوة من شاؤوا من أقرانهم وأمثالهم في الأرض كلها، فإذا كانت الآية السابقة التي قال اللَّه تعالى فيها: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فإن هذه الآية صورة أخرى لنوع شديد من الإعجاز وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾.

فهل يمكن لبشر أن يتحدى الناس جميعاً وإلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويؤكد على أنهم لن يفعلوا.. فإذا كان أحدنا عبقرياً ويملك فَهْمَ حاضرِهِ وأحوالِ وقدراتِ معاصريه فأنى له بالمستقبل.. اليوم لو اجتمعت كل تكنولوجيا العصر وفي كل دول العالم أن يتنبأوا ما سيحدث غداً فقط وليس بعد غد فإنهم لن يستطيعوا ولن تستطيع الآلات الحديثة التنبؤ بأحداث يوم غد.. فكيف لبشر أن يتحدى معاصريه ومن سيأتون بعده إلى مئات السنين أن يأتوا بمثل هذا الكتاب الذي بين يديه، وزد على ذلك أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ويشهد أقرانه له بذلك أنه ما تعلم وما قرأ وكان ﷺ يعمل في صباه راعياً للغنم وفي جزء من شبابه عمل في تجارة السيدة خديجة رضي اللَّه عنها، لذلك كان خطاب اللَّه سبحانه في كثير من آياته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.. فهو الخطاب الموجه

للعقول.. لذلك عندما خاطب المشركون محمداً ﷺ أن يأتي بغير هذا القرآن الذي لا يوافق هواهم، أجابهم أنه لا يمكن أن أبدله من تلقاء نفسي وأن اللّه سبحانه لو شاء ما تلوته عليكم وما أدراكم به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[سورة يونس، الآيتان: ١٥، ١٦]

والأمر لا يتوقف عند مشركي مكة أو منافقيها وكافريها، ولكن الأمر أوسع من ذلك بكثير فالقرآن الكريم نزل للبشرية جميعاً في زمن محمد ﷺ وما يليه من القرون وإلى كل أنحاء العالم وساكنيه حتى يوم القيامة والحساب عليه يوم القيامة وعلى الإسلام وشهادة ألا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه.. فليس مشركو مكة هم المطالبين بفهم هذا القرآن والإيمان به وأنه نزل من عند اللّه سبحانه وأنه الحق من رب العالمين.. فالبشرية مطالبة بالإيمان به وقراءتِه وتدبرِ معانيه، وأن لا يقفلوا قلوبهم ويجعلوا عليها أقفالاً من دونه.. فلتقرأه البشرية على مختلف عقائدها ولتدرسه ولتتفهمه وتتأمل معانيه بحياد وتجرد.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

[سورة محمد، الآية: ٢٤]

.. فاللّه سبحانه يطلب من الناس جميعاً أن يتدبروا كلامه المنزل عليهم لا أن يغلقوا قلوبهم أمامه أو يقرؤوه بهدف التجريح واللغو فيه ومنازلة متبعيه وتسفيههم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

[سورة فصلت، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢]

.. فقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ليست مخصوصة لكفار قريش ومشركيها ومنافقيها بل للعالم أجمع وفي كل زمان ومكان حتى تقوم

الساعة وتتوقف الأقلام، والله سبحانه يحذر ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٤]

ولنستمع إلى ما يقوله بعض المفسرين حول هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤]

.. ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إلٰه إلا هو، فقال مخاطباً الكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير اللَّه، فعارِضُوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون اللَّه فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس: (**شُهَدَاءكُم**) أعوانكم، أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقد تحداهم اللَّه تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقال في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة [(١)] ورجح ذلك بوجوه من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ يعني من رجل أمي مثله، والصحيح الأول لأن التحدي عام لهم كلهم

(١) واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي وأكثر المحققين.

مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ و«لن» لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك لم يعارض إلى زماننا هذا، ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام اللّه خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟

ومن تدبر القرآن وجد فيه وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . .
[سورة هود، الآية: ١]

فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ .
[سورة الأنعام، الآية: ١١٥]

أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر (إن أعذبه أكذبه) وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء أكانت مبسوطة أم وجيزة تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، إن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟ وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى

دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة السجدة، الآية: ١٧]

.. وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

[سورة الزخرف، الآية: ٧١]

.. وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٦٨]

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

[سورة الملك، الآيتان: ١٦ ـ ١٧]

وقال في الزجر: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٤٠]

وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]

إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت اللّٰه تعالى يقول في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٥٧]

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد اللّٰه فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط اللّٰه المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم، ولهذا قال رسول اللّٰه ﷺ: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي**

أوتيته وحياً أوحاه اللَّه إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

وقوله ﷺ: «**وإنما كان الذي أوتيته وحياً**» أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلٰهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء واللَّه أعلم.

وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، وللَّه الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٤]

أما الوقود فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

[سورة الجن، الآية: ١٥]

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٩٨]

والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا اللَّه منها، وقال السدي في تفسيره عن ابن مسعود: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار، وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون اللَّه كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] الآية.

وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٩٧]

وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها، قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الأظهر أن الضمير عائد إلى النار ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ومنافاة بين القولين في المعنى لأنهما

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم.

(٢) حكاه القرطبي والرازي ورجحه على الأول،وقال ابن كثير: وهذا الذي قاله ليس بقوي.

متلازمان و﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين باللّه ورسوله، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وهيئت، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: «**تحاجت الجنة والنار**» ومنها: «**استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف**» وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها**» وهو مسند عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا، ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ يعم كل سورة في القرآن، طويلة كانت أو قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وقل يا أيها الكافرون، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله: أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا): فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه، الصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة، قال الشافعي رحمه اللّه: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم: ﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[١].

---

(١) مختصر ابن كثير صفحة ٤٤ الجزء الأول.

ويقول السعدي في تفسيره[1]: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤]

.. وهذا دليل عقلي على صدق رسول اللّه ﷺ وصحة ما جاء به.

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين على دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فها هنا أمر نصف، فيه الفيصلة بينكم وبينه وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند اللّه، وقلتم أنتم أنه تقوّله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون فأتوا بسورة من مثله واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول ﷺ، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذه آية كبرى ودليل واضح (جلي) على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة (والشدة) أن كانت وقودها الناس والحجارة ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين باللّه ورسله، فاحذروا الكفر برسوله بعدما تبين لكم أنه رسول اللّه.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٨]

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه، هذا ليس في الإمكان، ولا في

(١) تفسير السعدي صفحة ٤٦.

قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ إلى آخره، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة: هو الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق، وإن كان صادقاً في طلب الحق.

وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يفيق.

وفي وصف الرسول ﷺ بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وفي مقام الإنزال، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وفي قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافاً للمعتزلة، وفيها أيضاً أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة.

ويقول الصابوني في صفوة التفسير: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۞ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ٢٣ ـ ٢٥]

التفسير: يقول تعالى منبهاً العباد إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نعم اللّه الجليلة عليكم، واعبدوا اللّه ربكم الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، اعبدوه

بتوحيده، وشكره، وطاعته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح.

قال البيضاوي: لمّا عَدّد تعالى فِرق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزًّا للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكل ما نادى اللّه له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن ينادى له بالآكد الأبلغ[١] ثم عدد تعالى نعمه عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها.

قال البيضاوي: جعلها مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[٢] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاء لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع اللّه في العبادة وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق، وأن اللّه هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين.

قال ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم، وإسباغه عليهم النعم، والمراد بالسماء هنا السحاب، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته وعند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم، ومضمونه أنه

---

(١) البيضاوي: ١/١٦.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور رواد الفضاء حولها في هذا العصر.

الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده لا يشرك به غيره[١] ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه، الذي أنزلنا على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير اللّه سبحانه، والمراد: استعينوا بمن شئتم غيره تعالى.

قال البيضاوي: المعنى ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير اللّه سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا اللّه[٢] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً.

قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و«لن» لنفي التأبيد في المستقبل، أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً غير خائف ولا مشفق أن القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام[٣]

(١) مختصر ابن كثير: ١/ ٣٨.
(٢) البيضاوي: ١/ ١٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤١.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ أي خافوا عذاب اللّه، واحذروا نار الجحيم التي جعلها اللّه جزاء المكذبين ﴿ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ أي اتقوا النار التي مادتها تشعل بها وتضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون اللّه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾.

قال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين الجاحدين ينالون فيها ألوان العذاب المهين[(١)].

قرأنا ما قاله ابن كثير والصابوني والسعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤]

وأقول بعون اللّه تعالى بعد قراءة كل هذه التفسيرات: إني ما قرأت مثل هذه الآية الكريمة من حيث تأدية معناها والغرض المنشود منها.. فتأمل الآية الكريمة وأعد قراءتها مراراً تجد أنها لا يمكن أن تكون إلا من اللّه سبحانه، وأنه لا يمكن أن يخطر ببال بشر من مثل هذا القول ولا من مجموعة كثرت أم قلت.. فمن السور المنزلة طوال وقصار، ومنها لا تتجاوز سطراً واحداً، وقال كل المفسرين كما أوردت وفي غير ما أوردت أن المقصود في الآية التحدي سورة سواء كانت من السور الطوال أو القصار من مثل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ فكلماتها عشر.. فهل يعقل أن لا تأتي البشرية بمثل هذه الكلمات العشر التي لا تؤلف فيما بينها أكثر من سطر واحد، إلا أن التحدي واقع ولم أقل وقع بل واقع لأنه يحمل صفة الديمومة إلى نهاية الحياة على الأرض، فإذا عجز المشركون عن الإتيان بسورة لا تشكل سوى سطر واحد فإن التحدي قائم لمن يأتي بعدهم، فهل يعجز من يأتي بعدهم كذلك؟ فهل التحدي قائم كصياغة ولغة وأسلوب وبيان؟ أم أن الأمر يتعدى حدود الصياغة وفنونها؟ فلو أن التحدي قائم على السور الطوال كسورة البقرة وآل عمران، والنساء والأعراف.. فربما نقول: إن المقصود من التحدي الصياغة

(١) تفسير الصابوني: صفوة التفاسير صفحة ٣٣.

واللغة والأسلوب.. فالسورة طويلة فمثلاً سورة البقرة ٤٩ صفحة فهي طويلة فعلاً فالتحدي والإتيان بمثلها كصياغة ولغة مقبول عقلياً.. ولكن التحدي للبشرية كلها وإلى أن يرث اللّٰه سبحانه أرضه ومن عليها بسطر واحد كسورة الكوثر أو العصر أو الصمد وغيرها، وقد وهب اللّٰه سبحانه الإنسان عقلاً وفكراً مميزاً قد يأتي كصياغة بمثل تلك السورة (سورة الكوثر) (سورة العصر).. إذاً هناك سر يعلمه الذي يعلم السر في السماء والأرض، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ومن الخطأ أن نظن أن الإعجاز والتحدي في القرآن الكريم قائم على الصياغة لغة وبياناً.. بل الصياغة واللغة والبيان والأسلوب كلها واحدة من معجزات القرآن الكثيرة التي لا يعلم سرها إلا اللّٰه سبحانه حتى لو كانت السورة لا تتعدى السطر الواحد أو السطرين.. ذلك أن السورة القصيرة هي من علم اللّٰه سبحانه وليس من علم البشر وأن ليس للبشر من علمها شيء حتى لو كانت من كلمات قليلة.. فالكلمة الواحدة في القرآن سر من أسرار الخلق فكلمة (الكوثر) كلمة واحدة فقط ولكن من يعلم سرها ومن يعلم سر الكوثر وهي كما قال رسول اللّٰه ﷺ: «**الكوثر نهر أعطانيه اللّٰه سبحانه في الجنة**» وهنا يكمن سر التحدي الإلٰهي.. فمن يملك سر نهر الكوثر إلا اللّٰه سبحانه.. بل من يملك سر الآخرة إلا اللّٰه سبحانه، بل من يملك سر الجنة والنار، فهذه الآية نزل علمها من الجنة حقيقة وليس وهماً أو كلاماً مرصوفاً مصفوفاً فالنهر (الكوثر) موجود فعلاً وليس هو وعداً سيحققه اللّٰه سبحانه فيما بعد أو سينشئه اللّٰه تعالى فيما بعد عندما ينشئ الجنة، فالجنة حقيقة واقعة موجودة وكل ما فيها مخلوق موجود قبل أن يخلق اللّٰه سبحانه الإنسان على الأرض فهي معدة من قبل، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٣٣]

.. تماماً كما أعد اللّٰه جميع ما في الأرض من جبال وماء وسحاب ومطر وأشجار ونبات وحيوان قبل أن يخلق الإنسان.

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٩]

فمن يعلم أن الجنة مخلوقة إلا اللّه؟ ومن يعلم أن النار مخلوقة إلا اللّه؟ ومن يستطيع أن يصل إلى الجنة فيخبرنا بها أو إلى النار فيخبرنا بها؟ وهما أي الجنة والنار فوق سبع سماوات والإنسان لم يصل بجسده رغم كل هذا التطور العلمي الهائل أبعد من القمر الذي لا يبعد عنا أكثر من ثانية ضوئية واحدة، وآخر نجم تم اكتشافه بواسطة التلسكوب هابل يبعد عن الأرض خمسة عشر مليار سنة فتصور البعد الهائل بين الثانية الضوئية الواحدة والتي بذل الإنسان فيها جهداً كبيراً للوصول إلى نهايتها وهي القمر وتصور مسافة خمسة عشر مليار سنة وليس خمسة عشر مليوناً بل ملياراً وهذه المجرة المكتشفة ليست هي آخر المطاف وليس أي اكتشاف علمي حديث هو آخر المطاف فربما يكتشفون بعد أن يطوروا تلسكوبات جديدة مجرات تبعد أضعاف أضعاف آخر مجرة مكتشفة حتى الآن وكل هذا ليس بغيب فالغيب هو الذي لا يعرفه الإنسان ولن يصل علمه إليه حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها فأين الناس من علم اللّه وقدرة اللّه وإعجاز اللّه في كتابه الذي أنزله بعلمه والذي يحمل آلاف المعجزات والتي علمنا بعضها ولم نعلم أكثرها ومنها هذا الإعجاز العظيم في نظم القرآن ولغته وأسلوبه وكلماته وحروفه وإعجازه الغيبي والتشريعي.

الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن العظيم ومحاولات فاشلة للتقليد

لقد راع العرب والناس جميعاً من القرآن لفظه الساحر، ونظمه البارع، وتأليفه الرصين، وجرسه العميق، وبلاغته القائمة التي تأخذ بمجامع القلوب... ثم مبادئه العالية وأخلاقه الرفيعة، وأصوله العامة التي تكفل حياة الأمم، وترقى عليه الشعوب... وهو فَذٌّ في مجموعه مكون من كلمات مادتها حروف وألفاظ وهذا مما جعل الحاقدين من الكافرين والمستشرقين الذين تطفح نفوسهم بالحقد وأفواههم بالبغضاء يطلقون العنان للأقاويل الطائشة حوله وهؤلاء الأعداء دائماً يتحينون أي فرصة للطعن في الإسلام والنيل منه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فنراهم في كل وقت وحين يصوبون سهامهم إليه ويظهرون نحوه أحقادهم وضغائنهم، ونحن أمام ذلك كله ينبغي علينا أن نقوم بواجب الدفاع عن ديننا والذود عن مقدساتنا وفي مقدمة ذلك دراسة شبهات الأعداء والمستشرقين حول القرآن الكريم ودحضها بشتى الوسائل، وإظهاراً لجلال القرآن بخاصة، وجمال الإسلام بعامة.

التحدي ومحاولة التقليد:

نزل القرآن في بضع وعشرين سنة واكتمل في هذه المدة على طريقة معجزة، يستوي أولها نزولاً وآخرها في الأطر والنظم والبلاغية ولم يعهد في تاريخ الأرض كله أن كلام إنسان يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاماً.

وطول مدة نزول القرآن لم يتفاوت أمره مع اختلاف أحوال النفس

وأمور الزمن، ومع إحصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة، والذهاب به حفظاً وتلاوة، حتى لا يجد السبيل إلى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفضل عنه.

ومن أسرار الإعجاز في هذا الكتاب الكريم أنه نزل بلسان عربي مبين بين عرب فصحاء، طبعوا على الصراحة في الرأي والشجاعة في القول، والأنفة من الذل والديم(١).

وقد تحداهم القرآن واستثار حميتهم وسفه أحلامهم وكان التحدي سافراً يثير حفيظة الجبان مع ما كانوا عليه من أنفة وعزٍّ، فسلكوا مع الرسول ﷺ مسالك عدة، ساوموه بالمال والملك، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً، واتهموه بالسحر والجنون، وتآمروا على حبسه أو قتله أو إخراجه.

لقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، ثم طاولهم في المعارضة، وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على رغم المطاولة، يتنقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة، ينتقل من فوز إلى فوز، ويخرج من نصر إلى نصر ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

[سورة القصص، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠]

وقال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٨]

وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[سورة هود، الآية: ١٣]

وقال لهم في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

(١) عبد الله محمود شحاتة ـ علوم التفسير.

مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤]

لقد عجزوا على أن يأتوا بآية فهزموا وسجل اللّه عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم وظهر أمر اللّه وهم كارهون.

لقد كان تحدي القرآن للقوى البشرية، ولقوة الإنس والجن معاً على أن يأتوا بشيء من مثله تحدياً واضحاً صريحاً صارخاً وكان يمكن أن يكون كافياً لو كان هناك حياء في بعض الفطر البشرية المكابرة، ولكن قوماً حلا لهم أن يقبلوا التحدي، وأن يظنوا بذلك أنهم معجزو النبي ﷺ، ولكنهم كانوا معجزي أنفسهم ودلوا بعملهم على سخافة العقل وتفاهة الفكر، وصغر النفس، فوضعوا أنفسهم بذلك موضع السخرية والتندر على تطاول عصور البشرية لا يخلو من ذلك جيل حتى يسلم قضية سخافتهم إلى الجيل الذي بعده.

ولم يدخل ميدان المعارضة القرآنية إلا مكابر عنيد أو سخيف بليد، قصد المعاندة واللجاج لا غير، أما الفصحاء العقلاء من العرب فقد امتنعوا من المعارضة لأن جهدهم ينقطع دونها فعرفوا أنفسهم على حقيقتها فلم يوردوها موارد التندر والسخرية بعد انقطاع الأنفاس وأيقنوا أن الذي يتحداهم هو ضرب من القول، وجنس من الكلام لا تصل إليه قدرات الناس مهما ارتفعت، ولا تسمو إليه كفايتهم مهما علت.. فكان سكوتهم عن المعارضة والمجاراة أكبر دليل على عجزهم واستسلامهم.

أما أمل العناد ممن عرفوا عجزهم، وأدركوا قصر مداهم، فقد قصر مداهم بالفعل فلجؤوا إلى سلاح المحاربة للقرآن بالطعن فيه، والعيب عليه ولم يعجزهم في ذلك أن يجدوا مجالاً للعيب عليه، ما داموا قد وطنوا أنفسهم على المحاربة فمن التمس عيباً لم يجد الوصول إليه صعباً[١].

(١) محمد عبد الغني حسن: القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز.

أمثلة فاشلة لمعارضة القرآن:

حاول عدد من السخفاء الحمقى أن يعارضوا القرآن، متوهمين أنه كسجع قلق يعارضون به القرآن، وشتان ما بين الحق والباطل وقد باءت محاولتهم بالفشل، وأخزتهم أمام الجماهير، وكان مصرعهم هذا برهاناً مادياً على أن القرآن كلام اللّه القادر وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن.

ومن هؤلاء الحمقى: مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وسجاح التميمية التي تنبأت في عهد النبي ﷺ، ثم أسلمت بعد ذلك فحسن إسلامها، والنضير بن حارث وكان يلفق قصصاً وأخباراً للأمم القديمة، ظن أنه يعارض بها قصص القرآن.

ومما زعمه مسيلمة من سخف زعم منه أنه أوحي إليه بكلام كالقرآن يقول: (**إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر**).

وينسب لمسيلمة قوله: (**يا ضفدع يا بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين**)

وقوله: (**الفيل ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل**).

وافتراءه (**والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألوانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب وقد حرم المَذْق فما لكم لا تمجعون**).

ومما قاله أيضاً: (**والباذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه**)[١].

إن مثل هذا السخف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان؟

وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية، وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه في ذلك؟

يقول الرافعي: إن مسيلمة لم يرد أن يعارض القرآن من ناحية الصناعة

---

(١) محمد صبيح: بحث جديد عن القرآن الكريم..

البيانية، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه بهذا السجع القلق، وما كان مسيلمة في قوله السجع حاذقاً، ولا في دعوى النبوة صادقاً وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم: (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر).

ويروى أن أبا العلاء المعري، والمتنبي، وابن المقفع حاولوا معارضة القرآن، ولكنهم ما كادوا يبدأون هذه المحاولة حتى خجلوا واستحيوا فكسَّروا الأقلام ومزقوا الصحف، ومن سخفهم قول المتنبي فيما أسماه قرآناً «**والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار. . امضِ على سنتك، واقف أثر من قبلك من المرسلين، فإن اللَّه قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله**».

وقول المصري: «**أقسم بخالق الخيل، والرياح الهابة بليل، بين الشرط ومطالع سهيل، أن الكافر لطويل الويل، وأن العمر لمكفوف الذيل، تعد مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج ولا أخاً لك بناج**».

وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء (البهائية والقاديانية) وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن ثم خافوا أو خجلوا أن يظهروها أمام الناس فأخفوها على أمل أن يأتي الوقت المناسب فيخرجوها بعد أن يكثر الجهل ويطيش العقل، فما أفسد طبع هؤلاء وهؤلاء ويا لها من سخافة وتفاهة فكر!!

فليعلم كل ساذج ضعيف العقل والنفس أن القرآن دائماً فوق الآثار والوثائق البشرية والأحكام العقلية وسيظل بعيداً عن الابتذال ومصوناً من العبث لا يتطاول عليه جاهل، ولا ينال منه أحمق، ولا يسكت صوته مسلَّط، ولا يطفئ مصباحه ذو جبروت، بالرغم ما رأينا من محاولات مغرضة استهدفت إلحاق الشبهات الباطلة بالقرآن على أنهم بالرغم من ذلك يعلمون أن محاولاتهم فاشلة ونهايتها الإخفاق، وللَّه الحمد والمنة على أن وفق للدفاع عن قرآنه علماء مخلصين وجعلهم ورثة الأنبياء، فقاموا بواجب الذود عن القرآن ليبقى إلى الأبد ناصع الوجه، ساطع الحجة محتفظاً بسر الوحي الإلٰهي في حرارته وقدسيته وشدة تأثيره على القلوب والمشاعر[١].

---

(١) محمد عباس محمد عرابي.

نعم ليعلم كل حاقد مفترٍ وكل سخيف العقل ضعيف النفس أن كل مطاعنهم في القرآن لا تعدو أن تكون هرشة طفل في جلد فيل، أو صيحة في الصحراء، أو كطائر يريد أن ينزح المحيط بمنقاره، وليعلموا أن القرآن هو الدستور السماوي الذي أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء، نعم ولِمَ لا أليس هو الكتاب الذي فتح به محمد صلوات اللّه عليه قلوباً غلفا وآذاناً صماً وأعيناً عمياً؟

ألم يشهد له الأعداء شهادة الحق جرى على ألسنتهم رغم أنوفهم: كما قال الوليد: (واللّه إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه).

يقول **هنري دكاستري**: إن القرآن الكريم يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب ولقد نزل على محمد دليلاً على صدق رسالته.

ويقول **واشنطن يروينج**: يحوي القرآن أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً.

ويقول **جوتـه**: إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية وما أكثر أقوال المنصفين من غير المسلمين حول القرآن الكريم مثل **ولز**، **وبوكاي**، **وجيمس متشز**، **وريتان** وغيرهم.

أليس هو الكتاب الذي لا يزال غضاً بكراً منذ نزوله إلى اليوم، وإلى أن ينفض سرادق هذه الحياة، فهو لا يخلق على كثرة الرد.

انظر!! كم عالم أمّ ساحته، وكم مفكر راد طريقه، وكم من باحث حام حوله، فبأي شيء رجعوا؟ إنهم ما آبوا إلا بقليل من فيض، ويبقى كتاب اللّه وحده قمة شامخة لا تطاول.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ١٠٩]

سيظل القرآن هو هو دون تغيير أو تحريف، وسوف يتوالى الزمن، وتنصرم الأحقاب، والعلماء يترددون على بابه ويقفون في رحابه، فيجد كل منهم فيه غير ما يجده الآخر، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد غرائبه.

لغة القرآن الكريم

الأصل فيمن نزل القرآن بلغتهم، قريش، وقد سلف لنا في مبحث اللغة كلام في معنى الإصلاح الذي خلصت به لغتهم إلى التهذيب، وكيف واروا بينهم في لغات العرب ممن كان يجتمع إليهم من الحجيج أو ينزل بهم من العرب في كل موسم ومتسوق وكان طبيعياً أن يكون القرآن بلغة قريش، لأن رسول اللَّه ﷺ قرشي، ثم ليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت، وسقاية الحجاج، وعمارة المسجد الحرام، وغيرها من خصائصهم؛ وقد ألف العرب أمرهم ذلك واحتملوا عليه وأفردوهم به، فلأن يألفوا مثله في كلام اللَّه.

وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم، فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي، ثم كانوا لا يعدون في اعتبارهم إياه أنه ضرب من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات، كالسحر والكهانة وما إليهما وهو الذي افترته قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النبي ﷺ فقالوا: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون، وتقولوا من أمثال ذلك يبتغون به أن يحدثوا في قلوب الناس لهذا الأمر خفة الشأن؛ وأن يهو نوا عليهم منه بما هو نته العادة، وهم كانوا أعلم بعادات القوم وما يبلغ بهم، حين قعدوا يصدون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجاً.

وههنا أصل آخر، وهو أن القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي ﷺ من اللغة القرشية وما اتصل بها، كان ذلك مغمزاً فيه، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه، وبين ما يأثرونه من كلام النبي ﷺ فيهون ذلك على قريش، ثم على العرب، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه، فتنشق الكلمة، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم

عليه أبداً، ولو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالي وأقامهم عليه، لكان من الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذي ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته.

وإنما وطّأنا بهذا النبذ من القول لأن طائفة من الناس يذهبون إلى أن القرآن لو نزل على النبي ﷺ بغير القرشية، لكان ذلك وجهاً من إعجازه تلتمس به الحجة ويستبين الظفر، ولخلي عنه العرب فترة وعجزاً، وهو زعم لا يقول به إلا أحد رجلين: من يدري كيف يقول، أو من يقول ولا يبالي أن يدري أنك مطلع منه على جهل وسفه.

ولما كان الوجه الذي أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة، فقد كان من إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعاً، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش، وهذه اللغات وإن اختلفت في اللحن والاستعمال، إلا أنها تتفق في المعنى الذي من أجله صار العرب جميعاً يخشعون للفصاحة من أي قبيل جاءتهم، وهذا المعنى هو مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التي بإزائها تمَّ اتساق الكلام كله على هذا الوجه، حتى يكون كالنغم الذي يصب في الأذن صباً، فيجري أضعفه في النسق مجرى أقواه، لأن جملته مفرغة على تناسب واحد.

وقد استوفى القرآن أحسن ما في تلك اللغات من ذلك المعنى، بان منها بهذه المناسبة العجيبة التي أظهرته على تنوعه في الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد، وهي مناسبة معجزة في نفسها، لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن، لا يقول بإمكانه من يعرف معنى الإمكان، وسنفصل ذلك في موضع هو أملك به متى انتهينا إلى القول في حقيقة الإعجاز.

أما اللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش، فهي لغة بني سعد بن بكر، وهي إحدى لغات العجز، من هوازن ثم سائر هذه اللغات وهي جشم ابن بكر، ونصر بن معاوية وثقيف، وتلك هي أفصح لغات العرب جملة، ثم خزاعة، وهذيل، وكنانة، وأسد، وضبة، وكانوا على قرب من مكة يكثرون التردد إليها ومن بعدهم قيس وألفافها التي في وسط الجزيرة.

قال بعض العلماء: وقد كانت في القرآن ألفاظ من لغات أخرى كقوله ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٤]

...أي لا ينقصكم بلغة بني عبس، ونقل الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر: أن في القرآن من أربعين لغة عربية، وهي، قريش، وهذيل، وكنانة، وخثعم، والخزرج، وأشعر، ونُمَيْر، وقيس عيلان، وجرهم، واليمن، وأزد شنوءة، وتميم، وكندة، وحمير، ومدين، ولخم، وسعد العشيرة، وحضرموت، وسدوس، والعمالقة، وأنمار، وغسان، ومذحج، وخزاعة، وغطفان، وسب، وعمان، وبنو حنيفة، وثعلب، وطيء، وعامر بن صعصعة، وأوس، ومزينة، وثقيف، وبلى، وعذرة، وهوازن، والنمر، واليمامة.

ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لدروس هذه اللغات وتداخلها وتقطع أسباب المقارنة بينها وبين لغة قريش التي مضوا على استعمالها بعد القرآن وأطبقوا عليها، والعلماء إنما يذكرون من أكثر هذه اللغات في القرآن الكلمة والكلمتين، إلى الكلمات القليلة، انظر أين تقع مبلغ ذلك من لغة بجملتها؟

ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقصت؛ ثم بقي مع ذلك على فصاحته وخلوصه، لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي كما أومأنا إليه آنفاً، وتلك سياسة لغوية استدرج بها العرب إلى الإجماع على منطبق واحد ليكونوا جماعة واحدة، كما وقع ذلك من بعد؛ فجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات في منطق الكلام، كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقصر، والفتح والإمالة وما بينهما، والإظهار والإدغام، وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم، وإلحاق الواو فيهما وفي لفظتي منهمو وعنهمو، وإلحاق الياء في إليه وعليه وفيه، ونحو ذلك، فكان أهل لكل لحن يقرؤونه بلحونهم.

وربما استعمل القرآن الكلمة الواحدة على منطق أهل اللغات المختلفة فجاء بها على وجهين لمناسبة في نظمه، كبراء، وبريء، فإن أهل الحجاز يقولون: أنا منك براء، لا يعدونها، وتميم وسائر العرب يقولون: أنا منك

بريء، واللغتان: في القرآن وكذلك قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فإن الأولى لغة قريش؛ يقولون: أسريت؛ وغيرهم من العرب يقولون: سريت، وهذا باب من اللغة لم يقع إلينا مستقصى؛ ولكن علماء الأدب ربما أشاروا إلى بعض ألفاظه في كتبهم، كما تصيب من ذلك في (الكامل) للمبرد وغيره.

وبالوجوه التي أومأنا إليها تختلف القراءات على حسب الطرق التي تجيء منها؛ فالناقلون عمن قرأ بلغة قبيلة ينقلون بتلك اللغة في الأكثر، ولذا قيل: إن القراءات السبع متواترة فيما لم يكن من قبيل الأداء، أما ما هو من قبيله كالمد والإمالة ونحوها فغير متواتر، وهو الوجه المتقبل.

الأحرف السبعة والقرآن الكريم

روي حديث عن رسول اللّه ﷺ وهو قوله: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع**» ثم اختلفوا في تأويله وفي تفسير هذه الأحرف ولكن الأكثرين على أنها سبع لغات من لغات قريش وألفافها من ظاهر مكة إلى قيس، وقد سميناها آنفاً، وذلك قول لا يخرج إلا بعض ألفاظ الحديث ويبقي سائرها غير متجه.

وقال بعض العلماء: إني تدبرت الوجوه التي تختلف بها لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء لا تزيد ولا تنقص، وبجميع ذلك نزل القرآن: **الوجه الأول**: إبدال لفظ بلفظ كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش قرأها ابن مسعود: كالصوف المنفوش، **والثاني**: إبدال حرف بحرف: كالتابوت والتابوه ـ وقد كانت كتابة زيد بن ثابت حتى غيَّرها عثمان، **والثالث**: تقديم وتأخير، إما في الكلمة، نحو: سلب زيد ثوبه، وسلب ثوب زيد، وإما في الحرف، نحو أفلم ييأس، **والرابع**: زيادة حرف أو نقصانه، نحو: ماليه وسلطانيه، فلا تك في مرية، **والخامس**: اختلاف حركات البناء، نحو فلا تحسبن (بفتح السين وكسرها) **والسادس**: اختلاف الإعراب، **والسابع**: التفخيم والإمالة، وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة، والتفخيم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب.

فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب قد أنزل اللّه باختلافها القرآن متفرقاً فيه، ليعلم بذلك أن من زل عن ظاهر التلاوة بمثله أو من تعذر عليه ترك عادته (اللغوية) فخرج إلى نحو ممَّا قد نزل به فليس بملوم ولا معاقب عليه، وكل هذا فيما إذا لم يختلف في المعاني.

وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى المفردات التي هي في

الأصل فروق لغوية، وإن كان بعض الأحرف قد قرىء بسبعة أوجه وبعشرة، نحو (ملك يوم الدين) و (عبد الطاغوت).

والذي عندنا في معنى الحديث: أن المراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب، حتى يُوَسَّع على قوم أن يقرؤوه بلحنهم وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلا اللغة، وإنما جعلها سبعة رمزاً إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد وخاصة فيما يتعلق بالإلٰهيات: كالسموات السبع، والأرضين السبع، التي برئت فيها الخليقة وأبواب الجنة والجحيم، ونحوها، فهذه حدود تحتوي ما وراءها بالغاً ما بلغ؛ وهذا الرمز من ألطف المعاني وأدقها: إذ يجعل القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله، على أنه مع ذلك لا يبلغ منه شيء في المعارضة والخلاف، وإنما تمادى العرب في ذلك إلى الغاية، إذ هو لغات تنزل من أهلها منزلة السموات ممن ينظرونها، والأرضين ممن يضربون فيها، وهلم إلى آخر هذا الباب، فذلك قولهم بأفواههم، وهذا قول اللّه الذي يكابرون فيه ويطمعون أن يشابهوه بأقوالهم، وما لهم منه إلا أن يهتدوا به وينتفعون بما فيه كما ينتفعون بالسماء والأرض دون أن يكون لهم من أمرهما شيء، ثم أشار أفصح العرب محمد ﷺ بظهر كل حرف وبطنه وحده ومطلع كل حد، إلى حقيقة هذا الإعجاز، فإن ظاهر القرآن على أي لغة قرئ بها من لغات العرب إنما هو ظاهر تلك اللغة بعينها، ولكن باطنه صورة السماء في الماء، ومسميات إلٰهية لا تنال وإن نيلت الأسماء، ثم إن لكل لغة في امتزاجها بالقرآن حداً يقف عنده أهلها، وهو الحد الذي تبتدئ منه الجنسية اللغوية، ولكل حد من هذه الحدود مطلع يصدر منه إلى مرتقي هذه الجنسية التي كان القرآن أخص مقوماتها، وذلك في جملته إنما هو الإعجاز كله، والهدى كله، والكمال كله.

ولسنا ننكر أن هذا التأويل قد يكون بعيداً بدقائقه عن متناول أذهان العرب، ولا أن فيه شيئاً من الكد، ولكنه على كل حال قريب ممن ورثوا العرب في لغتهم وقصروا عنهم في فهم حقائق الإعجاز بتقصير الفطرة فيهم، ثم لا بد أن يكون العرب قد فهموا الحديث على نحو مما يؤديه

تفسيرنا الذي ذهبنا إليه، إذ لا يعرفون من الحرف وظهره وبطنه، والحد والمطلع غير الصفات التي تتعلق باللغة، ولأمر ما كان كلام النبوة خالداً كأنه قيل في كل عصر لأهله وقبيله، وكأن هذا الزمان إنما هو شاهد يجيء بالبينة على صحة تأويله.

ولو أن هذا الحديث قد جاء في تأويله نص على النبي ﷺ يعين المراد منه، لما اختلفت أقوال العلماء فيه، وما داموا قد اختلفوا فدعنا نختلف معهم ونأخذ بالأشبه والأمثل مما يوافق القرآن نفسه، وقد أنزله اللّه الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً

لك بعض ما تناصرت عليه الأدلة واجتمعت على صحته، من تأثير القرآن في اللغة وما أصلح اللّه لأهلها في هذه البقية، حفظاً لكتابه، وإظهاراً لوجه من وجوه إعجازه الخالدة؛ ولكن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وحسبه معجزة ما تقول فيه من صفة الجنسية العربية التي جعل الأمم أحجاراً في بنائها والدهر على تقادمه كأنه أحد أبنائها، وأقام منها معضلة سياسية، في الأرض وضعها ونقدها، وفي السماء حلها وعقدها، وشدّ بها المسلمين فهم إذا ائتلفوا انضموا كالبنيان المرصوص وإذا تفرقوا سطعوا في تيجان الممالك كالفصوص، وما يزالون في التاريخ مرة أصوله، ومرة فصوله، وإن لم يقوموا أحياناً بالدين، قام بهم هذا الدين إلى حين، وكيف وقد جمعهم الكتاب الذي أنزل من السماء فكان مثال آدابها، وانتشر في الأرض فكان خلعة وشبابها، ودعا إليه الناس على اختلافهم فكأنما كل أمة تدعى إلى كتابها.

ونحن قد نعلم أن هذه المعجزة ليست إلى اللغة في مردها من الفائدة، وإنما هي ترمي إلى وحدة سياسية تكون كالنبض لقلب هذا العالم ـ كما سيأتيك ـ بيد أن سبيل ذلك من اللغة، فإن القرآن تنزل من العرب منزلة الفطرة اللغوية التي يساهم فيها كل عربي بمقدار ما تهيأ له من أسبابها الطبيعية، إذ كان بما احتواه من الأساليب، وما تناوله من أصول الكمال اللغوي، وما دار عليه من وجوه الوضع البياني، قد هتك الحوائل ومحا الفرق التي تبين قرائح العرب اللغوية بعضها من بعض، فاجتمعت منه على الكمال الذي كانت تتخيله ولا تألو عمّا يدنيها إلى معالجة واكتساب، ولو أنهم تمالؤوا طوال الدهر على أن يهذبوا من لغتهم ليبلغوا بها مبلغ الكمال الوضعي، على النحو الذي جاء به القرآن، لما ازدادوا إلا تعادياً في الرأي؛ وتباعداً عما يجنحون إليه، إذ تنزع كل فطرة إلى منزعها في كل قبيل، فيزيد الناقص منهم نقصاً فطرياً وهو يحسبه كمالاً، ويبعد الكامل عن حقيقة ما

يتلمسه من الكمال بعد أن يرى غيره قد حسبه نقصاً، لأن الفطرة لا تنقاد إلا بالإذعان، ولا تذعن إلا لما يكون في حد كمالها المطلق، وليس في تاريخ العرب اللغوي من ذلك بالتحقيق قبل القرآن ولا بعده غير القرآن.

تلك سياسة هذا القرآن: جمع العرب لمذهب الأقدار وتصاريف التاريخ، أي ألسنتهم تقود أرواحهم، فقادهم من ألسنتهم وبذلك نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كل أمة فتجعل الأمة كأنما تحمل من هذا العقل مفتاح الباب الذي يلج منه إلى مستقبلها؛ فإن كل أمة تستفيد عقلها الحاضر من ماضيها، لتفيد مستقبلها من هذا العقل بعينه، فلما استقاموا له أقامهم على طريق التاريخ الذي مرت فيه الأمم وطرحت عليه نقائصها فكانت غبارها وأقامت فضائلها فكانت آثارها، جعلوا يبنون كل مرحلة على أنقاض دولة، ويرفعون على أطلال كل مذلة صولة، ويخيطون جوانب العالم الممزق بإبر من الأسنة، وراءها خيوط من الأعنة، حتى أصبح تاريخ الأرض عربياً، وصار بعد الذلة والمسكنة أبياً، واستوثق لهم من الأمر ما لم تر الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها؛ لا غزاة يفتحونها، فلا يبتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة.

وإن هذا الأمر لحقيق أن تذهب من تعليله نفوس الحكماء في ألوان من المعاني متشابه وغير متشابه، فإنما هو أمر إلهي كيفما أدرته رأيت في جانبه الذي يليك ضوءاً كضوء الصواعق، وحركة كحركة الزلازل، وقوة كالتي تتسلط بها السماء على الأرض، فكأنما تتأمل منه صورة الطبيعة، أو الطبيعة المعنوية في عالم التاريخ، ولو أن رمال الدهناء[١] نفضت على الأرض جنوداً عربية لما عدت أن تكون آفة اجتماعية تهلك الحرث والنسل، وتدع الشعوب متناثرة كبقايا البناء الخرب، ثم لا تكون إلا أيام يتداولونها بينهم حتى تتنفس الأرض من بعدهم فتذهب آثارهم الظالمة في حر أنفاسها، وتنقضي أعمالهم فتنطوي من الزمن في أرماسها، إذ كان لا يهجم على الأرض منهم أكثر من

(١) من ديار بني تميم، وهي سبعة أجبل من الرمل، ويكثر ذكرها في كلام الشعراء.

أمر البطون الجائعة وما إليها.. ولعمرك ما العرب وغير العرب من الشعوب البادية إلا بطونهم، حتى لأحسبهم إذا اجتمعوا كانوا معدة الأرض، وكان أهل السرف في فنون الملاذ من الحضريين أمعاءها.

وما أظن مرجع ذلك إلى غير القرآن، بل أنا مستبصر في صحة هذا المعنى، مستيقن أنه مذهب التعليل إلى الحقيقة بعينها؛ لأن القرآن صفي تلك الطباع، وصقل جوانب الروح العربية، حتى صارت المعاني الإلٰهية تتراءى فيها وكأنها عن معاينة، فكأنما كان العرب يقطعون الأرض في فتوحهم ليبلغوا طرفاً من أطراف السماء فينفذوا إلى ما وعدهم اللّه ويتصلوا بما أعد لهم.

ولو لم يكن القرآن قد سلك إلى ذلك مسلكه من الفطرة اللغوية في نفوسهم حتى استبد بها في مستقرها، وصرفها في وجوه معانيه ـ ما بلغ من القوم رأياً ولا نيةً، ولأوشك أن يكون في مقامات البيان عندهم وما يهتف به شعراؤهم وخطباؤهم ـ ما يذهب به جملة ويمسح أثره في القلوب، ولا يدع له مساغاً إلى ما وراء السمع، لأن هؤلاء تنفث عنهم ألسنتهم بأفصح الفصيح وأبين البيان في رأي العرب، وإن لم يكن كلامهم بتلك المنزلة، ولكن الحمية والعصبية واللُّحْمَة ومؤتاة الهوى، كلها فصيح وكلها بيان، وليس الشأن في اللغة وألفاظها ومعانيها، وإنما الشأن فيما يمكن أن تفهمه النفس من كل ذلك، وهي لا تفهم إلا ما يكشف عن طبائعها ويبين عن أخلاقها وعاداتها، ولولا اختلاف النفوس في هذا الفهم ما رأيتَ اللغة الواحدة عند أهلها كأنها في المعنى لغات متباينة، فرب كلمة من لغة رجلين وإذا سمعاها رأيتها كأنما هي ليست من لغة أحدهما، فلا تبلغ منه ولا تمسه، كأن تكون كلمة من باب الحفاظ يسمعها عزيز وذليل، أو لفظة من الكرم يلقاها جواد وبخيل.

أنت إذا أنعمت على تدبر هذا المعنى، وأطلت تقليب الرأي فيه وكان لا يعتريك من الخواطر إلا ما أحكمه العقل ـ فإنك واجد منه سبيلاً إلى وجه من أبين وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، فهو سَفَّهَ أحلام العرب، وخلع آلهتهم، وقمع طغيانهم، واشتد عليهم بالعنف محضاً بعد اللين ممزوجاً، حتى جعلت دماؤهم كأنما ترقرق في بعض آياته، ثم لم يهدأ عنهم، بل ردد ذلك وكرره، وعمهم به، وأرسلك في كل وجه، وقرع أنوفهم، وهاج منهم حمية الجاهلية، وجاراهم في مضمار المخاطرة، إلى حد

المقارعة على عزة العشيرة وكثرة الحصى، وهم القوم كانت لهم كل هتفة كأن الأرواح هو اة في صوتها، فلا يهتف بها حتى تنهض الأجسام لموتها، ولا تسير على الأرض بالرجال، حتى تطير إلى السماء بالآجال، ثم لم يمنعهم ذلك وما إلى ذلك من أن ينقادوا ثم ينقادوا!

لا جرم أنها كانت الفطرة اللغوية لا غير؛ وإلا فما بال هؤلاء العرب قد خرجوا من تاريخهم بعد الإسلام كأنما نزعوا جلدتهم نزعاً على حين كانت لهم الأمور المطمئنة، والصفات المتوارثة؛ من أخلاق شبوا عليها؛ وعادات ينازعون إليها، وطبائع هم بها أخص وهي بهم أَمْلَك، ولم يكونوا مقطوعين عن التاريخ، بل كان لهم ماض كأحسن ما تكلف به الأمم، وكانوا عليه أحرص ما تكون أمة على ماضيها ـ كما نصفه في غير هذا الموضع ـ فلا الزمان تولاهم بعمله بل هدم في أرضهم بمقدار ما بنى أو قريباً من ذلك، ولا هم ورثوا طباعاً من طباع أخلاقاً من أخلاق وخرجوا من ماضيهم كما تخرج أمة من أمة في سلسلة طويلة الذرع من حلقات الأجيال التي هي درجات النشوء في تاريخ كل مجتمع، ولا رأيناهم فيما وراء ذلك كالشعوب التي تمخضها الحوادث مخضاً شديداً، وتتعاورها بالحروب والفتن، فتهدمها أنقاضاً ولا تبدل منها إلا الشكل الاجتماعي، وإلا هيئة الوضع والأمة بعد ذلك هي هي كيف هدمت وكيف بنيت: لا تزال على أعراقها وأخلاقها، وربما عصفت الثورة الكبرى بأمة من الأمم، وألحت عليها بالفتن دائبة، ثم تسكن العاصفة، وتقر الزلزلة، وتطمئن الأرض وأهلها ولا يكون من جراء ذلك كله إلا اصطلاح لغوي في تاريخ الأمة لا يغني من الحق شيئاً، كأن تكون الأمة غريرة جاهلة مستبداً بها على وجه من الاستبداد، ثم تصير بعد الثورة غريرة جاهلة أيضاً ولكن في استبداد على وجه آخر!

فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره، لأن الذي أنزله بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه، فهدم في نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها، وبذلك أحكم عمل الوراثة الذي تعمله في الغرائز والطباع، إذ تبني بالهدم، وتقيم التاريخ من أنقاض التاريخ، وهذا هو الفرق بين العمل الإنساني والعمل الإلٰهي، وبين شيء يسمى ممكناً وشيء يسمى معجزاً.

بلى، ولقد يخيل إلي أن ألفاظ القرآن كانت تلبيس العرب حتى تتركهم كالمعاني السائرة التي لا تزال تطيف بالرؤوس، فما بين العقل وبين أن تلجه هو ادة، ولا بين الوهم وبين أن تصدعه منزلة، وكل ما يجيء من قبل الطبع وعلى حكم الفطرة لا يراه أهله نظراً يقبلونه أو يردونه، ولكنهم يرونه ضرورة لم يستصلحوا أنفسهم إلا بما يفسد جماعتهم، ولم يأبوا أن يرأموا لذل غيرهم إلا ليضرب بعضهم الذلة على بعض، ولم يتخذوا السيف ناباً إلا ليأكلهم، ولا الحرب ضرساً إلا لتمضغهم.. وكانوا أهل جزيرة واحدة وكأنهم في تناكرهم أهل الأرض كلها من قاصية إلى قاصية.

ثم ما عسى أن يكون أمرهم إذا هم قرعوا صفاة الأرض والحال فيهم ما علمت، إلا ما يكون من أمر الحصاة يقرع بها الطود الأشم ثم تنحدر عنه بصوت كالأنين، إن يكن منها فهو لعمرك استخذاء، وإن كان من الجبل فهو لعمري استهزاء.

ولقد كان من إعجاز القرآن أن يجمع هؤلاء الذين قطعوا الدهر بالتقاطع على صفة من الجنسية لا عصبية فيها[١] إلا عصبية الروح[٢] إذ أخذهم بالفطرة حتى ألف بين قلوبهم وساوى بين نفوسهم، وأجرأهم على المعدلة في أمورهم، فجعل منهم أمة تسع الأمم بوجهها كيف أقبلت، لأنها لا توجه لها إلا اللَّه، فكان بينها وبين اللَّه كل ما تحت السماء، ومن هذا المعنى نشأت الجنسية العربية، فإن القرآن بدأ كما علمت بالتأليف بين مذاهب الفطرة اللغوية في الألسنة ثم ألف بين القلوب على مذهب واحد وفرغ من أمر العرب فجعلهم سبيلاً إلى التأليف بين ألسنة الأمم ومذاهب قلوبها، على تلك الطريقة الحكيمة التي لا يأتي علم التربية في الأمم بأبدع منها.

فأما التوفيق بين مذاهب قلوبهم؛ فبالدين الطبيعي الذي جاء به القرآن

---

(١) وفي الحديث الشريف: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية» وإنك لتستطيع أن ترجع كل بلاء الإنسانية في أهوالها وحروبها وطغيانها ومذلتها إلى كلمة العصبية، لأن معناها في الحقيقة انقطاع بعض الإنسانية من بعض ظلماً وعدواناً، أو على ظلم وعدوان.

(٢) سنبط فلسفة هذا المعنى في الفصل التالي.

ولو نزعت الطبيعة الإنسانية إلى غير معانيه لكانت طبيعة شر وعنظنت منزعها إلى الخير، وأما التأليف بين ألسنتهم فيما ذهب إليه من المعنى العربي الذي حفظه القرآن على الدهر، ببقائه على وجهه العربي الفصيح لفظاً وحفظاً وأداء، لا يجد إليه التبديل سبيلاً، ولا يأتيه الباطل موجهاً أو محيلاً، ولا يدخله التحريف كثيراً أو قليلاً، بحيث كأنه عقدة لغوية لا تتحلل منها الألسنة المختلفة أبداً، وهذا من أرقى معاني السياسة، فإن الأمم إن لم تكن لها جامعة لسانية، لا يجمعها الدين ولا غير الدين إلا جمع تفريق؛ وجمع التفريق هذا هو الذي يشبه الاجتماع في الأسواق على البيّاعات وعروض التجارة ونحوها، فإن سوق الأمم تتاجر فيها الأديان والأهواء وتكدح فيها المصالح والمفاسد، وفيها كذلك التغرير والخطار، والكذب والخداع، ولكل من أهلها شرعة ومنهاج.

فبقاء القرآن على وجهه العربي، مما يجعل المسلمين جميعاً على اختلاف ألوانهم، من الأسود، إلى الأحمر، كأنهم في الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار أنفسهم جسم واحد ينطق في لغة التاريخ بلسان واحد، فمن ثم يكون كل مذهب من مذاهب الجنسية الوطنية فيهم قد زال عن حيزه، وانتفى من صفته الطبيعية، لأن الجنسية الطبيعية التي تقدر بها فروض الاجتماع ونوافله، إنما هي في الحقيقة لون القلب لا سحنة الوجه.

وقد ورث المسلمون عن أوليتهم هذا المعنى: لا يعلم في الأرض قوم غيرهم يعتصمون بحبل دينهم وأيديهم في الأغلال ويجنحون إليه بأعناقهم وهي في ربق الملوك من الإذلال، ويخصونه بقلوبهم حتى يكون أملك بها وأغلب عليها ولا يحتملون فيه سخطه، ولا يؤثرون عليه رضى، ولا يعدلون به عدلاً، ويتبرمون بكل ضيق إلا ما كان من أجله، ويرضون المحنة في كل شيء إلا فيه، ثم هم لا يرون أنفسهم المؤمنة في إحساس الفطرة، ومذهب الطبيعة إلا أنها بقية سماوية في الأرض تباين كل فيها (أي الأرض) ويشبه بعضها بعضاً بالصفة والخاصة أنَّى وُجِدَت وكيف اتفقت وعلى أي حال كانت، وهذا كله مُشَاهَد فيهم على أتمه وأبلغه، بعد كل ما رهقهم بالعجز عن مداولة الأيام وصدمهم من أهل الاستبداد بكل محنة من الآلام، وتوردهم من الزمان بكل سفه يعد في السياسة من الأحلام، على أنهم لا يعرفون أصل

ما يحسونه، ولا يتصلون إلى سببه، وكأنما تقطع ما بينهم وبين أسلافهم، وقد بقي القرآن على ذلك معروفاً مجهولاً، ينفعهم بما عرفوا منه ولا يضرونه بما يجهلون: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾.

[سورة النور، الآية: ٥٤]

وإن من أعجب ما يروعنا من أمر الجنسية العربية في القرآن: أنها تأبى إلا أن تحفظ على أهلها تلك الصفات العربية؛ من الأنفة والعزة والصوت[١] والغلب: وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لا يزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض[٢] كما أنها تستبقي طاعة المغلوبين الذين أعطوا للفاتحين عن أيديهم، وانطرحوا في غمرهم، وكانوا أهل ذمتهم: لانتحالهم العربية طوعاً أو كرهاً، ثم بقائها في ألسنتهم على نسبة بينة من الفصيح مهما ركنت ومهما رذلت، ولولا القرآن وإنه على وجه واحد وهيئة ثابتة، ما بقيت العربية ولا تبينت النسبة بين فروعها العامية، بل لذهب كل فرع بما أحدث من الألفاظ، وما استجد من ضروب العبارة وأساليبها، حتى يتسلل كل قوم من هذه الجنسية إن كانوا من أهلها أو من أهل ذمتها، ثم لا تستحكم لهم بعد ذلك ناحية من الائتلاف ولا يستمر لهم سبب من الارتباط، ويوشك أن يستقبلوا بعد من قادة الأمم وحيتان الأرض إلا من يستدبرهم راعياً أو ملتهماً، ثم لا يمكن لهم من دينهم، ثم لا يثبتون عليه إلا ريثما يتحولون في استحقاقهم بالأمة التي وثبت بهم وإن مضوا في ذلك على العزيمة والتشدد، فإنه لا عزيمة لقلب خذله اللسان، ولا تشدد للسان خذله القلب، ولا استقلال لشعب تخاذلت ألسنتهم وقلوبهم، وتلك سنة من السنن: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ٣٧]

ومن للأمم بمثل هذا الاستعمار اللغوي الذي لم يتهيأ إلا للقرآن، وهو بعد زمام السياسة مهما جمحت في الأرض.

---

(١) يراد بلفظ الصوت: الأمر والنهي على المجاز، لأن ذلك لا يكون إلا به.
(٢) كناية عن الممالك كأنها حجرات في القصر الأرضي.

ولقد ترى اليوم هذه التوراة وهذه الأناجيل وما يقرؤها بلغتها الأصلية إلا شرذمة قليلة من اليهود وغير اليهود الذين يعيشون على أحلام الذاكرة، ولا نرينّ أن ذلك استبقاء فلولا أن الشذوذ لا يتخلف كأنه قاعدة مطردة ما قرأها منهم أحد، ثم استبدلت الألسنة واللغات بهذه الكتب، فهي شريعة لا هي جنسية جامعة، وإنما تراها في كل أمة من الأمة نفسها، ولذا سهل على كثير منهم أن ينبذوها، وصار أكثرهم لا يتدارسونها ولا يقرؤون فيها إلا إذا أرادوا الاستغراق في رؤيا تاريخية، والعارف عارف من يثبت فصولها ومعانيها، أو يعرف ذلك فضل معرفة.

وانظر كم ترى بين صنيع القبائل الجرمانية (الغوط) وبين صنيع العرب، فإن أولئك أغاروا على إيطاليا في القرن الخامس للميلاد وانتقصوها من أطرافها ولم يكن إلا أن ملكوها حتى ملكتهم، إذ تركوا أهلها وعادتهم من اللغة ـ وغير اللغة ـ ثم أخذوا يتحضرون من بداوة ويستأنسون إلى الحضارة الرومانية، حتى رغبوا في العلم، فاستجادوا المهرة من علماء الرومان، ونصبوهم لوضع الكتب وتأليفها، فوضعها لهم هؤلاء باللغة اللاتينية، وهم قرؤوها بها وأقروها عليها، فذهب غوطيتهم وذهبوا على أثرها، وأدالت اللغة الرومانية لأهلها منهم، فأخذتهم رجفة التاريخ فأصبحوا في الرومانية جاثمين كأن لم يغنوا في لغة قبلها! ألا فأقبل أنت على هذا المعنى وتدبره حتى تحكم ما وراءه، فلقد تركوها آية بينة!

وبعد، فهذا الذي أمسكه القرآن الكريم من العربية لم يتهيأ في لغة من لغات الأرض... ولن تتلاحق أسبابه في لغة بعد العربية، وهذه اللغة الجرمانية انشقت منها فروع كثيرة في زمن جاهليتها، واستمرت ذاهبة كل مذهب، وهي تثمر في كل أرض بلون من المنطق، وجنس من الكلم، حتى القرن السادس عشر للميلاد، إذ تعلق الدين والسياسة معاً بفرع واحد من الفروع، هو الذي نُقِلَتْ إليه التوراة، فاهتز وربا وأورق من الكتب وأزهر من العقول وأثمر من القلوب، وبعد أن صار لغة الدين صار دين التوحيد في تلك اللغات المتشابهة، وبقيت هي معه إلى زيغ حتى انطوت في ظله، ثم ضحى بنوره فإذا هي في مستقرها من الماضي، ونُسِيَت نسيان الميت.

وقد كان بسق من فروع الجرمانية فرعان: الإنكليزي والهولندي،

وكلاهما استقل حتى ضرب في الأرض بجذر، ثم أناف الإنكليزي حتى صار ما عداه من ظله، وهذا إلى فروع أخرى قد انشعبت في الأصل الجرماني، كالأسوجي والأيسلندي وغيرهما.

واللاتينية، فقد استفاضت في أوربا حتى خرجت منها الفرنسية والطليانية والأسبانية وغيرها، وكان منها علمي وعامي بلغة العلم ولغة اللسان، ثم أنت ترى اليوم بين تلك اللغات جميعها وبين ما تخلف منها في مناطق هذا الجيل، ما لا تعرف له شبيهاً في المتباعدات المعنوية، حتى كأن بين اللغة واللغة العدم والوجود.

فالعربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسي حتى صارت جنسيةً لأصحابها فلو جَنّ كل أهلها وسخوا بعقولهم على ما زينت لهم أنفسهم من الإلحاد والسياسة كجنون بعض فتياننا... لحفظها الشعور النفسي وحده، وهو مادة العقل بل مادة الحياة؛ وقد يكون العقل في يد صاحبه يضن به ويسخو، ولكن ذلك النوع من الشعور في يد اللّه، وهذا من تأويل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

[سورة الحجر، الآية: ٩]

تأثير القرآن الكريم في اللغة العربية

لا نتكلم في هذا الفصل عن الوجوه اللغوية التي صرفها القرآن في الكلام فصارت من بعده نهج الألسنة والأقلام، ولا عن وجوه تأثيره باللغة: فإن لكل من ذلك موضعاً هو أملك به، وإنما نقص لك طرفاً من القول في هذه اللغة كيف ظهرت في آياته للزمان حتى لا يظن أنها لغة عصرها، وكيف بهرت بغاياته في البيان حتى ليقال إنها لغة دهرها.

نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً: فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيءٍ إلا إذا خُلقت سماءٌ غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة، وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن، فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفاً وقوة لأنها صورتهم المتكلمة وهم صورتها المفكرة.

وأنت إذ صبغت يدك بهذا الفن من القيافة اللغوية، وحاولت أن تستخرج من لغة القرآن ما يصف لك العرب على أخلاقهم وطباعهم ومبلغهم من

العلم؛ فإنك تحاول محالاً وتكابر فيما يأبى عليك وما ليس في الحيلة إليه غير المكابرة، حتى إن الذي لا يعتقد مستبصراً أن هذا القرآن من عند اللّه سبحانه إذا هو نظر فيه وأثبت حقيقته وقوي على تمييزها وكان ممن ينزلون على حكم النظر والمعرفة، فإنه لا يجد مناصاً من رد التاريخ والتكذيب له، ثم الإقرار بأن هذا القرآن إنما هو أثر من لغة قوم جاوزوا في الحضارة حداً لها من سائر الأجيال، وبلغوا من أحوال المدنية أرقى هذه الأحوال، وكانوا من العلوم في مقام معلوم، لأن هذا الماء الصافي الذي يترقرق في عبارته، وهذا النظم الجيد الوثيق، وما اشتمل عليه من بدائع الأوصاف، وما فيه من روائع الحكمة ثم ما احتوى عليه من إشارات السماء إلى الأرض، وضراعة الأرض للسماء، إلى ما حله من معضلات الاجتماع، وكشفه من وجوه السياستين النفسية والقومية، لا يكون البتة في لغة أمة قد أناخت بها أخلاق البداوة حتى عبدت الأصنام، ولم تعرف من الشرائع غير شريعة الإلهام وما ملكها من ملوك الدهر غير سلطان الأوهام.

فهو إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا * وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا * وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا * وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا * وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآيات: ٢٣ ـ ٣٨]

نقول: إذا هو قرأ هذه الآيات البينات ثم تدبرها وأحسن حملها وتأويلها ولم يكن كدر الحس ولا مريض الذوق، فإن أحرفها تسطع له من نور الأخلاق بما يرى فيه أمة تضج في الحضارة وتختبط، ومدينة تضطرب في أهلها وتختلط.

قلنا: لو أن أولئك النفر أرادوا مخاطبة هذه الأمة على أن يتخولوها بالموعظة، لما أصابوا في غرضهم أَسَدّ ولا أحكم ولا أبلغ من تلك الآيات، يعرضونها على القوم فيُبَصِّرونهم صورة مجموعهم في مرآتها، ويعرفونهم مبلغ سيئاتهم من حسناتها؛ وينفضون إليهم جملة الحال في شبه الإيجاز النظري من كلماتها فلو أن ذلك واقع ثم أثرت عن القوم هذه الموعظة ورواها التاريخ بعد الأمد المتطاول، لما استطاع امرؤ ذو علم بالتاريخ وفلسفته أن ينكر أن المراد بها الأمة الفرنسية بعينها في القرن العشرين بعينه وانظر أين بدأت مما انتهيت؟

وما دام ذلك قد تحقق في المعاني، وكانت هي سبيلاً إلى الاستدلال عليه، فالاستدلال بالألفاظ ومسابقتها لتلك المعاني في الدقيق والجليل أيسر وأسهل.

فلا مذهب لمن يفهم الكتاب الكريم، ويقف على دفائن الحكمة فيه إلا أن يدفع به المذهب إلى إحدى اثنتين: إما أن يعتقد أنه أنزله الذي يعلم الغيب في السموات والأرض، فجاء كما يراه: أمراً من أمر اللّه، وإما أن ينكر هذا ويعتقد أن القرآن الذي بعث به النبي الأمي في أولئك الأميين إنما وضع في زمن كانت فيه الأمة العربية غير نفسها، وكانت بالغة ما شاء اللّه من علم وجهل، وحضارة وبداوة، وصلاح وفساد، إذ يجد ما يصف كل ذلك على حقيقته الصريحة في القرآن، وأيهما أنكر وأيهما أقر، فإنه سبيل الحجة إليه بنحوها، وهو يظن أنه يمحوها، ويكشفها، ويحسب أنه يكسفها: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٧٠]

ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهل كل

لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مرغباً، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية، مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه، ومن شأن الكمال المطلوب إذا هو اتفق في شيء من الأشياء ـ كهذا الكمال البياني في القرآن ـ أن يجمع عليه طالبيه مهما فرقت بينهم الأسباب المتباينة، والصفات المتعادية؛ ولولا ذلك ما سهل أن تنقاد الجماعات في أصل تكوينها منذ البدء انقياداً يكون عنه هذا الأثر الوراثي في طاعة الأمم لشرائعها؛ ثم لملوكها وأمرائها، مع ما تسام الأمة لذلك في باب من أبواب الإمرة والحكم والتسلط، كما أن من شأن النقص إذا تمثل في شيء أن يزيد في تفريق من يفترقون عنه إذا توهموه، حتى تتسع بينه وبينهم الغاية.

وقد كان العرب على حال يتوهم فيها كل قبيل منهم أنه أَسْلَمَ فِطرةً في اللغة وأبينَ مذهباً في البيان، لأنهم لا يجدون من ذلك إلا أمثلة ترجع إلى الفطرة وتختلف باختلافها، ولا يجدون المثال الفطري الكامل الذي تقاس إليه القدرة والعجز في ذلك قياساً لا يلتاث، ولا يختلف.

ومن أعضل الأمور وأشدها التباساً أن يكون امرؤ من الناس قادراً على أن يقيس ببيانه، أو علمه بمذاهب البيان ـ قدرة أقوام وعجزهم في أمر معنوي كاللغة، متى كانت مذاهبهم إلى أنواع من الاختلاف في القدرة والعجز، وخاصة إذا كان أمر اللغة فيهم إلى السليقة والفطرة، فإن من ينتصب لذلك وإن أراد أن يسقط، وحاول أن لا يحول ـ فهو لا بد مخطئ في تعيين المراتب في المقدار الفاضل، وتعيين ما يقابلها في المقدار المفضول، ثم مخطئ في تمييل الحكم بين المقدارين، ولا يجيء من رأيه إلا بما تعرض فيه الخصومة أو تطول، لأن قياس مثل ذلك من الفطرة لا يتهيأ إلا بعمل يحتوي كل دقائقها وما يمكن أن تبلغ إليه من الكمال المطلق الذي هو الحد الأعلى في طبيعة تركيبها، ومثل هذا لا يكون البتة في إنسان ينزل على حكم هذه الفطرة نفسها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولأن قابل الكمال لا يكون في نفسه حداً للكمال، ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ مع أنه أفصح ذي لسان وأبلغ ذي لب، لا يقاس كلامه بالقرآن، ولا يقع منه إلا كما يقع سائر الكلام.

فيلزم من ذلك أن يكون القياس الذي أشرنا إليه أمراً فوق الطبيعة وليس

فوقها إلا أمر الله، وهو القائل عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

[سورة الزمر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨]

وينبغي لك أن تطيل النظر في قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٢٨]

.. وتقف على موقع هذا الفصل من الآية وتتأمل لفظة **(العوج)** فَضْلَ تَأَمُّل فإنك لا تثير دفائنها البيانية إلا إذا حملتها على ما ذهبنا إليه، فتراها تصف القرآن بأنه فطرة هذه الفطرة العربية نفسها، وإنها لكلمة من الوصف الإلٰهي ترجح في موقعها بالكلام الإنساني كله.

فقد وضح لك أنه لولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته، ولو لم يجتمعوا لتبدلت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد، حتى تنتقض الفطرة وتختبل الطباع، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها إلا من هو أشد منهم اختلاطاً وأكثر فساداً.

وذلك معنى من أبين معاني الإعجاز، إذ لا تجده اتفق في لغة من لغات الأرض غير العربية، وهو لم يتفق لها إلا القرآن، ولقد كان أسلوبه البياني الذي جمع له العرب هو الذي اقتضى ما أحدثه العلماء بعد ذلك من تتبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدها، والتحمل لها؛ فكان صنيعهم صلة بين اللغة وبين العلوم التي أفرغت عليها من بعد، لأن لغة من اللغات لا تحيا ولا تموت إلا بحسب اتصالها بمادة العلم الذي به حياة أهلها وموتهم، وهي لا يلبسها العلم إلا إذا كانت قشيبة محكمة، لا تضيق عن أنواعه وفروعه ولا يخلقها الاستعمال.

ويبقى وجه آخر من تأثير القرآن في اللغة، وهو إقامة أدائها على الوجه الذي نطقوا به، وتيسير ذلك لأهلها في كل عصر، وإن ضعفت الأصول واضطربت الفروع، بحيث لولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطق العرب بألسنتها وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها.

وهذا أمر يكون في ذهابه ذهاب البيان العربي جملته أو عامته، لأن

مبناه على أجراس الحروف واتساقها، ومداره على الوجه الذي تؤدى به الألفاظ، وأنت قد ترى الضعفاء الذين يحكمون منطقهم وما يصنعون بالأساليب المدمجة والفقر المتوثقة إذا هم تعاطوها فنطقوا بها، حتى ليصير معهم أجود الكلام في جزالته وقوة أسره وصلابة معجمه إلى الفسولة والضعف، وإلى البرد والغثاثة، كأنما يموت في ألسنتهم موتاً لا رحمة فيه.

فهذه معان سامية غريبة انفردت بها العربية، ولولا القرآن ما كانت فيها وما ينبغي لها بكلام غيره، إذ ليس في غيره ما يبلغ أن يكون حداً للكمال اللغوي في الفطرة، فيتعلق بمثل أثره في العرب وأحوالهم وتاريخهم، أو يقع في ذلك على مقدار مقسوم، أو يكون له فيه حق معلوم.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٨]

صدق اللّه العظيم، ومن أصدق من اللّه قيلاً؟

مفردات القرآن الكريم

وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس.

وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله: سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً؛ جميعها روي تفسيره بالسند الصحيح عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وهو ذلك المعجم اللغوي الحي الذي كانوا يرجعون إليه، كان رحمه اللّه يقول: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله اللّه بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه.

ولقد كان رضي اللّه عنه يجلس بفناء الكعبة ثم يكتنفه الناس يسألونه عن التفسير وثبته من كلام العرب، وأسئلة نافع بن الأزرق التي ألقاها عليه مشهورة، وقد أجابه عليها ابن عباس، واستشهد لجوابه بنيف وتسعين بيتاً من الشعر العربي الفصيح فلا نطيل سردها؛ فإن الكلام يتسع بما لا فائدة منه إلا معرفة الألفاظ وتفسيرها.

ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب: كالظلم، والكفر، والإيمان، ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة، أو يكون سياق الألفاظ، قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات الألفاظ كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾.

[سورة القيامة، الآية: ١٨]

أي: فإذا بيناه فاعمل به.

وكان الصحابة رضي اللّه عنهم يسمون فهم هذا الغريب (إعراب القرآن)

لأنهم يستبينون معانيه ويخلصونها؛ وقد روى أبو هريرة في ذلك: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» وبهذا الأثر ونحو مما تأتي فيه لفظة (الإعراب) زعم طائفة من أبناء الطيالسة وطائفة من قومنا الذين في قلوبهم مرض، أن اللحن ـ أي الزيغ عن الإعراب ـ كان يقع من الصحابة في القرآن لعهد النبي ﷺ ضلة من القائلين، وذهاباً إلى معنى (الإعراب) النحوي، ثم غفلة عن لغة الاصطلاح، في أهله ضرب من الوضع: لا يحمل على كلامهم غير ما حملوه عليه.

وكذلك عد العلماء في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة، ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط، وهي كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها فصارت بذلك عربية، وإنما وردت في القرآن لأنه لا يسد مسدها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول، فيكون قد خاطب العرب بما لم يوقفهم عليه، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء، لأن الوضع يعجز أهله، وهم كانوا أهل اللغة.

ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن: إن بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا إفراداً ولا تركيباً، وهو قول يحسن بعد الذي بيناه.

ومن ألفاظه ما يسميه أهل اللغة بالوجوه والنظائر والأفراد.

أما الوجوه والنظائر فهي الألفاظ التي وردت فيه بمعان مختلفة: كلفظ الهدى، فإنه فيه على سبعة عشر وجهاً، بمعنى الثبات، والدين، والدعاء، ونحوها، ومن هذه الألفاظ: الصلاة، والرحمة، والسوء، والفتنة، والروح، وغيرها، وكلها مما يتبسط في استعماله بوجوه من القرائن وسياسة القرينة في العربية شريعة من شرائع الألفاظ.

وأما الأفراد فهي ألفاظ تجيء بمعنى مفرد غير المعنى الذي تستعمل فيه عادة، ولابن فارس في إحصاء هذا النوع كتاب قال فيه: كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

[سورة الزخرف، الآية: ٥٥]

فمعناه: أغضبونا.

وكل ما فيه من ذكر البروج فهي الكواكب، إلا قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٧٨]

.. فهي القصور الطوال الحصينة.

وكل ما فيه ذكر البر والبحر؛ فالمراد بالبحر: الماء، وبالبر: التراب، إلا قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٤١]

فالمراد به البرية والعمران، وعد من مثل ذلك هو وغيره أشياء؛ فهذا ما يسمونه في لغة القرآن بالأفراد.

الحروف وأصواتها في القرآن الكريم:

كان العرب يترسلون (يسرعون) في منطقهم كيفما اتفق لهم، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت؛ دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت، إلى أن يتفق من هذه قطع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه، أو بما تعمد لها المتكلم، على نمط من النظم الموسيقي، إن لم يكن في الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية.

فلما قرئ عليهم القرآن الكريم رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة الكذاب جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوي عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع.

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء،

فإنك ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأت رواءه؛ وأنضبت ماءه، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق على أوزان يتسق عليها في كل جهاته، فلا تعدو أن تُظْهِر من عيبه ما لم يكن يعيبه إذا أنت أرسلته في نهجه، وأخذته على جملته.

وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه لترتيب حروفه اعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق؛ والتفشي والتكرير؛ وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف من باب اللغة في تاريخ آداب العرب.

ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى انطباع البلغاء بعد الإسلام وتولى تربية الذوق الموسيقي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ـ مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف ـ ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمهما آثار الوزن والتلحين، على ما يكون من تفاوتهم في صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به، وتقدمهم في صنعته.

ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقي من بعد من هؤلاء في العامية، بل لما بقيت اللغة نفسها، كما بسطناه في موضعه.

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي؛ وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب من تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، والإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته في أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون للّه آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان، وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصاً منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها،وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت، وتنوع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألفت كلماته من

حروف لو سقط واحد منها أو بدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسن السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت ذلك هجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة.

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيته غضاً طرياً، وجديداً مونقاً وصادقت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً وحساً موفراً، وهذا أمر يستوي في أصله العالم الذي يتذوق الحروف ويتمرى تركيبها ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه، وهو والله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر، فهو إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداء ورداً وإفراداً وتكريراً.

هذا على أنه ترسيل واتساق وتطويل لا يضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر فتجعل له بطبيعتها صفة من النظم الموسيقي، ولا يخرج على مقاطع الكلمات التي تجري فيها الألحان وضروب النغم، مما يسهل تأليفه ويكون أمره إلى الصوت وطريقة تصريفه وتوقيعه، لا إلى أصوات الحروف ووجه تأليفها وتتابعها.

وبهذا الذي قدمناه يفسر قوله ﷺ: «**القرآن صعب مستصعب على من كرهه**» لأن كرهه لا يكون إلا زعماً وتكلفاً من اللسان، فأيما امرؤ سمعه أو فهمه أحبه وسوغه من شعوره ونفسه؛ فمن أين تدخل الكراهة على النفس ولا سبيل إليها في الكلام إلى السمع والفؤاد؟

ولا يذهبن عنك أن الحروف لم تكن في القرآن على ما وصفنا بأَنْفُسِها

دون حركاتها الصرفية والنحوية، وليست هذه الحركات إلا مظاهر الكلم فمن هنا يستجر لنا القول في النوع الثاني من سر الإعجاز... وفي كل آية من القرآن شاهد على تناسق حروفها وأجراسها الموسيقية وتجانسها وحسن ائتلافها يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٣٠]

أعد القراءة تجد أن الحروف تنتج كلمات غاية في التعبير والائتلاف والانسجام وتحقق الهدف المرجو، فالآية القرآنية في مجملها هدف إيماني أو تشريعي أو إرشادي أو علمي.

ومن عظمة اللّه سبحانه في قرآنه الكريم أن جعل الهدف المرجو من الآية يأتي بأسلوب بلاغي عظيم ومن كلمات محددة ذات معنى وحروف تسمع الأذن ألحاناً لغوية رائعة.

الكلمات وحروفها في القرآن الكريم

والكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس؛ لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب.

وصوت النفس أول الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسية، فيجري في النفس مجرى الإرادة، ويذهب مذهب العاطفة، وينزل منزلة العلم الباعث على كلتيهما.

أما الأصوات الثلاثة التي أومأنا إليها فهي:

١ ـ **صوت النفس**، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متناسقة وعلى نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى، في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعنى قطع به.

٢ ـ **صوت العقل**، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعنى لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها.

٣ ـ **صوت الحس**، وهو أبلغهن شأناً، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، واستيلائه على محضها بما يدور عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها عن طرائف المعاني، ويدعها من موافقته والإيثار له كأنها هي التي تريده وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة(١).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعي.

وعلى مقدار ما يكون من الكلام البليغ من هذا الصوت يكون فيه من روح البلاغة، فإن خرج مما وقفت عنده الطباع النفسية فلم يكن في بعض الكلام مقدار معين تحسه في جهة وتفقده في جهة، وتراه مرة مائلاً ومرة زائلاً، بل صار كأنه روح للكلام ذاته، تبادرك الروعة في كل جزء منه كما تبادرك الحياة في كل حركة للجسم الحي ـ فقد خرج به ذلك الفن من الكلام إلى أن يكون خلقاً روحياً، وكأنه تمثيل ألفاظ لخلقة النفس، في دقة التركيب وإعجاز الصنعة ومؤاتاة الطبيعة المعنوية وما إليها وهيهات، ليس يقدر على تمام ذلك الوضع إلا من قدر على تمام تلك الخلقة.

ولو تأملت هذا المعنى فضلاً من التأمل، وأحسنت في اعتباره على ذلك الوجه، لرأيته روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم، بحيث لو خلا منه لأشبه أن يكون إعجازه صناعياً عند العرب ـ إن بقي معجزاً ـ ولو هم فقدوه فقدوا هذا المعنى من أكثره أو من أقله، وقد كانوا وجدوا مذهباً فيه للقول ومساغاً للرد، ولظلوا في مرية منه، ثم لسارت عنهم الأقاويل في معارضته واعتراضه.

ذلك بأن صوت النفس طبيعي في تركيب لغتهم، وإن كان فيها إلى التفاوت كمال ونقص، وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينوه في كثير من كلام بلغائهم، أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد به القرآن وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتنوا في اللغة وأساليبها ولكنهم لا يجدون البيان به في ألسنتهم، لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه ولم يعطوه، وإنما كانوا يبتغون الحلية إليه بألوان من العادات وضروب من التعبير النفسي، إذا هي اتصلت بالحس البياني الذي ميزتهم به الفطرة أشبهت أن تكون استواء حسياً، وبهذا خلص إليهم كلام شعرائهم وخطبائهم، وبلغ من أنفسهم ومازجها وكان منها في محل وموقع، على أننا نقرأ اليوم أكثره ولا نجده بتلك المنزلة.

وأعجبُ شيء في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن، أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصد في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملل ولا تزال تبتغي أكثر من حاجتها في التروح والإصغاء إليه والتصرف معه والانقياد له، وهو يسوغها من لذتها ويرفه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان، مع أن أبلغ ما اتفق

للبلغاء لا تجمع منه النفس بعض ذلك حتى يتعسفها ويثقل عليها وتبتلى منه بالتخمة وسوء الاحتمال، وحتى لا تكون البلاغة في سائره بعد ذلك إلا طعمة خبيثة لأنها جاءت من وراء القصد وفوق الحاجة فلا تعدم النفس أن تجد من جماله قبحاً ومن صوابه خطأ، ولا يمتنع أن يكون فيه النافر والقلق والمحال عن وجهه وما إلى ذلك مما تسكن النفس إلى تأمله وتستجم بتصفحه والبحث عنه واعتراضه في سياق الكلام ونسق التركيب.

ولو ذهبنا نبحث في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعاً وهي في كل لغة تعد أصلاً في بلاغتها لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي لا تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي: «الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي» وما تعرف في هذه الأساليب العربية خاصة ـ إلا إسرافاً على هذا الحس أو تراجعاً من دونه؛ فأما أمر بين ذلك على أن يكون قصداً وألا يكون إلى المحض من هذا القصد، وأن لا تجده إلا سواء في محض الاعتبار من حيث أجريته على هذه الحقيقة فلا يكون من شأنه أن يستوي معك في جهة ويلتوي عليك في جهة ـ فهذا ما لا نعرفه على أتمه وأبينه إلا في القرآن الكريم، ولا نعرف قريباً منه إلا في كلام النبي ﷺ وإن كان بين الجهتين ما بينهما.

ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشووالاعتراض أو ما يقال فيه إنه تغوث واستراحة.

كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها مما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ لهم ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة، كما سنبينه في موضع آخر وهو سرٌّ من إعجازه قد أحس به العرب لأنهم لا يذهبون مذهباً غيره في منطقهم وفصاحة هذا المنطق، وإنما يختلفون في أسباب القدرة عليه ومعنى الكمال فيه، ولو

أنهم وجدوا سبيلاً إلى نقص كلمة من القرآن لأزالوها وأثبتوا فيه هذا الخطأ أو ما يشبه الخطأ في مذهبهم إذ كان من المشهور عنهم مثل هذا الصنيع في انتقادهم وتصفحهم بعضهم على بعض في التحدي والمناقضة في الشعر والنثر والخطابة.

لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة لأن في كل لفظ صوتاً ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة، وربما اختلف وكان بغير ذلك أشبه.

فلا بد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تند لفظة، ولا تتخلف كلمة، ثم استعمال أمسها رحماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء وأصفاها رونقاً وماء، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ثم إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح، وعلى العصمة من السهووالخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتى يجيء كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحد قد أديرت معانيها على ألفاظ في لغات العرب المختلفة فلبستها مرة واحدة.

ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصاحة هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعة فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ومن ثم تتنزل الأفكار منزلة التوهم الطبيعي الذي يؤثر بالصفة ما يؤثر بالشيء الموصوف، كما ترى فيمن يهتز للشعر ويطرب له ويملكه رق أعصابه النفسية فإنه يبصر الشاعر الفحل الذي أعجب به فيتوهم في رأسه المعنى الكريم والخيال البارع والتعبير الذي هو ضرب من الوحي، وكأنما يتخيل من الرأس صومعة إلٰهية تهبط عليها ملائكة الحكمة والبيان، وإنه ليتوهم ذلك

فيهتز له هزة عصبية واضحة تعرفها في انتشائه والتماع عينيه واستطارة ألحاظه وما تنطق به معارف وجهه، وإن ذلك ليأخذ منه ما تأخذ القصيدة البارعة والكلمة النادرة، وإنه على ذلك في نفسه لشديد، فهذا ما سميناه باب التوهم الطبيعي، وهو بمنزلة من الحقائق النفسية.

ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها البيانية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل، أيها كان فلا تَعذُب ولا تساغ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

[سورة القمر، الآية: ٣٦]

فتأمل هذا التركيب، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة

التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر).

وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة الواحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكمته الرؤية وراضه اللسان، وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات، وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ومن أي وجه يلتمس وعلى أي جهة يستطاع، وكيف يأتي للإنسان في مثل تلك الآية وحدها ـ فضلاً عن القرآن كله ـ وهو لا يكون إلا عن نظر وصنعة كلامية؟ والبليغ من الناس متى اعتسف هذا الطريق ولم يكن في الكلام إلى سجيته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة، وضاق به التصرف وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها، وكلما لَجَّ في المكابرة لَجّت البلاغة في الإباء.

أما ما يتهيأ لأحد من البلغاء في عصور العربية كلها من معارض الكلام وألفاظه، ما يتصرف به هذا التصرف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضرباً موسيقياً وينظم نظماً مطرداً ويهدف الكلمة الكلمة وينصب الحرف للحرف ويعصب الحركة بالحركة ويجري بعضاً من بعض ـ فهذا إن أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في الألفاظ ذات معان، فهو لغوٌ من إحدى الجهتين، ولو أن ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرناً، ونحن اليوم في القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة.

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها، كقوله ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

[سورة النور، الآية: ٥٥]

فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج

الحروف ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات؛ إذ تنطق على أربعة مقاطع وقوله: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٣٧]

فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.

وهذا إنما هو الألفاظ المركبة التي ترجع عند تجريدها من المزيدات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن في الأصل عربياً كإبراهيم، وإسماعيل، وطالوت، وجالوت، ونحوها، لا يجيء به مع ذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى، فتخرج الكلمة، وكأنها كلمتان.

وفي القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضيزى» من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾.

[سورة النجم، الآية: ٢٢]

ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضوع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات اللّه مع أولادهم البنات، فقال تعالى ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾.

[سورة النجم، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢]

فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة العربية التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين

فيها إلى الأسفل والأعلى وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس؛ وقد نبهنا إلى ذلك في باب اللغة من تاريخ آداب العرب.

ثم الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ .

[سورة يوسف، الآية: ٩٦]

فإن النحاة يقولون: إن «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم ويقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه، وإن ذلك رحمة من اللّه، فجاء هذا المد في «ما» وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة؛ وهي «أن» في قوله «أن جاء» .

وعلى هذا يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد: فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها، إنما هو نقص يجل القرآن عنه؛ وليس يقول بذلك إلا

رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة، من جهة نظمه، أو دلالته، أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق أو حرف نافر أو جهة غير محكمة أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الإنسانية من أي أبواب الكلام إن وسعها منه باب.

ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر وكأنها صبت على الجملة صباً ـ أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه مجموعاً ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها: كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٢١]

وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٥٢]

ونحوهما، لم تجئ فيه مفردة، بل جاء في مكانها (القلب) وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثَمَّت فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصباً أو رفعاً، أو جراً؛ فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة،وهذا على أن فيه لفظة (الجب) وهي في وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة.

وكذلك لفظة (الكوب) استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع.

و(أرجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً وترك المفرد ـ وهو الرجا: أي الجانب ـ لعلة لفظه، كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾.

وعكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، فإذا ذكرت

السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وهي في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ١٢]

ولم يقل: سبع أرضين، لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً، وتأمل ذلك الوضع البياني، واعتبر مواقع النظم وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة، أو يتكلفه من القول.

ومن الألفاظ لفظة (أَوْقِدْ) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾.

[سورة القصص، الآية: ٣٨]

فانظر، هل تجد سر الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجن به جنوناً ولا يقول آمنت بالله رباً وبمحمد نبياً وبالقرآن معجزة؟ وتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾.

وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ﴾ وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً.

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب،ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر؛فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع إلى إلٰه موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين.

وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة؛ وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإنك ترى

إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقدم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيء فيما ليس فيه شيء.

تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٣٣]

فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ ـ الطوفان والجراد والدم ـ وأثقلها القمل والضفادع، فقدم (الطوفان) لمكان المدين فيها؛ حتى يأنس اللسان بخفتها؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ثم جيء بلفظة (الدم) آخراً، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً، ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فمهما قلبت هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع، لو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر، ولأعنتك أن تجيء منها بنظم فصيح، لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء؛ ليس يظهر أخفها من أثقلها، فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته؟

وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد ـ عُرِفَ أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة بكل ما فيه على جهته ووضعه، فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه، ومن ههنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث.

الجمل وكلماتها في القرآن الكريم

والجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة المثلى للتأليف الطبيعي إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصورها في نفسه.

ولا عرف أن بلغاء أمة من أمم الكلام قد أقروا وأجمعوا عليها إجماعاً يتوارثونه علماً ونظراً على انفساح التاريخ وتعاقب الأجيال، إلا ما كان من ذلك في القرآن، وما لا يزال الإجماع منعقداً عليه ما بقي في الأرض لفظ من العرب.

وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدراً على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قبل للناس به ولم يتهيأ إلا في هذه العربية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة، وتفوت المألوف، وتعجز الطوق، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو الذي يأخذه فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء في أصل التركيب وحكمته ولا يرد غيرها مردها ولا يأتلف ائتلافها ولا يجري فيها، وإلى نحو ذلك مما أجرى اللّه عليه نشء الخلق وبعث الحياة، ثم اشتمالها على سر التركيب المكنون الذي جعل البلغاء منها بمنزلة الأطباء في سعة العلم بتركيب الأجسام الحية من الخلية فما فوقها، دون العلم بالوجه الذي يمكن به التركيب على أنهم لا يفوتهم شيء من دقائقه ولا يعزب عنهم مثقال ذرة من مادته، وهي بعد مبذولة لهم يقبلونها ويستوضحونها ويزدادون بها على الدهر خبرة، ثم ينصرفون عنها وهم في العلم غير من كانوا وهي لا تزال عندهم على ما كانت.

ولم نر شيئاً كان أمره مع العلم ذلك الأمر إلا أن يكون إلٰهياً، فقد فرغ

الناس من كل ما وضع الناس، وعارض بعضهم بعضاً، وأبر بعضهم على بعض، ولم يسلم للمتقدم من الفضل على المتأخر إلا فضيلة احترام الموت واستحياء التاريخ، وقد بدلت الأرض غير الأرض وليس فيها من أثر واحد لم يتناوله ناموس النشوء بالنقض من إحدى جهاته على هرم الدهر وتقادمه، غير القرآن، فإنه طبقه وحده في إعجاز تركيبه وسلامة معانيه، لم تنقض منه آية ولا كلمة وما دون الكلمة، ولا ذكر معه شيء من كلام البلغاء، ولا عورض به ولا أزيل عن موضعه، ولا وزنه عقل إلا كان مرجوحاً أبداً، وما أراده أحد إلا أراده بغير طريقته، ولا بحث عن طريقته إلا عَيِيَ بإدراكها ولم يدر ما هي ولا كيف هي ولا من أين يأتي لها، وصار أمره نشراً لا نظام له وعاد علمه جهلاً لا بصيرة معه، ولعمري إنه ليس في العجائب كلها شيء أعجب من إمكان أن يكون القرآن مع هذا الإعجاز كله غير معجز..!

ولقد كانت هذه الطريقة المعجزة التي نزل بها القرآن هي السبب في حفظ العربية واستخراج علومها؛ وما كان أصل ذلك إلا التحدي بها، فإن من حكمة هذا التحدي أن يدعوهم إلى النظر في أساليبه ووجه نظمه وتدبر طريقته، حتى إذا استيقنوا العجز وأطرقوا عليه، كان ذلك سبباً لمن يخلفهم على اللغة إلى استبانة وجوه الإعجاز، فكشف لهم عن فنون البلاغة، وتأذت بهم إلى حيث بلغوا من تتبع كلام العرب والاستقصاء فيه والكشف عن محاسنه، وأغرى بعض ذلك من بعضه وأعان كل على كل، حتى اجتمعت المادة وتلاحقت الأسباب ولولا ما صنعوا لخرج الناس إلى المعجمة، ولذهبت هذه الآداب، ولما بقي في الأرض إلى اليوم من يقول إن القرآن معجز!

وذلك بأن العرب لم يكن لهم من البلاغة إلا علم الفطرة، ولم يكن لمن بعدهم من هذه الفطرة إلا ما ترجعه الوراثة من أوليتهم، وهو شيء تتولاه العصور بالتحول والزيغ وتدأب عليه بالنقض والاختلاف.

ومن البين أن أخص أسباب الارتقاء كائن في الغلبة، والتميز والانفراد حيث وجدت، فلو جاء القرآن مثل كلام العرب في الطريقة والمذهب، وفي الصفة والمنزلة لما صلح أن يكون سبباً لما أحدثه، ولذهب مع كلام العرب ثم لتدافعته العصور والدول إن لم يذهب، ثم لبقي أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية؛ لا ينفرد ولا يستعلي.

فتدبر أنت هذا الأمر العجيب الذي كان الأصل فيه نزول آيات التحدي، وتأمل كيف أثبت القرآن إعجازه على الدهر بهذه الآيات القليلة، وكيف ضمن بما وراءها نشأة العقول التي تدرك هذا الإعجاز وتقر به، وتكون مادة لتاريخه الأبدي، ولا تضعف ولا تنحسم؟ وهل بعد هذا من ريب في قول اللَّه تعالى يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾.

[سورة النمل، الآية: ٦]

فقد علم اللَّه تعالى هذا الأمر كيف يكون وكيف يثبت؟ فقدره بعلمه وفصله بحكمته قبل أن يقع فانظر إلى آثار رحمة اللَّه عز وجل.

أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها، فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب، وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسنح في معرض واحد، ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهراً واحداً في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق؛ كأنما تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط إحساسك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب وتشرب قلبك الروعة، وتنتزع من نفسك حتى الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام، وتصفحت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفل، أو يستمر وينقص، أو يأتلف ويختلف. .إلى غيرها من آثار الطباع الإنسانية فيما يعتريها نقص أو كَلال أو غفلة، ومما هو صورة في الكلام لوجوه اختلافها بالقوة والضعف في أصل الخلقة وطريقة النشأة وأسباب التحصيل وآلات الصناعة إذ كل ذلك ليس في كل الطباع الإنسانية على سواء.

فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان

التصوير وأغراض **الكلام**، ولو سميته حس النظر الفكري لم تبعد، فهو يبتدئ في الصورة **الجميلة** ويستتم في النفس فلو أنها أغمضت العين دونها لبقيت الصورة **ماثلة بجملتها** في الفكر ولو وقفت العين على وجهة واحدة منها لوصلها الفكر بسائر أجزائها فتمثلت به سوية التركيب تامة الخلق، في حين لا ترى العين إلا هذه الجهة وحدها.

وذلك أمر متحقق بعد في القرآن الكريم: يقرأ الإنسان طائفة من آياته فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس ترافد ما بعدها وتمده، فلا تزال هذه الصفة في لسانه ولو استوعب القرآن كله، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها، أو نكرت منها، أو أبرزتها عن ظل هي فيه، أو دفعتها عن ماء هي إليه، ولا يرى ذلك كله إلا سواء وغاية في الروح والنظم والصفة الحسية، لا يغتمص في هذا إلا كاذب على دخلة ونية، ولا يهجن منه إلا أحمق على جهل وغرارة، ولا يمتري فيه بعد هذين إلا عامي أو أعجمي. . ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٥٩]

إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحسن الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات.

فإننا لنعرف صبيان الكتاب ـ وقد كنا منهم ـ وما يسهل عليه القرآن وإظهاره، ولا يمكنه في أنفسهم حتى يثبتوه إلا نظمه واتساق هذا النظم، ولو هم أخذوا في غيره من فنون المعارف أو متون العلوم أو مختار الكلام أو نحوه مما يرادون على حفظه، أي ذلك كان، لأعياهم منهم إلى حد الانقطاع والتخاذل، حتى لا يجمعوا منه قدراً في حجم القرآن إن جمعوه إلا وقد استنفدوا من العمر أضعاف ما يقطعونه في حفظ القرآن: على أنهم يبلغون من هذا العفو والأناة، ولا يبلغون مثله من ذلك إلا بالعنت والجهد.

وقد ينسى أحدهم الآية من القرآن فينقطع إلى الصمت من قراءته، أو تتدخل في لفظه بعض الآيات المتشابهة في السور، أو يسقط بعض اللفظ في

تلاوته فَيَضِلُّ في ذلك ثم لا ييسره للذكر ولا يذكره بالآية المنسية أكثر ما يتذكر، إلا نسق الحروف في بعض كلماتها، ولا يبين له مواقع الكلم المتشابهات، إلا نظام كل كلمة من آيتها، ولا يهديه إلى ما أسقطه من اللفظ غير إحساسه باضطراب النظم وتخلخل الكلام.

ولا جرم كان القرآن في نظمه وتركيبه على الأصل الذي أومأنا إليه: نمطاً واحداً في القوة والإبداع، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته، ما دامت تنعطف إلى جوانب هذا الكلام الإلٰهي وما دام في موضعه من النظم والسياق فإذا أنت حرفت ألفاظه من مواضعها، أو أخرجتها من أماكنها، وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها بما يدور في الألسنة ويجري في الاستعمال، رأيتها ـ وهي في الحالتين لغة واحدة ـ كأنما خرجت من لغة إلى لغة، لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه، بيد أنك إذا تعرفت ألفاظ اللغة على هذا الوجه في كلام عربي غير القرآن، أصبت أمراً بالخلاف، ورأيت لكل لفظة روحاً في تركيبها من الكلام فإذا أفردتها وجدتها قريبة مما كانت، لأنها هي نفسها التي كانت من روح التركيب، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روح خاصة بالنسق والنظم، فعلى كل لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللغة معنى في الإفراد، حتى إذا أبنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت، وتبينت فيها الوحشة والقلة.

وهذه الروح التي أومأنا إليها (روح التركيب) لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة، ثم إلى تأليف هذا النظم: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فيما ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال، ونحوها مما يدور عليه.

اقرأ الآيات من سورة فصلت يقول تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا

وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ .

[سورة فصلت، الآيات: ٩ ـ ١١]

فقد جمع اللّه في كلمات قليلة ـ الإيمان والمثل والعلم والمعرفة في خلق الأرض والسماوات، وكذلك فهمنا حال السماوات عندما خاطبها اللّه سبحانه، فهل من بشر يقول للسماوات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً؟ وفي هذه الآيات أيضاً تثبيت للألوهية وعلم لا تدركه البشرية ولا تعرف عنه شيئاً، لأنها لم تخلق الأرض ولا السماوات ولا تعرف عنها شيئاً.

ولولا تلك الروح في آيات القرآن الكريم لخرج أجزاء متفاوتة، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازاً، كما نعرفه من البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها، على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم وكفوها المؤونة فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم إلى أغراض ومعان يعذب فيها الكلام ويتسق وتحسن الصنعة مما يكون أكبر حسنه في مادته اللغوية، وذلك شائع مستفيض في الكلام عنهم، ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه، فإذا تحولوا، وأفضوا بالكلام إلى سواه رأيت من اقتضابهم في الأسلوب ومن التذاكر في وضع المعنى إلى المعنى ما يشبه في اثنين متقابلين من الناس منظر قفا إلى وجه[(١)].

وعلى أنا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطى الكلام في باب الشرع وتقرير النظر وتبيين الأحكام ونصب الأدلة وإقامة الأصول والاحتجاج لها والرد على خلافها، إلا جاء بكلام عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب، وأنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر، والأسلوب الرائع، والصنعة المحكمة والبيان العجيب، والمعرض الحسن، فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعاني، وقعت ثمة على شيء كبير من اللفظ المستكره، والمعنى المستغلق والسياق المضطرب، والأسلوب المتهافت والعبارات المبتذلة، وعلى النشاط متخاذلاً والعرى محلولة، والوثيقة واهنة، وتبينت كلاماً لا تطمئن إليه في أكثر جهاته حتى يجد أن صاحبه وصاحب ذلك الكلام رجل واحد.

(١) مصطفى صادق الرافعي ـ بتصرف وتعليقات وشواهد.

وإنما وقع للبلغاء هذا النقص من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن ولا هذه الروح مما تطوعه قوى الخلق؛ فلما صاروا إلى الوضع الذي ضعف مادته اللغوية من الحقيقة والمجاز وما إليهما، صاروا إلى الضعف الذي لا قبل لهم ولا حيلة لهم فيه إلا مداورة الكلام وتعريض العبارة وتشقيق المعنى.

وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف بها؛ وتقعد بك العبارة إذا حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللغة كلها دليل على غرضك وأجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز.

وما عسى أن تقول في كلام ترى للفظ من الألفاظ فيه معنى؛ ثم ترى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر، هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها فكأنه مداخل وكأن اللغة فيه لغتان.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١١٣]

... فقد حكى القرآن في جمل قليلة وكلمات معدودة قصة اليهود والنصارى والمشركين وحالهم في الدنيا وحكم الله بينهم يوم القيامة.

ثم ما أنت قائل في كلام جاء من الإبداع في التأليف ومن وجوه التفنن في تلوين المعاني بحيث نفى العرب جميعاً عن لغتهم وهم في أرقى ما اتفق لهم من الصور اللغوية واستبد بها دونهم واستغرق كل ما جاء به من محاسن البيان حتى لم يدع لمن يقابل بينه وبين كلامهم إلا حكماً واحداً تنتهي إليه المقالة من جهاتها سلك؛ وهو أن العرب أوجدوا للغة مفردات فانية، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة.

ثم ماذا يبلغ القول من صفو هذا التركيب العجيب، وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذي يستنفد كل ما في العقول البيانية من الفكر، وكل ما في القوى من أسباب البحث؛ كأنما ركب على مقادير العقول

والقوى وآلات العلوم وأحوال العصور المغيبة؛ فتراه يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها أن يقع التخير عليها ولكن العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز الذي لا يكون في اللغة إلا عن قدرة هي عين القدرة التي ألهمت أهلها الوضع والتعبير وتشقيق الكلام، حتى حصلت لغتهم كاملة في كل ذلك، أي معنى أعجب من أن تتجاذبك معاني الوضع في ألفاظ القرآن فترى اللفظ قاراً في موضعه لأنه الأليق من النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه، حتى خرج بذلك كله في تركيب قصر معارضته أن تنتهي إليه بعينه، ولا مثل له إلا ما يتردد منه على لسان قارئه، وحتى خرج التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى من نفس اللغة العربية مخرج الترجمة إلى غيرها من اللغات إذ لم تحمل لغة الأرض حقيقة ما تعنيه ألفاظه على تركيبها المعجز بل هو في ذلك يعجزها جميعاً ويخرج عن طوق أهلها وإن تساندوا فيه، وإنما جهد ما تبلغه تلك اللغات أن تجيء بشبه معانيه قصداً في بعضها ومقاربة في بعضها مع الاستعانة بالشرح المبسوط والعبارة الملونة، وعلى أنه ليس ضرباً من ضروب الصناعات اللفظية التي لا يتفق فيها أن تنقل من لغة إلى لغة.

وإن من أعجب ما يحقق الإعجاز أن معاني هذا الكتاب الكريم لو ألبست ألفاظاً من نفس العربية، ما جاءت في نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى إلا في الترجمة، ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فقد ضاقت عنده على سعتها، حتى ليس فيها لمعاينة غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها، ومتى كانت عرضة والترجمة سواء إلا في المعجز الذي يساوي بين القوى في المعجز وهي بعد في بينها مختلفات؟

انظر إلى صفاء المعاني وعذوبة الألفاظ وترادف الكلمات وموسيقى الأحرف وأوائل الآيات وأواخر الآيات وما بينهما في بيان أشرقت كلماته على منتهى بيانه فأطاعت الحروف الكلمات، وأطاعت الكلمات الآيات، وأطاعت الآيات الكتاب وأطاع الكتاب ربه فأعجز الخلق أجمعين أن يأتوا بمثله أو عشر سور من مثله أو سورة مثله.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٣٠]

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

[سورة الفتح، الآية: ٦]

في الآيتين جرس موسيقي يشنف الآذان فأعذب الألحان اللغوية وأرق العبارات مع دقة البيان وبلاغة الأسلوب وعذوبة الكلمات وهذه لا تكون إلا من إله خالق بيده ملكوت كل شيء خلق الجنة وخلق النار، يدخل الجنة من يشاء، ويعذب في النار من يشاء وهو قادر على ذلك دون ظلم للعباد.

الفصل الثاني

صور من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

- الإظهار والإضمار في القرآن الكريم.
- التعريف والتنكير في القرآن الكريم.
- التذكير والتأنيث في القرآن الكريم.
- الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم.
- مشاهد بلاغية في الإفراد والجمع في القرآن الكريم.



صور من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

أولاً

الإظهار والإضمار في القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات متشابهات، فيها إظهار وفيها إضمار، فلماذا يظهر القرآن مرة ويضمر مرة؟ ومتى يظهر؟ ومتى يضمر؟ وهل هناك قاعدة متبعة ونظام خاص؟ أو القضية اعتباطية لا رابط لها ولا ضابط.

هذا ما سنبينه من خلال دراستنا لهذه الآيات وهي:

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٣٦، وآل عمران: ٨٤]

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٥]

لماذا قال في الأولى: ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ وفي الثانية: ﴿ مِّن رُّسُلِهِ ﴾؟

الجواب والله أعلم:

الآية الأولى جاء فيها: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٣٦]

في الآية الأولى جمع بين الرسل والأنبياء عموماً كما جمع بين ما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط، وبين ما أوتي موسى وعيسى والنبيون فعندما أضمر فهذه إشارة إلى عدم التفريق بين هؤلاء جميعاً بعضهم

عن بعض، وعدم التفريق بين ما أنزل إليهم وما أوتوا، وعدم التفريق أيضاً بينهم وبين ما أنزل عليه وما أوتي هو، فهنا عمم ليشمل الجميع.

- في الآية الثانية الأمر واضح وظاهر ومحدد ومخصص بالرسل فأظهر وقال: ﴿مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ باستغراق الرسل.

فعندما أراد التعميم والشمول عمم وأضمر، وعندما أراد التخصص خصص وأظهر.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٨٥]

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٦]

الجواب والله أعلم:

- في الآية الأولى الكلام على القرآن الكريم وجاء في القرآن، فالضمير على القرآن، وما سبق هذه الآية يشير إلى ذلك قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٦٩]

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٧٠]

.. وقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٧٥]

- في الآية الثانية الحديث عن معجزات الله وآياته الكونية: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٣]

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٥]

وقدم الآيات على التلاوة فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٦]

.. وجاء بعدها: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[سورة الجاثية، الآيتان: ١٢ ـ ١٣]

والحديث عن اللّٰه وعما فعل وسخر هو للإنسان، فقال: ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

[سورة المرسلات، الآية: ٥٠]

.. جاء في الكشاف: «بعد اللّٰه وآياته»: أي بعد آيات اللّٰه ويجوز أن يراد بعد حديث اللّٰه وهو كتابه وقرآنه، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٢٣]

ـ ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٦]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٧]

لماذا أظهر في الآية الأولى وأضمر في الثانية؟

الجواب واللّٰه أعلم:

ـ الآية الأولى أولها قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٦]

.. هذه قاعدة عامة وكلمة تنطبق على الجميع، المؤمن والكافر، لكن عندما صار الحديث على الجزاء والأجر خصص، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ ﴾.

ـ الآية الثانية أولها قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ فقد سبق الحديث عن العمل الصالح وعن الإيمان فلم يكن سائغاً تكرار الكلام وإعادته واكتفي بالإشارة إليه والتلميح له.

ثم هذه اللمحة الفنية الرائعة بين ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ ﴾ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ في الآخرة

قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ فجمع لأن الجزاء للجميع في آن واحد، ومن أحسن الجزاء الذي أعددناه لهم.

- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٦]

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٤١]

لماذا قال في الأولى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وفي الثانية: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾؟

الجواب واللّه أعلم:

- وردت هذه المسألة في الدرة والبرهان والملاك، وعللوها بقولهم: لم يجر للكفار ذكر قبل هذه الآية ـ آية الأنبياء ـ فكان الاختيار (الإظهار) ـ وفي الفرقان سبق ذكرهم فكان الاختيار (الإضمار)، والذي أراه غير ذلك: فالحديث في سورة الأنبياء كله مركز على الكافرين: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآيات: ١ ـ ٥]

ثم يقدم لهم القرآن الأدلة والبراهين والآيات علهم يؤمنون ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٠]

ولكنهم يردون باستهزاء وسخرية: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٦٠]

ثم يأتي الرد الإلهي حاسماً: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن

وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠]

في سورة الفرقان: السورة مركزة على الرسول ﷺ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ١]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآيتان: ٤ ـ ٥]

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآيتان: ٧ ـ ٨]

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ١٠]

ثم يقول: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ٢٧]

إلى أن يقول: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ٤١]

وهكذا فقد أظهر الكافرين في سورة الأنبياء لأن الحديث كله على الكافرين، وأضمرهم في الفرقان لأن الحديث مركز على الرسول ﷺ وليس عليهم.

هذه هي صور القرآن وهذه هي المثاني التي يتحدث عنها في آياته المتشابهات.

ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ .

[سورة الروم، الآية: ٨]

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٣]

لماذا قال في الأولى ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ وفي الثانية ﴿خَلَقْنَا﴾؟

الجواب والله أعلم:

ـ في الآية الأولى أظهر ولم يضمر لأن السياق سياق إظهار، فقد قال: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ وقال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فروم، ومؤمنون، وناس فقال: خلق اللَّه تعالى وتنزه وأوامر ونواهٍ وعبادة وخلق....

أمر آخر هو أن الخطاب موجه للناس عموماً في هذه الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٨]

ـ في الآية الثانية الحديث فيه خصوصية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٣]

ـ والخطاب موجه إلى الرسول مباشرة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ والسياق سياق إظهار (قل ـ أنت يا محمد ـ أرأيتم أنتم ـ ما تدعون: أنتم، ماذا خلقوا هم، أم لهم، ائتوني، أنتم، من قبل هذا ـ الكتاب ـ إن كنتم، أنتم)

ففي هذه الآية وحدها عشرة ضمائر﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٤]

فأضمر تساوقاً وانسجاماً.

لا سيما وأن الآية سبقها ما يغني عن التكرار والإعادة ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

[سورة غافر، الآيتان: ١ ـ ٢]

فالقرآن يظهر عندما تكون الحاجة إلى الإظهار ويضمر عندما يكون هناك غنى ويكون الإظهار متكلفاً.

- ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

[سورة السجدة، الآية: ١٣]

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

[سورة ص، الآية: ٨٥]

لماذا أظهر في الأولى وأضمر في الثانية؟

الجواب والله أعلم:

في الآية الأولى تكلم الحق سبحانه وتعالى عن قضية الخلق وتدبير الأمر وعلمه وقدرته، ثم فصل في كيفية خلق الإنسان، وعن الحياة والموت ومصير الناس: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

[سورة السجدة، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠]

ثم يبين لنا أن النار ستملأ من الجِنَّةِ ومن الناس فأظهر وأوضح.

- وفي الآية الثانية يفصل لنا الحق جل جلاله ويقدم لنا هوية هؤلاء الذين سيملؤون جهنم من أي جِنَّةٍ هم ومن أي أناس يكونون، وذلك بحوارية رائعة بين الله عز وجل وبين إبليس اللعين: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

[سورة ص، الآيات: ٨٢ ـ ٨٥]

فهؤلاء الذين سيملؤون جهنم هم من الجِنَّةِ والناس الذين تبعوا إبليس وتركوا طاعة الله وعبادته.. والأمر واضح ومفهوم من سياق الآيات ولا يحتاج إلى إعادة وتكرار.

فالقرآن الكريم يظهر عندما يكون الأمر بحاجة إلى إظهار، ويضمر عندما يكون الأمر مفهوماً من السياق، ويصيب المعنى المطلوب باللفظ الجميل المناسب بكل دقة وبراعة وإعجاز بعيداً عن التكرار والإطالة والحشو...

ثانياً

التعريف والتنكير في القرآن الكريم

ـ وردت في القرآن الكريم آيات متشابهات فيها تعريف وفيها تنكير؛ تعريف بأل وتعريف بالإضافة.

فهل لهذا الاختلاف سبب أم لا؟ وما علاقة المبنى والمعنى في هذا الأمر؟

ـ هذا ما سيظهر لنا من خلال دراستنا لهذه الآيات، وهي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

[سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ ـ ٧]

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٥٢]

ـ الصراط أو السراط: الطريق المستقيم: والطريق المستسهل وأصله من سرطت الطعام وزودته ـ ابتلعته ـ فقيل: سراط ـ تصوراً ـ أنه يبتلعه سالكه أو يبتلع سالكه.

ـ لماذا قال الصراط في الآية الأولى وقال (صراط) في الآيات الأخرى؟

الجواب والله أعلم:

جاء في البرهان: الصراط، الطريق والسبيل، والصراط المكان المهيأ للسلوك، وقالوا المستقيم: لقطع دعوى استقامة الطرق التي يخترعها الناس، وتخصيص الاستقامة بطريق الله وسيلة وحده.

وأضيف إلى ما تقدم: إن قولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (هو دعاء العابدين المؤمنين وطلبهم ورجاءهم من الله أن يهديهم إلى هذا الطريق ـ المخصص المحدد ـ فعرفوه بكل أنواع التعريف.

ـ بأل: العهدية وهي التي تدخل على واحد من أفراد الجنس بعينه، ومعنى العهد المعرفة، والعهد الحضوري الذي يكون مصحوباً حاضراً مشاهداً أو محسوساً.

ـ بالوصف: الصراط المستقيم، ـ وبالإضافة: فأضافوا إلى (الذين) بجملة

من الكلام قد سبق من السامع علم بها، وأمر قد عرفه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقد بينهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٦٩]

في سورة الشورى لم يعرف بأل التعريف: فأنت تهدي إلى صراط وغيرك يهدي إلى صراط، وكان صراطك الذي تهدي إليه مستقيماً، وصراط غيرك معوجاً، وصراطك المستقيم الذي تهدي إليه هو صراط الله.

وصراطهم صراط الشيطان، وتعالى الله وجل وعلا وارتفع وتنزه... وقال: (الله) الاسم الجامع المانع حيث التعالي، والخلق والمنهج، حيث يشمل كل الأسماء الأخرى.

- تعريف بأل التعريف، وتعريف بالإضافة إلى الموصول، وتعريف بالوصف، وتعريف بالإضافة إلى الاسم الصريح الأعظم.

- ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٠٥، آل عمران ٧٤، الأنفال: ٢٩، الحديد ٢١، ٢٩، الجمعة: ٤]

- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥١، آل عمران ١٧٤]

لماذا عرف في الآيات الأولى ولم يعرف في الآيات الثانية؟

الجواب والله أعلم:

قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٠٥]

وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

[سورة آل عمران، الآيتان: ٧٣ ـ ٧٤]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ٢٩]

وقـال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

[سورة الحديد، الآية: ٢١]

وقـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

[سورة الحديد، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩]

وقـال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ * وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

[سورة الجمعة، الآيات: ٢ ـ ٤]

وقال أيضاً: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥١]

وقال: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٧٤]

فعندما يكون الخطاب موجهاً للمؤمنين وعندما يكون خاصاً ومحدداً ومعروفاً في الدنيا يخصص ويعرف بأل التعريف.

ـ وعندما يكون الحديث عن أقوام سابقة أو يكون عن الآخرة أو يكون عاماً للناس غير مخصص يحذف أل التعريف.

ـ ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٢٦]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ .

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٥]

لماذا قال في الآية الأولى (بلداً) وفي الثانية (البلد)؟

الجواب والله أعلم:

- البلد: المكان، المختط، المحدود، المستأنس باجتماع أهله وإقامتهم فيه وسميت المفازة بلداً: لكونها موطن الوحشيات[١] .

- جاء في درة التنزيل: الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي خيرته كما سألت ذا أمن على من أو في إليه فعرف حين عرف بالبلدية، ونكر حين كان مكاناً من الأمكنة غير مشهور.

والجواب الثاني: أن تكون الدعوتان واقعتين بعدما صار المكان بلداً وإنما طلب من الله أن يجعله آمناً ويجوز أن يكون المراد اجعل هذا بلداً آمناً فتدعو له بالأمن بعدما قد صار بلداً ويكون مثل قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فتكون الدعوة واحدة في الموضعين[٢] .

- البرهان: كرر ما جاء في الدرة، وأضاف رأياً رفضه الإسكافي ورده[٣] وهو (النكرة إذا تكررت صارت معرفة) وقال: فأما قول من يقول جعل الأول نكرة فلما أعيد ذكرها أعيد بلفظ المعرفة، كما تقول، رأيت رجلاً فأكرمت الرجل، فليس بشيء وليس ما ذكره مثلاً لهذا ولا المكان مكانه[٤] .

- الملاك: قال في البقرة لم يعرف لأن البلد تعريفه من البيت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ فتعريف البيت تعريف البلد.

- في سورة إبراهيم لم يتقدم فيها ما يقدم اسم الإشارة، فقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه.

أما الرأي القائل بأن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن قد جعل بلداً.

---

(١) المفردات: ٧٧.
(٢) الدرة: ١٥ ـ ١٦.
(٣) ينظر البرهان: ٣٤ ـ ٣٥.
(٤) الدرة: ١٦.

والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً فقد رووه بقوله: قال صاحب الدرة: وهو عندي بعيد، إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي وأضاف وهو بعد ممكن[١].

ـ غير أن صاحب الدرة لم يقل هذا الكلام، بل هو الذي قال بهذا الرأي وتمسك به وأطال فيه الشرح والتعليق، وربما يكون هذا الكلام زيادة من ناسخ أو تعليقاً لأحد المطلعين على الكتاب كعادتهم آنذاك.

ـ الدكتور فاضل السامرائي أخذ برأي الإسكافي وقال: دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمن قبل أن يكون بلداً وبعد أن صار بلداً، فقال أولاً: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ وقال فيما بعد ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾.

ـ لنعد إلى الآيات في السورتين قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

[سورة إبراهيم، الآيات: ٣٥ ـ ٣٧]

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۞ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ١٢٥ ـ ١٢٨]

ـ فلو أمعنا النظر في هذه الآيات وأردنا أن نعرف من أين نبدأ القصة من سورة إبراهيم أم من سورة البقرة؟ ستجدها تبدأ من سورة إبراهيم لماذا؟ لأن فيها قوله وإذا قال إبراهيم، ولم يذكر إسماعيل فأول شيء طلبه الأمن، لأن المكان موحش ومخيف، وأول شيء أراد تجنبه الأصنام، لأن قصة

---

(١) المفردات: ٧٧.

إبراهيم عليه السلام مع الأصنام طويلة، والأصنام عقدته كما يقولون، ثم قال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، دعا بلغة الجماعة، باسمهم الطفل الذي سيُفارق والذي انتظره طويلاً، وأمه الزوجة الوفية المؤمنة المحتسبة، المطيعة الصابرة على قضاء اللّه وقدره، سيتركها أيضاً ولا يعرف ماذا سيكون مصيرها هي وطفلها الرضيع ولا أحد عندها، قال: ربنا، وقال: أسكنت هذه إشارة إلى أنه أول من سكن في هذا المكان، وأن هذا المكان ليس مسكوناً من قبل، ويقول بواد غير ذي زرع، فلا إنس ولا جان، ولا زرع ولا ضرع، واد مرعب مخيف، ثم يقول: ربنا واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ـ ما أعظم هذا التعبير ـ أفئدة.. موطن العطف والحنان والحب، وقال: من الناس، حيث الأنس والمؤانسة، وقال: تهوي إليهم ـ تأتيهم بشوق ولهفة وتحتضنهم وترعاهم ـ وقال: وارزقهم من الثمرات فلا رزق عندهم، ولا أحد ولا شيء، فماذا قال: هذا البلد آمناً، أي: هذا الوادي المقفر الموحش المخيف، وهو يشير إليه وإليهم، وليس لبلد مأهول أو لمدينة مسكونة...

ـ في سورة البقرة الوضع مختلف تماماً، فقد بدأها بقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا﴾ فحديث عن الأمن وذكر لإسماعيل عليه السلام، وحديث عن تعهدهم البيت بالطهارة والنظافة، وحديث عن كثرة الناس وكثرة المؤمنين.

ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ هنا دعاء إبراهيم عليه السلام جاء بعد أن عاد إلى المكان، وبعد حقبة من الزمن، فهاله ما رأى وأنكر واستغرب واستعجب، حيث البلد أصبح بلداً، هذا المكان المقفر المخيف صار مدينة، سكنه الناس وصار فيه زرع وضرع فتراه يقول: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ وهناك قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم﴾.

أي: أهلي لأنه لم يكن به أهل غيرهم، وقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ولم يذكر الأصنام، لأنه لم يجدها، ووجد أناساً لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، وفي إبراهيم قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد تركه يكمل دعاءه استمع إليه لأن المشهد هناك غير المشهد هنا حيث الأمن والماء، والزرع والضرع وبيت ومناسك وعبادة، فقال له اللّه: ومن كفر بعد

كل هذا النعيم فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . . . ثم هناك توسعة للبيت ورفع قواعد وأبنية ، فلم يعد المكان يتسع للناس وأصبح الناس بحاجة إلى مزيد من العبادة والمناسك ليشكروا اللّه على ما أنعم، وقال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ ﴾ وهناك قال : ﴿ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ وقال : ﴿ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ .

ـ فالتعريف هنا إشارة إلى البقعة الصغيرة الفقيرة التي أسكن فيها أهله .

ـ والتنكير هنا إشارة إلى سعة المكان، وكثرة الناس واختلافهم .

ـ وقد مر معنا في مسألة (واللّه ذو الفضل) و(ذو فضل) ما يؤيد ما ذهبنا إليه . واللّه أعلم .

ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية : ٣٥]

ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

[سورة ص، الآية : ٧٨]

لماذا قال في الآية الأولى : (اللعنة) وفي الثانية (لعنتي)؟

الجواب واللّه أعلم :

ـ وردت هذه المسألة في الدرة وقد وجهها بقوله : إن الكلام في سورة الحجر جرى على الجنس من أول القصة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية : ٢٦]

ـ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية : ٧]

ـ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية : ٣٠]

. . ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية : ٣١]

فقال (اللعنة) اسم الجنس المعرف بالألف واللام : الجنسية وليست العهدية[١] .

---

(١) معاني النحو١/ ١٢٣.

ـ في سورة (ص) لم يتكلم عن الجنس من الجن والإنس، وجعل بدل الساجدين ـ أن تسجد ـ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فخصص بالإضافة إليه دون واسطة فقال: ﴿لَعْنَتِيٓ﴾ للتوفيق بين الألفاظ في السور(١).

ـ وقد تكرر هذا الكلام نفسه في البرهان وفي الملاك(٢).

ـ ولكن السؤال يبقى قائماً، لماذا قال ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ مرة و﴿لَعْنَتِيٓ﴾ مرة أخرى؟

الجواب: في اللعنة أل التعريف ماذا أفادت؟... أفادت التعريف، وأفادت الاستغراق وأفادت العموم.

ـ في ﴿لَعْنَتِيٓ﴾ الإضافة ماذا أفادت؟... أفادت التعريف والتخصيص.

ـ فالآية الأولى أشارت إلى عموم اللعنة، وإلى كل اللعنات، وإلى لعنات كل المخلوقات، ومعها لعنة اللّه..

ـ وفي الآية الثانية: أفرد وخصص بلعنة اللّه فقط، فأي اللعنتين أشد إذاً؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من العودة إلى الآيات في السورتين. في سورة الحجر قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

[سورة الحجر، الآيات: ٣١ ـ ٣٥]

في سورة (ص) قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

[سورة ص، الآيات: ٧٤ ـ ٧٨]

.. فلو أمعنا النظر في الآيات فماذا نجد؟

في الحجر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

في (ص): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هناك أبى ـ هنا استكبر وكان من الكافرين، فهاهنا المعصية أكبر وأشد.

---

(١) الدرة: ١٤١.

(٢) ينظر البرهان: ١٠٨، والملاك ٢/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧، ودراسة المتشابه اللفظي: ٨٥.

- في الحجر ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .

في (ص) قال: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ .

ما لك ألا: ما الشيء العجيب الذي لا تعرف كيف وقع؟ أي شيء وقع لك حال دون سجودك؟ دهشة لمعرفة السبب، أنت قادر على السجود وتريد أن تسجد ومنعك مانع قهري، وزين لك ألا تسجد.

في آية (ص): ما حجتك في عدم السجود أتكبرت أم كنت من العالين، ما لك ألا: سلطان القوة، ما منعك أن تسجد: سلطان الحجة؛ في الحجر قال: عليك اللعنة، عموم اللعنة، وقد تساوت لعنة اللّه ولعنة المخلوقات.

في (ص) قال: عليك لعنتي، خصص وميز وأفرد، لعنة اللّه وحدها لأنها الأشد والأقوى والأدوم والأنكى، والنافذة والمهلكة في الدنيا والآخرة.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٥٨]

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٥٩]

لماذا قال في الآية الأولى ﴿ ٱلۡأٓيَٰتِۗ ﴾ وفي الثانية ﴿ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾؟

الجواب واللّه أعلم: الآية الأولى نصها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٥٨]

.. والآية الثانية: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٥٩]

صاحب الدرة قال: «جعل الأوقات الثلاثة آيات لهم وعلامات للمنع

وجواز فيما سواهما، وعبر بالآيات لما لم يكن تبين الأوقات من الأفعال التي تتخصص بقدرته، ولما كان بلوغ الحلم فيما يختص بفعله أضافه إلى نفسه»[١].

صاحب البرهان قال: (الآيات) لأن الذي قبلها والذي بعدها يشتمل على علامات يمكن الوقوف عليها في آيات معلومة، ولكن بلوغ الأطفال لم يذكر له علامات يمكن الوقوف عليها، بل تفرد سبحانه بعلم ذلك فأضافها إلى نفسه[٢].

الملاك أورد ثلاثة أسباب: الأول: عدول عن تكرار اللفظ الموحد على عادة العرب.

الثاني: عرف بالألف واللام للعهد فيما تقدم من المعتبرات الواضحة الدلالة.

الثالث: بالإضافة إلى الضمير لتحصل نسبة الآيات له تعالى، وتبياناً للأولى بياناً تأكيدياً بنسبتها له سبحانه[٣].

ونضيف إلى ما تقدم أن الآيات الثلاث: الآيات الكونية، والآيات المعجزات، وآيات الأحكام وهذه من آيات الأحكام، وقوله: يبين لكم الآيات، أي الأحكام والأوامر والنواهي والعلامات والأوقات، وهو يعلم ماذا يفعل، ويعلم أنها لمصلحتكم وخيركم، ويدرك أهميتها وفائدتها لكم...

في الثانية قيل: إنها نزلت لأن عمر ـ رضي اللّه عنه ـ تمنى ذلك وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد ـ رضي اللّه عنها ـ سألت رسول اللّه ﷺ[٤] فقال في آيات شرعه وحكمه وخلقه، ولكنه أنزلها عندما أصبحتم مهيئين لاستقبالها وتنفيذها والتزامها، ولم يدله أحد، فأنزلها إكراماً لفلان أو تلبية لرغبة فلانة، وإنما هي حكمه وعدله وشرعه... واللّه أعلم.

ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ١٧]

---

(١) الدرة: ١٨.
(٢) البرهان: ١٣٨.
(٣) الملاك: ٢/ ٧٤٢.
(٤) الكشاف: ٣/ ٧٤ ـ ٧٥.

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٤٤]

لماذا قال ﴿صَٰعِقَةً﴾ في الآية الأولى؟ و﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ في الآية الثانية؟

الجواب والله أعلم: لأن الحديث في الآية الأولى على العذاب، وعلى سبب العذاب، فقال: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وقال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

في الآية الثانية: الحديث عن الذين أخذتهم الصاعقة، وفي الصاعقة نفسها، وعن حالتهم وقد أخذتهم الصاعقة، فقال ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ وقال: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

ثنائية مقصودة، وتعبير فني مقصود، وبناء قرآني معجز...

ثالثاً

التذكير والتأنيث في القرآن الكريم

- وردت في القرآن الكريم آيات متشابهات فيها تذكير وفيها تأنيث فقد تأتي الكلمة مرة مذكرة وتأتي مرة أخرى وفي مكان آخر مؤنثة وقد يكون سياق الآية دالاً على التذكير مرة، ودالاً على التأنيث مرة أخرى، فهل من وراء ذلك قصد وحكمة أم المسألة اعتباطية؟

هذا ما سنعرفه بعد دراستنا لهذه الآيات وهي:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٤٤]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

[سورة هود، الآية: ٤٩]

لماذا قال في الآية الأولى (نوحيه) وفي الثانية (نوحيها)؟؟

الجواب والله أعلم:

لأن الضمير في (نوحيه) عائد على (ذلك) المذكر، فجاء بصفة المذكر

في حين كان الضمير في (نوحيها) عائد على (تلك) المؤنثة، فجاء بصيغة المؤنث.

- ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٧]

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٨]

لماذا قال (السوء) في الآية الأولى، و(السيئات) في الآية الثانية؟

الجواب والله أعلم:

السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية[١].

في الآية الأولى: أراد الجنس، وأراد الإفراد وإن كان اسماً مقتضباً لمعنى الجمع[٢].

في الآية الثانية: أراد جمع الكثرة، وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية، التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر[٣].

فالقرآن الكريم أراد كما يبدو من خلال الآيتين أن يوضح الأمر بطريقة بلاغية إعجازية، وبأبسط الكلمات وأدق التفاصيل، فقال: (السوء) ليغطي الجنس كله، صغيره وكبيره، ولكنه بنفس الوقت قصد القلة في العدد، وقصد اللمم.

في الآية الثانية: قصد الكثرة في الكمية والنوعية والتمييز والتدرج والمهلة، ولذلك قال في الأولى: (من قريب) وقال في الثانية: (حتى إذا) انتهاء الغاية وانتهاء المدة.

---

(١) المفردات: ٣٦٨.
(٢) ينظر الكتاب: ٣/ ٢٣٠.
(٣) ينظر التعبير القرآني: ١٥٩.

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٦٧]

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٩٤]

لماذا ذَكَّرَ في الأولى (أخذ) وفي الثانية أَنَّثَ (أخذت)؟

الجواب والله أعلم:

وردت هذه المسألة في الدرة وقد وجهها الإسكافي بقوله: «إن اللَّه تعالى أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ هي (الرجفة) الأعراف ٨٩، و(الصيحة) هود ٩٤ ـ ٩٥، و(الظلة) الشعراء ١٨٩.. فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به وردت على التأنيث»(١) وقد ذهب ابن القيم والزركشي والدكتور فاضل هذا المذهب(٢).

كما وردت الآية في البرهان حيث ذكر الكرماني توجهين أحدهما: قول الإسكافي، والثاني: هو التذكير والتأنيث حسنان، ولكن التذكير أخف في الأولى بحذف حرف منه، وفي الأخرى وافق ما بعدها وهو: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾(٣).

وكذلك وردت في الملاك حيث وجهها الغرناطي توجيهاً آخر فذكر أن: «التأنيث ضربان: حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي: لا تحذف الياء من فعله غالباً إلا أن يقع الفصل، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعاً».

وأما غير الحقيقي فالحذف والإثبات فيه جائزان، والحذف أحسن، فحذف وأثبت جمعاً بين الوجهين(٤).

---

(١) الدرة: ١٢٢.
(٢) ينظر: بدائع الفوائد ١/ ١٢٦، والبرهان: ٣/ ٢٦٨، ودراسة المتشابه اللفظي ٩٦.
(٣) البرهان ٩٩٠.
(٤) الملاك: ٢/ ٥٢٣.

في مسألة جواز الحذف إذا كان هناك فصل بين الفعل وفاعله سواء أكان الفاعل حقيقياً أم مجازياً.

يقول سيبويه رحمه الله: «كلما طال الكلام كان الحذف أجمل»[١] غير أن الدكتور فاضل السامرائي يرد على هذا الرأي بقوله: «إن هذا الكلام ليس على إطلاقه، وإنما الذي يقرره المعنى، ودليلنا على ذلك كلام الله»[٢] ويستشهد بعدد من الآيات مؤيداً ما ذهب إليه.

فالتكرار في القرآن الكريم مقصود، ومبدأ الثنائية وتقليب الكلام وتلوينه مقصود، والشواهد كثيرة في الإفراد والتثنية، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، وفي اختلاف الصيغ، وفي الذكر والحذف، وفي عموم القرآن الكريم من ذلك: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

[سورة العاديات، الآية: ٩]

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

[سورة يس، الآية: ٦٩]

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٩٠]

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

[سورة الحاقة، الآية: ٤٨]

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة نوح، الآية: ٤]

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٢]

---

(١) الكتاب: ١/ ٢٣٥، وينظر: بدائع الفوائد: ١/ ١٢٥، دراسة المتشابه اللفظي: ٩٤.
(٢) معاني النحو: ٢/ ٤٨٢.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

[سورة الجاثية، الآية: ١٢]

. . . ومثل ذلك كثير.

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

[سورة يوسف، الآية: ٤٠]

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ .

[سورة البينة، الآية: ٥]

لماذا قال في الآية الأولى: (القيم) وفي الثانية (القيمة)؟

الجواب والله أعلم:

جاء في الكشاف: القيم: الثابت الذي دلت عليه البراهين[١].

وجاء في المفردات: قوله تعالى ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: ثابتاً مقوماً لأمور معاشهم ومعادهم[٢].

في الآية الثانية: ذكر الزمخشري في تفسير دين القيمة: (أي من الملة القيمة، وقرأ: وذلك الدين القيمة، على تأويل الدين بالملة، فإن قلت: ما وجه ـ وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ قلت: معناه: وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة[٣].

- فالآية الأولى الحديث فيها على الدين، والقيم وصف للدين، ولذلك قال: (الحكم) وقال (ألا تعبدوا) ليغطي الجانبين الديني والدنيوي.

- في الآية الثانية: الحديث على الملة، فقال: (ليعبدوا) وقال: (مخلصين) وقال: (حنفاء) وقال: (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..)

ثنائية رائعة، ومقصودة في القرآن الكريم.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٢١٢.

(٢) المفردات: ٦٢٩.

(٣) الكشاف: ٤/ ٢٧٥.

- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ .

[سورة النحل، الآية: ٣١]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ .

[سورة الكهف، الآية: ٣١]

لماذا قال في الأولى (مِن تَحْتِهَا) وفي الثانية(مِن تَحْتِهِمُ)؟

الجواب والله أعلم:

الضمير في الآية الأولى: يعود على الجنات، والحديث عن الجنات، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

[سورة النحل، الآية: ٣٠]

في الآية الثانية: الضمير يعود على الذين آمنوا، والحديث عن الذين آمنوا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ .

[سورة الكهف، الآية: ٣٠]

- ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ .

[سورة النحل، الآية: ٦٦]

﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ .

[سورة المؤمنون، الآية: ٢١]

لماذا قال في الآية الأولى (بُطُونِهِ) وفي الثانية (بُطُونِهَا)؟

الجواب والله أعلم:

جاء في الدرة: في آية النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، لأن الدّرّ لا يكون لجميعها، وأن اللبن لبعض إناثها.

في آية المؤمنون أخبر عن النعم التي في أصناف إناثها وذكورها[١].

في البرهان تكرر ما جاء في الدرة[٢].

وجاء في الكشاف: ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، ولذلك رجع الضمير إليه، مفرداً في بطونه[٣]،

---

(١) الدرة ١٤٦ ـ ١٥٠.

(٢) البرهان: ١١٤.

(٣) ينظر الكتاب: ٣/ ٢٣٠.

وأما في بطونها: فلأن معناه الجمع، ويجوز في أنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكسير نعيم، وثانيهما: أن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم(١).

ملاك التأويل قال: في الآية الأولى أراد الجنس، وعليه حمله تذكير الضمير، وورد في سورة المؤمنين على التأنيث والجمع(٢).

الدكتور فاضل السامرائي قرر وجود قاعدة في العربية تفيد بأن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة، بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة، كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ بتذكير الفعل، وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٤]

بتأنيث الفعل فالنسوة قلة والأعراب كثرة، وهذه قاعدة معروفة كما يقول(٣).

ولما كانت في الأمر قاعدة ثابتة معروفة فما علينا إلا أن نأخذ بهذا الرأي، ولا سيما وأن القائل بذلك الدكتور فاضل السامرائي، ومن قبله الخطيب الإسكافي رحمه اللَّه، ولكن هذا لا يضعف من رأي الغرناطي والزمخشري بل تؤيد ما ذهبوا إليه جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٦٧]

وهذا ينسجم أيضاً مع أسلوب القرآن في تلوينه وتقليبه للألفاظ بما يغطي الموضوع من جميع جوانبه، ويقدمه بصورة متكاملة.

- ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

[سورة الطور، الآية: ٢١]

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

[سورة المدّثر، الآية: ٣٨]

(١) الكشاف: ٢/٤١٦.
(٢) الملاك: ٢/٦١١.
(٣) التعبير القرآني: ١٦٠.

الضمير المذكر (هو) في الآية الأولى يعود على (امرئ) المذكر أيضاً، والضمير المتصل المؤنث (التاء) يعود على (نفس) المؤنثة، وقد أراد القرآن من وراء ذلك تغطية الأمر من كل جوانبه، من حيث الجنس، من حيث الزمن، ومن حيث الذكورة والأنوثة، والله أعلم.

رابعاً

الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم

- وردت في القرآن الكريم آيات متشابهات، فيها إفراد مرة، وتثنية مرة أخرى، وفيها إفراد وجمع، وفيها إفراد وتثنية وجمع، وفيها جمع قلة وجمع كثرة، فهل لهذا الاستعمال القرآني من نظام يضبطه وغاية تدرك أو القضية اعتباطية، هل للقرآن الكريم خصوصية في هذا الأمر أولا؟

سيظهر هذا الأمر من خلال دراستنا لهذه الآيات وهي:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٤]

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣١]

لماذا قال في الآية الأولى (خُلَّة) وفي الثانية (خلال)؟

الجواب والله أعلم:

- فسر الزمخشري الآية الأولى بقوله: (لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه، ولا خلة حتى يسامحكم أخلاؤكم به، وإن أردتم أن يحط عنكم ما بذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم[(١)].

وفسر في الآية الثانية بقوله: (أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالفة الله ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات).

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٨٤.

وجاء في لسان العرب: (الخلة كل نبات حلو، والعرب تضرب الخلة مثلاً للدعة والسعة، والخلة: الصداقة المختصة، والخلة الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله أي في باطنه).

وجاء فيه أيضاً: الخلل: بقية الطعام بين الأسنان، والخلة الآخرة من كراع، والخلال: البلح، وخلخل العظم: أخذ ما عليه من اللحم، والخلخال: من الحلى معروف، ما تلبسه المرأة.

ولو عدنا إلى سياق الآيتين في السورتين فماذا سنجد؟

الآية الأولى: سبقها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥١]

وجاء بعدها (ولا شفاعة) وجاء بعدها: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

فحديث عن إعانة الناس بعضهم لبعض ومساعدتهم ومؤازرتهم وردهم الظلم، وحديث عن الشفاعة وتوسط الإنسان لأخيه الإنسان وإعانته في محنته فقال: (خلة) وقصد بها الصداقة المختصة والمحبة.

أما الآية الثانية، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

[سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥]

وجاء بعدها قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٢]

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٤]

فالحديث هنا عن النعم وعن تعدد النعم وعن الأكل وعن الثمرات فقال: خلال بالجمع.

- ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦١]

﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾.

[سورة يوسف، الآية: ٤٦]

لماذا قال في الأولى (**سَنَابِلَ**) وفى الثانية (**سُنبُلاتٍ**)؟

الجواب والله أعلم:

الجموع في العربية على نوعين: جمع سالم وجمع تكسير، والجمع السالم بنوعيه يفيد القلة، والتكسير يفيد الكثرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦١]

وقوله: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة يوسف، الآية: ٤٦]

فأنت ترى أن العدد واحد (سَبْعَ) ولكن استعمل معه جمع الكثرة مرة وجمع القلة مرة أخرى، والسبب في ذلك أن الآية الأولى سيقت في مقام التكثير والمضاعفة فجيء بها على (سَنَابِلَ) لبيان التكثير، وأما قوله: (وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ) فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير[(١)].

- ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦٦]

---

(١) ينظر التفسير القيم ١٥٤ ـ ١٥٥، والبرهان للزركشي: ٤/ ٢٢، وملاك التأويل: ١/ ١٣٠، ومعترك الأقران: ٢٣٣، ومعاني الأبنية: ١٣٩، ودراسة المتشابه اللفظي: ٦٥، والتعبير القرآني: ٣٩.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۞ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

[سورة المؤمنون، الآيتان: ١٨ ـ ١٩]

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١]

لماذا قال في الآية الأولى والثانية: **(وَأَعْنَابٍ)** وفي الثالثة: **(وَعِنَبٍ)**

الجواب والله أعلم:

لو تتبعنا سياق الآيتين الأولى والثانية لوجدنا أن الأولى تتحدث عن تمني الإنسان أن تكون له جنة، هذه الجنة يتمنى أن يكون فيها نخيل كثير ومتنوع وأعناب كثيرة ومتنوعة وفواكه كثيرة ومتنوعة، منها يأكل ومنها يعصر ومنها يعطي ومنها يبيع، فدلت هنا على الكثرة والتنوع.

في الآية الثانية أيضاً الحديث عن قدرة الله، ما أنشأ للناس من جنات كثيرة ومن أشجار وثمار متنوعة وكثيرة من نخيل وأعناب، فدلت أيضاً على الكثرة والتنوع.

في الآية الثالثة: المسألة تختلف والقضية هنا فيها امتحان للرسول الكريم ﷺ فهم يريدون منه جنة فيها ينبوع وفيها عنب ونخيل، فهم يريدون هذا الصنف من الشجر فقط وليس المطلوب الكثرة ولا المطلوب التنوع، المهم أن يكون في هذه الجنة التي يريدون نخيل وعنب، فالقضية قضية امتحان وليس قضية رغبة في الأكل ولا شهوة لأنواع الثمار أو إرادة الرزق والكسب والفائدة.

فعندما تحدث القرآن عن الكثرة والتنوع قال: (أعناب) وعندما تحدث عن الصنف والجنس قال: (عنب) والله أعلم.

ـ ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٠]

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٧١]

لماذا قال في الأولى: (**مِنْ أنصارٍ**) وفي الثانية (**مِن نَّصِيرٍ**)؟

الجواب والله أعلم:

في الآية الأولى: حديث عن النفقات وعن النذر وعن الصدقات وهي كثيرة ومتعددة، كثرة أهلها وتعدد أشكالها وألوانهم وأزمنتهم وكذلك كثرة الذين لا يوفون بالنذر ولا ينفقون، وحاجة كل واحد منهم يوم القيامة من ينصره.

فلما كثرت النفقات وكثرت النذر، وكثر الظالمون وحاجتهم إلى الأنصار الكثر، قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

في الآية الثانية: أفرد الذي يعبدونه من دون الله، وأشار إليه الضمير الغائب المفرد (به) فنفى هذا الذي يعبد من دون الله نصيراً لهم، ونفى عنهم جنس النصير سواء أكان هذا الذي يعبدونه أم غيره، فقال: ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ نفياً واستغراقاً لجنس النصير، فأفرد ولم يجمع.

- ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٧٩]

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٩٣]

لماذا قال في الآية الأولى (رسالة) بالمفرد، وفي الثانية (رسالات) بالجمع؟

الجواب والله أعلم:

ذكر صاحب الدرة جوابين: الأول: أن تحذير صالح عليه السلام لقومه بعد أن أمرهم باتقاء الله وطاعته، هو أمر الناقة، والمنع من التعرض لها، فجعل الرسالة جملة ولم يفصل، فأفرد (الرسالة).

أما شعيب عليه السلام فنهاهم عن عبادة الأوثان وأمرهم بتقوى اللّه وطاعته، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

[سورة الأعراف، الآيتان: ٨٥ ـ ٨٦]

فالأشياء التي أمر بها شعيب قومه كثيرة فجمع (الرسالات).

الثاني: أن مدين غير أصحاب الأيكة وأن شعيباً بعث إلى أمتين، وأن العذاب ذاقوا منه ثلاثة أصناف الرجفة والظلة والصيحة.

صاحب الملاك حاول أن يجتهد ويأتي بجديد، ولكنه لم يبتعد عما جاء في الدرة ولم يقدم جديداً.

الدكتور فاضل السامرائي أخذ توجيه الدرة نفسه وأحال عليه وزاد تفصيلاً لمدين وأصحاب الأيكة، فمدين غير أصحاب الأيكة وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال (أخاهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل (أخاهم) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٨٥]

وقد ذكر القرآن جملة من الأنبياء في سورة الشعراء وكلهم قال فيهم (أخاهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٣ ـ ١٢٤]

وقال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٠ ـ ١٦١]

ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٧٦ ـ ١٧٧]

فقد ميز القرآن بين من أرسل إلى قومه، وبين من أرسل إلى غير قومه، ولذلك جمع مع شعيب فقال: (رسالات) وأفرد مع صالح، وقال: (رسالة).

- ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآية: ٩٧]

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ .

[سورة طه، الآية: ١٢٤]

لماذا قال في الأولى: (نحشرهم عمياً) وفي الثانية (نحشره أعمى)؟

والجواب والله أعلم:

في الأولى قال نحشرهم: لأن الخطاب موجه للناس جميعاً ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآية: ٨٩]

في الثانية قال نحشره: لأن الخطاب موجه لآدم عليه السلام، وللشيطان: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ .

[سورة طه، الآية: ١٢٣]

في الأولى قال: ﴿ عُمْيًا ﴾ ولم يقل: «عمياناً» لأن عمياً جمع أعمى، والعميان اسم لهذا الصنف من الناس وقد استعمل القرآن عمياناً لجمع القلة، ووردت مرة واحدة في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ٧٣]

في حين وردت (عمي) في سبعة مواطن في وصف أهل الكفر والضلال.

في الآية الأولى قال: على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، في الثانية قال: أعمى فقط؟ لأنهم في الآية الأولى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ

تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣]

فلما زادوا في طلباتهم التعجيزية وزادوا في تماديهم واستخفافهم، زاد اللّه في عقابهم، فقال: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآية: ٩٧]

وفي الثانية قال: (ومن أعرض)، وقال: (نسيتها) فقال أعمى فقط . . .

في الأولى قال: ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآيتان: ٩٧ ـ ٩٨]

فهناك كفر بآيات اللّه، وكفر بالبعث والحساب.

في الثانية قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ .

[سورة طه، الآية: ١٢٧]

إسراف وعدم إيمان. . فقال: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ولم يقل (جهنم) ولم يقل زدناهم سعيراً. . دقة متناهية وبناء قرآني محكم.

ـ ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ .

[سورة النازعات، الآية: ١٧]

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ .

[سورة طه، الآية: ٤٣]

لماذا قال في الآية الأولى ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ وفي الثانية﴿ ٱذْهَبَآ ﴾؟

الجواب واللّه أعلم:

في الآية الأولى الحديث عن موسى عليه السلام أو موجه إلى موسى وحده دون أخيه، قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ .

[سورة طه، الآية: ٩]

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ .

[سورة النازعات، الآية: ١٥]

وفي الآية الثانية: الصيغة اختلفت لأن موسى دعا ربه أن يجعل هارون وزيراً له: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾.

[سورة طه، الآيات: ٢٩ ـ ٣٢]

فاستجاب اللَّه دعاءه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

[سورة طه، الآية: ٣٦]

وقال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾.

[سورة طه، الآية: ٤٣]

اذهبا و(قولا)، (قالا) (وإننا) (لا تخافا) (معكما): ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾.

[سورة طه، الآيات: ٤٩ ـ ٥٢]

عندما هدأ روع موسى وتماسك وثبت قلبه وبدأ فرعون يحاوره، عاد إلى صيغة الفرد لأنه هو صاحب الرسالة، ولأن الأشياء التي يسأل عنها فرعون لا يعرفها هارون، لأن الآيات عند موسى، وعدا ذلك في كل المواقف تكلم موسى النبي وحده بلغة الإفراد إلا في هذا الموضوع تكلم بلغة الاثنين، لما يتطلبه هذا الموقف من المؤازرة والمؤاخاة والنصرة.

فالقرآن يفرد عندما يتطلب الأمر الإفراد، ويثني عندما يتطلب الأمر التثنية.

ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٦]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾.

[سورة الدخان، الآية: ٣٨]

الجواب واللَّه أعلم:

يذكر الدكتور فاضل السامرائي: أن كلمة السماء في العربية وفي القرآن لها استعمالان:

١ ـ بمعنى واحدة السماوات السبع، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٥]

وقوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ٦]

٢ ـ كل ما عدا الأرض ـ السحاب: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ المطر في القرآن: ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾.

[سورة نوح، الآية: ١١]

في كلام العرب: إذا نزل السماء بأرض قوم.. وهي السقف عند العرب، وفي القرآن: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٢]

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

وهي الفضاء: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ١٥]

لو عدنا إلى الآيات في السورتين فماذا نجد؟ في سورة الأنبياء سبقها قوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١]

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٤]

والقول يدل على السعة قياساً إلى السر وإلى الأحلام ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٥]

﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء: ٦]

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٧]

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآيات: ٩ ـ ١١]

كلها تتحدث عن السعة وعن العموم ولم تخصص أبداً، فناسبها قوله تعالى: ﴿وما خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٦]

وانظر إلى ما جاء بعدها ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٩]

فقد خصص (من) الخاصة بالعقلاء، وخصص أكثر فقال (من عنده) أي الملائكة، فناسب ذلك الجمع: (السماوات والأرض) ثم عاد في آخر السورة إلى التعميم فقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

فعندما تحدث عن الخلق كله قال السماء.

في سورة الدخان، الأمر مختلف فالحديث عن بني إسرائيل فقط وعن قصتهم مع فرعون وعن فتنتهم وكفرهم بالبعث والنشور وإهلاك اللّه لهم كما أهلك قوم تبع: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

[سورة الدخان، الآية: ٣٧]

فلما خصص قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.

[سورة الدخان، الآية: ٣٨]

ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٩]

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

[سورة المعارج، الآية: ٣٤]

لماذا قال في الأولى: (صلواتهم) وفي الثانية (صلاتهم)؟

الجواب والله أعلم:

وردت هذه المسألة في الدرة والبرهان والملاك.

جاء في الدرة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: محافظتهم ومراعاتهم لأوقاتها، وقيامهم بحقوقهم المفروضة قبلها والمفروضة عند افتتاحها، والمفروضة من جملة حدوثها إلى حين اختتامها وأضاف ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: الذين يؤدون الصلاة ويقيمونها ويديمونها ولم يفرق بين ـ صلاتهم ـ وصلواتهم[1].

وجاء في البرهان ـ خصت هذه السورة ـ ويقصد سورة المعارج بزيادة بيانها ـ كما خصت بإعادة ذكر الصلاة، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وقد همش المحقق عبد القادر عطا على ذلك بقوله: (لم يذكر) المؤلف علمه بتكرار في الصلاة، ولا الفرق بين (دائمون) و(يحافظون) وذلك أن ما في سورة المؤمنين بدأ بذكر الخشوع في الصلاة، ثم ذكر الصفات التي تعين على الخشوع وهي الإعراض عن اللغو وأداء الزكاة والعفة وحفظ الأمانة والعهد ومن حفظ تلك الخلال حافظ على الصلاة في وقتها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فجعل الإعادة من التكرار[2].

وجاء في الملاك: في المؤمنين ذكر الخشوع في الصلاة، فابتدأ بأجل خصالهم وهو خشوعهم في صلاتهم، المنبئ بعظيم خوفهم، وهو الذي لا يمكن معه فتور ولا تفريط في العبادة وأما المحافظة على الصلاة فهي مراعاة أوقاتها وكيفية أدائها وما تنطوي عليه من جميع مطلوباتها ومتعلقاتها وما تستلزمه وتتبعه حتى تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر.

وأما المداومة على الصلاة فهي عنوان تلقي الأوامر بالقبول والامتثال، عن يقين صادق، والصلاة الموصوفة تماماً خشوعاً فإنها ناهية عن الفحشاء والمنكر[3].

---

(١) ينظر الدرة: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) ينظر البرهان ١٨٨.

(٣) ينظر الملاك: ٢/ ٧٢٦ ـ ٧٣١.

ولأهمية المسألة فإننا سنحاول الوقوف عليها علنا نضيف شيئاً: فما هو الحفظ أولاً؟ الحفظ: الضبط والتفقد والتعهد والرعاية[(١)].

وما هو الخشوع؟ هو الضراعة، والخشوع يكون في الجوارح والضراعة في القلب، فقيل: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح[(٢)].

وما هو الدوام؟ أصل الدوام: السكون، ومن دام الشيء إذا امتد عليه الزمان، واستدمت الأمر: تأنيث فيه، والديمة: المطر يدوم أياماً[(٣)].

نعود إلى الآيات في السورتين للنظر ماذا قال في الصلاة والمصلين:

في سورة المؤمنون قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٢]

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٩]

صلاة خشوع، وصلوات حفظ.

في سورة المعارج، قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾.

[سورة المعارج، الآية: ٢٣]

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

[سورة المعارج، الآية: ٣٤]

صلاة وديمومة، وحفظ، ولم يقل صلواتهم.

فقال خاشعون: ليزكي جوارحهم وقلوبهم وأبصارهم، أجسامهم خاشعة، وأبصارهم خاشعة، وقلوبهم خاشعة، لا حركة في أيديهم ولا بأرجلهم، ولا زيغ في أبصارهم، ولا شرود في أذهانهم وعقولهم، ولا وسوسة في قلوبهم.

وقال دائمون: ليدل على استمراريتهم في الصلاة وتواصلهم معها في الليل وفي النهار، في الصيف وفي الشتاء، في الحر وفي البرد، لا يفرغون من صلاة إلا استعدوا للأخرى، لا يثنيهم عن ذلك شيء.

---

(١) المفردات: ١٧٨.

(٢) نفسه: ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) نفسه: ٢٥٢.

وقال يحافظون مرتين: أي يحافظون على مواعيدها، وعلى أدائها كاملة غير منقوصة، في حركاتها وسكناتها وركوعها وسجودها، دون سرقة منها أو إهمال أو تقصير، ويحافظون أيضاً على أنفسهم في الصلاة، حفظ متبادل.

وقال: ﴿ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فقصد محافظتهم على مجموع الصلوات، على أوقاتها وعلى شروطها، يصلون الفرائض والسنن والجمع والأعياد وكل أنواع الصلوات الأخرى، ويحافظون على صلاة الجماعة في المساجد، ويحرصون عليها في وقتها وفي صورتها، لا يقصرون الأوقات إلا في وقت القصر ولا يجمعون إلا وقت الجمع، دقة والتزام، وانضباط وحضور دائم واستعداد مستمر، بعلم ومعرفة وليس بجهل وتقليد أعمى.

وقال: يحافظون بالفعلية: حيث الحدوث والحركة، فهم دائمو المحافظة عليها في كل حركة وسكنة وفي كل وقت وحين، وقال: خاشعون ودائمون بالاسمية: حيث الثبات والدوام والاتصال والاستمرارية، فصلاتهم كاملة وصلواتهم تامة وهم خاشعون ودائمون ومحافظون.

ـ ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٣١]

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٤٢]

لماذا قال في الأولى (قرناً) وفي الثانية (قروناً)؟

الجواب واللّه أعلم:

القرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون[(١)].

جاء في الكشاف: (قرناً) هم عاد، قوم هود عليه السلام رأي ابن عباس رضي اللّه عنهما وتشهد له حكاية اللّه تعالى على لسان هو د﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ

(١) المفردات: ٦٠٥.

قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٦٩]

ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء[١] (قروناً): قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، بني إسرائيل أجلها الوقت الذي هو هلاكها[٢] وسواء كانوا قوم عاد أو قوم صالح أو قوم لوط أو غيرهم فليس هذا هو جواب سؤالنا، ويبقي السؤال قائماً، لماذا قال: (قرناً) مرة (وقروناً) مرة أخرى؟

وللإجابة عن ذلك نعود إلى الآيات التي تسبق كل آية:

فالآية الأولى سبقها قوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ٢٧]

فالحديث عن طوفان نوح وغرق قوم نوح وكل الكافرين الظالمين ولم ينج إلا من صعد في السفينة، ولذلك سمي نوح الأب الثاني للبشر بعد سيدنا آدم عليه السلام: فلم يكن لعهدهم إلا قرن واحد، فقال: (قرناً آخرين).

غير أن الناس تكاثروا وانتشروا وتوزعوا، فأصبح القرن قروناً، وأصبحت الأمة أمماً، ولذلك قال: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤]

فهذه صورة وهذه صورة من المثاني التي تكرر في القرآن، وهذه صورة من المشابه اللفظي في القرآن الكريم.

- ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٧٥]

﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾.

[سورة سبأ، الآية: ٣٧]

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣١. (٢) المصدر نفسه: ٣/ ٣٢.

﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية : ٢٠]

.. لماذا قال في الأولى (الغرفة) وفي الثانية (الغرفات) وفي الثالثة (غرف)؟

الجواب والله أعلم:

جاء في الكشاف: «المراد يجزون الغرفات ـ في قوله: أولئك يجزون الغرفة ـ وفي العلالي من الجنة، فوحد اقتصاراً على الجنس، والدليل على ذلك قوله: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾»[1] .

وجاء في التفسير الكبير: والمراد أولئك يجزون الغرفات، والدليل قوله: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ وقال: ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ والغرفة في اللغة: العلية، وكل بناء عال فهو غرفة، والمراد الدرجات العالية.

وقال المفسرون: الغرفة: الجنة، فالمعنى يجزون الجنات، هي جنات كثيرة، وقرأ بعضهم أولئك يجزون في الغرفة ولكن ذلك لا يجيب عن سؤالنا، وعليه لا بد لنا من العودة إلى آيات في السور علنا نجد الإجابة عن معنى أن غرف جمع كثرة، وغرفات: جمع قلة، وغرفة تعني واحدة مفردة، فمن أعطى كل واحدة:

في الزمر قال: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ .

[سورة الزمر، الآيتان: ١٥ ـ ١٦]

فقابل ذلك قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ * لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ .

[سورة الزمر، الآيات: ١٧ ـ ٢٠]

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٢.

- اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله، ويستمعون القول، واتقوا، هؤلاء لهم غرف من فوقها غرف.

- في سبأ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

[سورة سبأ، الآية: ٣٧]

- أمن وعمل صالحاً، لهم الضعف في الغرفات.

- في الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآيات: ٦٣ ـ ٧٥]

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الغرفات، والذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا واستمعوا واتقوا لهم غرف من فوقها غرف، فالذين فيهم كل هذه الصفات ماذا يكون لهم؟ وإذا كانت لهم الغرفة، فماذا تعني؟ أتعني الواحدة من الغرف؟ لا، وإنما تعني السعة المطلقة والمكانة الأرفع، فكأنما تعني السماء، السماوات كلها والفضاء كله والكون كله، وكما يعني النهر الأنهار كلها والضياء كله والنور كله، فكذلك تعني الغرفة الدرجات كلها والجنات كلها.

- ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾.

[سورة الصافات، الآيات: ٧٨، ١٠٨، ١٢٩]

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١١٩]

لماذا قال في الآية الأولى (عليه) وفي الثانية (عليهما) بالتثنية؟

الجواب والله أعلم:

الآيات التي وردت بالإفراد سبقها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ٧٥]

وقوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١٠٤]

وقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١٢٣]

فقال تعالى عن كل واحد منهم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ الآيات، لأن الحديث موجه إلى كل فرد منهم، فأفرد الآية الثانية التي وردت بالتثنية، سبقها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۞ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾.

[سورة الصافات، الآيات: ١١٤ ـ ١١٦]

فالحديث عن اثنين ـ موسى وهارون ـ مثنى، ولمحة فنية تظهر من خلال تلك الآيات، ففي التنجية، قال: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ فجعلهما طرفاً واحداً، وقومهما طرفاً آخر، فثنى.

أما في النصرة فقال: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ جمع، لماذا؟ لأنهم تناصروا جميعاً موسى عليه السلام انتصر بهارون، وهارون نصر وانتصر بموسى، وقومهما نصراهما وانتصروا بهما، وكل واحد قومهما نصر وانتصر، والله تعالى نصر الجميع، فكانت النصرة جماعية فجمع، بعدها عاد إلى التثنية فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١١٩]

ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآية: ٢٨]

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

[سورة المزّمّل، الآية: ٩]

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ .

[سورة الرحمن، الآية: ١٧]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ .

[سورة الزخرف، الآية: ٣٨]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ .

[سورة المعارج، الآية: ٤٠]

لماذا قال بالإفراد مرة وبالتثنية أخرى، وبالجمع ثالثة؟

الجواب والله أعلم: جاء في الكشاف[١]: «ثم خص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب منسوق.. وقرئ رب المشارق والمغارب» وفي الرحمن، قال «أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما» وفي المعارج، قال: «أقرئ برب المشرق والمغرب».

وجاء في المفردات: والمشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد: فإشارة إلى ناحيتي المشرق والمغرب، وإذا قيلا بلفظة التثنية: فأشار إلى مشرقي ومغربي، الشتاء والصيف، وإذ قيلا بلفظة الجمع فباعتبار مطلع كل يوم ومغربه، أو بمطلع كل فصل ومغربه أو لطلوع الشمس على كامل كواكب المجموعة الشمسية الأحد عشر وفي هذا تتعدد المشارق والمغارب[٢].

مصطفى محمود قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ ونحن نعرف أن أبعد نقطتين على الأرض هما ما بين المشرق والمغرب، ولكن هنا يقصد أقصى البعد وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا أن يكون مغرب الشمس هو في نفس الوقت مشرقاً لها في مكان آخر، وهذا أمر لا يكون إلا على أرض كروية تدور فتصبح بذلك كلمة (بعد المشرقين) على أنها أبعد نقطتين بالفعل، أبعد حتى مما بين المشرق والمغرب[٣].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٠ ـ ٤٨٩، ٤/ ٤٥ ـ ١٦٠ ـ ١٧٧.

(٢) المفردات: ٣٨٠.

(٣) القرآن في محاولة لفهم عصري: ١٦١، دار المعارف ١٩٧٦.

قال: «الظاهر في هذه الآية أن البعد بين المشرقين هو أطول مسافة محسوسة فلا بد أن يراد بها المسافة التي ما بين المشرق والمغرب، وأعني ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ليصح هذا التعبير.

خامساً

مشاهد بلاغية في الإفراد والجمع في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾.

[سورة طه، الآيتان: ٧٤ ـ ٧٥]

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

[سورة النساء، الآيتان: ١٣ ـ ١٤]

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

[سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٩]

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾.

[سورة الحاقة، الآيات: ١٩ ـ ٢٤]

مما نلحظ في هذه الآيات الكريمة بعد تدبرها إفراد الأسماء والضمائر في الحديث عن وصف عذاب أهل النار من الكفار والفجار والمجرمين، وجمعها في الحديث عن وصف ثواب أهل الجنة من المؤمنين المخبتين.

ولعل في هذا الإفراد إيماءً إلى طبيعة المشرك المجرم الذي تخلف عن ركب أهل الإيمان وانضم إلى ثلة أهل العصيان والإجرام، وفيه أيضاً رمز لأنانيته وأثرة هذا المجرم، حيث يريد أن يستأثر بكل منفعة، وأن ينفرد بها.

تأمل إفراد الضمائر في آيات سورة (طه) حيث يساق المجرم إلى ربه لحسابه محملاً بأوزاره، مثقلاً بآثامه، موسوماً ببراهين إجرامه تفتح له جهنم أبوابها فيدخلها، ثم توصد الأبواب خلفه، وكأن جهنم خلقت له وحده.. نستشف هذا من تقديم الجار والمجرور، وإفادته للقصر في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ فهو وحده فيها يعاني مرارة الوحدة ويقاسي آلام الحسرة، حيث لا أنيس معه، ولا جليس يتقاسم معه صنوف العذاب، وكان هذا العذاب جزاء وفاقاً لما اقترفته يداه في الدنيا، حيث تملكته الأنانية، وسيطرت عليه الأثرة واستولى عليه الجشع، وتخلف عن ركب أهل الإيمان، فانفرد بإجرامه وأنانيته، فكان جزاؤه في الآخرة من جنس عمله في الدنيا حيث ينفرد في عذابه، ويفصل عن أهل الخير وركب الإيمان، فواحدهم آثر الآخرين على نفسه، وأفاض بخيره على غيره، وذاب في الجماعة، فهو يزف إلى ربه في موكب مهيب ومشهد عظيم،وكان جزاؤه أن يحشر مع أحبائه من أهل الإيمان، فاجتمع له لذلك نعيمان، نعيم الجنة ونعيم الأنس مع إخوانه وأهل الطاعة فيها، تجد هذا المعنى في قوله سبحانه في سورة (طه) وفي السياق نفسه عند الحديث عن المجرم وجزائه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ تأمل العدول عن الإفراد في قوله: ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾إلى الجميع في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ حيث لم يقل مثلاً: فهذا له الدرجات العلى.. وعد إلى الآية الأولى لتتأمل النكتة التي أشرنا إليها، حيث قيل فيها: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ وفي الثانية قيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ إن المقابلة هنا ليست بين فرد وفرد بل بين فرد وجماعة، أو بين فرد وأمة، فإن المجرم في ميزان اللّه لا يساوي جناح بعوضة ولو كان يملك أموال الدنيا بأسرها،والمؤمن التقي النقي الصالح في ميزان اللّه تعالى وفي عين عباد اللّه الأتقياء يعدل أمة مجتمعة حتى ولو كان من أفقر عباد اللّه في الدنيا، ولتتأمل التعبير بالجمع الذي يشير إلى انخراط المؤمن الطائع في جماعة الإيمان وإنغماسه في أعمال الخير،وفيضه بالمنفعة والخير على إخوانه، تجد هذا المعنى في قوله: (قد عمل الصالحات).

وتأمل هذا المعني الذي قلناه في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

[سورة النساء، الآيتان: ١٣ ـ ١٤]

ففي الحديث عن ثواب المؤمنين الطائعين جمع (خالدين) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ وذلك ليجمع الطائع لذتين، لذة الخلود في الجنة ولذة أنس، وأفرد هذا الجمع في الحديث عن عتاب العاصين ليتجرع العاصي مرارة الانفراد، تأمل هذا في قوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وإلى المعنى السابق أشار أبو السعود في تعليقه على الآيتين بقوله: «ولعل إيثار الإفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظراً إلى المعنى، للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة»[1].

وتأمل الإفراد وهو يبرز معنى الوحشة والإحساس بها وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

[سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٩]

فذلك الكافر الفاجر الذي كان متمرداً على الإيمان، متعالياً على الانقياد لخالقه، ظناً منه أنه متفرد في الشرف والعزة والمنعة والسيادة ـ كما هو حال الجبابرة من أهل زماننا ـ ها هو ذا حبيس في جهنم، يتجرع أشد أنواع العذاب البدني والنفسي وحده، فكان جزاؤه من جنس عمله، ولنتأمل هذا الأمر العلوي: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وما فيه من إهانة واستخفاف وازدراء، ثم تأمل كيف عدل عن الإفراد إلى الجمع في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

[سورة الحاقة، الآيات: ١٩ ـ ٢٤]

كان السياق أن يقال: «كل واشرب هنيئاً بما أسلفت..» ولكن النظم في

---

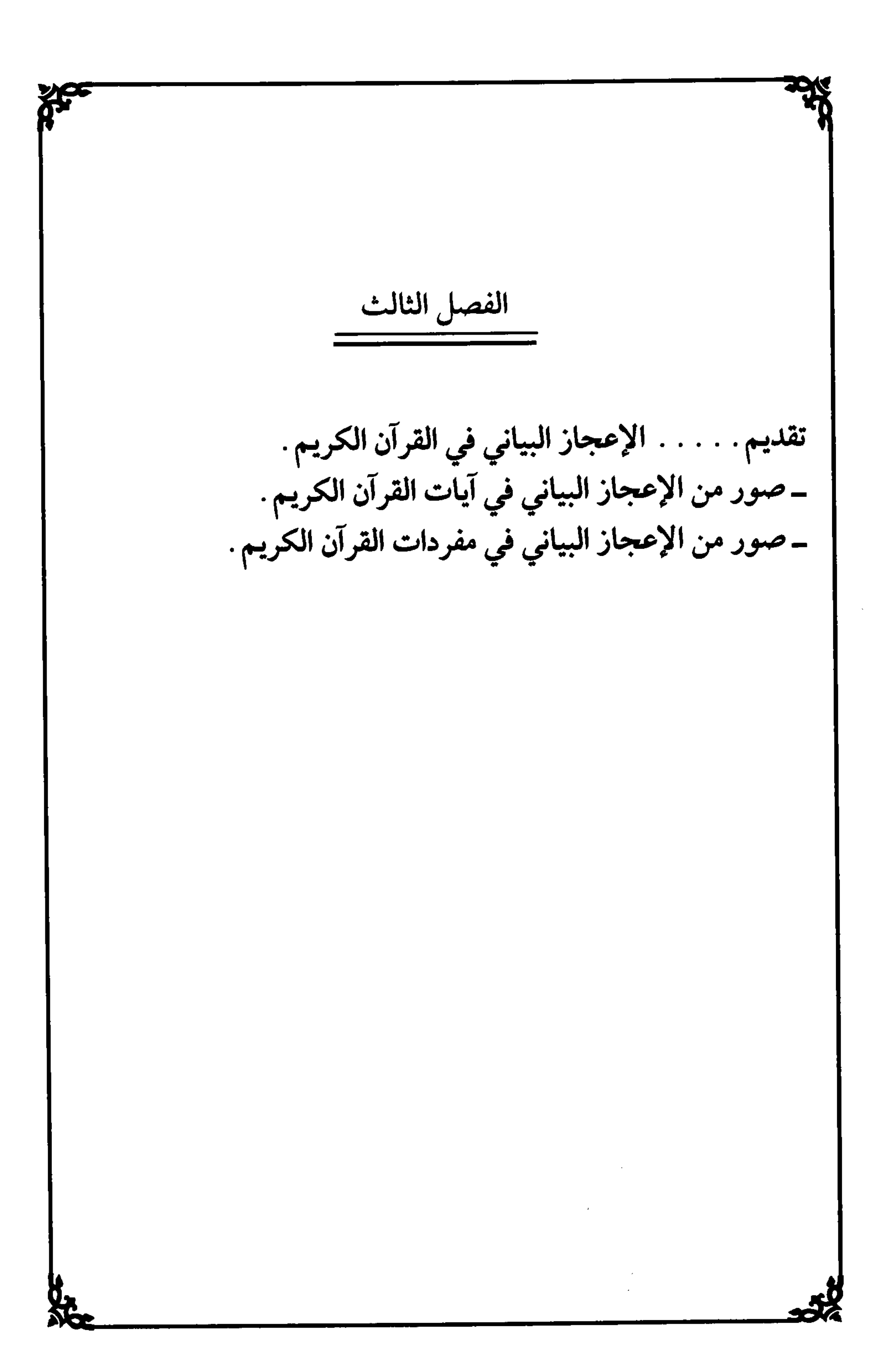
(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ١٥٤.

القرآن الكريم عدل عن هذا الإفراد إلى الجمع في التمتع بالأكل والشرب في الجنة إدخالاً للسعادة والأنس والراحة في نفس المؤمن الذي لم ينفرد يوماً بخير، ولم يستأثر بمصلحة في دنياه، بل كان مثل النبع الفياض يفيض بالخير على من حوله، لذا كان جزاؤه من جنس عمله أيضاً، حيث كافأه ربه بالفوز العظيم، والخير العميم عليه وعلى إخوانه من قافلة الإيمان والطاعة الذين أحبهم في الدنيا وأحبوه، وتأثر بهم وأثر فيهم، ومن ثم كان الأمر العلوي ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ قابل هذا الأمر وما فيه من تكريم بالخطاب الرباني بصيغة الجمع والإقبال على المؤمن المطيع بين الخطاب الإلٰهي بصيغة الإفراد في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

فيا أهل الباطل والطغيان والفساد في الأرض تمتعوا قليلاً فإنكم عائدون إلى ربكم بلا أموال ولا أسلحة ولا جاه ولا سلطان ولا حراسة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.
[سورة الأنعام، الآية: ٩٤][١]

---

(١) د. عادل أحمد الرويني ـ جامعة الأزهر.



الفصل الثالث

تقديم . . . . . الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

ـ صور من الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم .

ـ صور من الإعجاز البياني في مفردات القرآن الكريم .



تقديم

الإعجاز البياني:

أربعة عشر قرناً من الزمان.. والقرآن موضع البحث والفحص والاختبار..يبحث فيه أهله.. ويدرسه ويتدارسه قومه حتى يقفوا على بعض ما فيه من أسرار.. ويدقق فيه الخصوم ويفحصه الأعداء لعلهم يجدون فيه شبهة أو مطعناً يهاجمه بها أساطينهم من الأشرار.. بل قد درس كثير من غير العرب اللغة العربية حتى يتمكنوا من النبوغ فيها.. والقدرة عليها..حتى يمكنهم التعرف إلى القرآن الكريم، فلم يجد أي دارس أو باحث.. أياً كان الدارس والباحث.. إلا ما يفوق كل تخيل ويسمو على كل اعتبار.

فمنذ أول الوحي به.. حاول العلماء والفصحاء من أهل اللغة ومن البلغاء صياغة ولو ما يشبه الآية الواحدة.. فإنه من حروف كلامهم ومن ألفاظ لسانهم.. ولكنه ليس بشعر ولا بنثر.. بل ليس مما تستطيعه الأقلام.. إنهم فشلوا فتأملوا أمرهم فتعجبوا.. وتدبروا حالهم.. فعجبوا.. لقد جمعوا.. واجتمعوا.. ثم إنهم سلموا.. وأسلموا..

لقد وجدوا أن آياته إذا أوضحت بإسهاب فبلا إملال، وإذا أوجزت فبلا إخلال..إذا أفردت القول كان جميلاً إذ يذكر، وإذا كررت كان بديعاً حيث يكرر.

أقروا بأنه معجزة فوق البديع والبيان..وفوق ما يعرف الإنسان من روائع فصاحة وبلاغة اللسان، ولذلك فقد أفردوا له في تقسيم اللغة مكاناً شعر.. ونثر.. وقرآن.. فقد أدهشهم كل ما درسوه فيه.. أسلوبه.. ونظمه.. تراكيبه.. وتوافيقه.. فواصله.. وإشاراته.. في تفصيله وفي إيجازه.. في إسهابه وفي بيانه.. بل حتى في لفظ اسمه القرآن، وقفوا أمامه خاشعين.. معترفين.. أنه لفظ لم يستعمل فيما قبل.. وما أطلق على شيء

فيما بعد.. لفظ لا سواه يعدله.. ولا غيره يدل عليه.. إنه لفظ.. كما جاء فيه.. جمع فأوعى..

لقد عد العلماء والبلغاء في الآية الواحدة.. أكثر من عدد كلماتها من ألوان البلاغة.. وصور البيان.. فمثلاً الآية الشريفة: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[سورة هود، الآية: ٤٤]

نجد أن عدد كلماتها سبع عشرة كلمة.. أوضح العلماء فيها عشرين لوناً من ألوان البلاغة: المناسبة في لفظي أقلعي وابلعي.. والمجاز في يا سماء.. إذ الحقيقة هي مطر السماء.. والمطابقة اللفظية في السماء والأرض.. والإشارة في غيض الماء حيث لا يغيض الماء إلا بعد أن ينقطع المطر من السماء.. وتبلع الأرض ما عليها من ماء.. والإرداف في واستوت على الجودي.. حيث تشير إلى استمرار السفينة.. بلا اهتزاز أو ميل.. بعد أن بلعت الأرض الماء وانقطع المطر من السماء.. وتوافر لها ما تستقر عليه في هدوء واطمئنان.. وقضي الأمر الذي يحمل أكثر من لون ووجه من الإعجاز.. ففيه بيان هلاك الكافرين.. ونجاة المؤمنين.. والاحتراس في قوله: وقيل بعداً للقوم الظالمين.. حتى لا يتوهم أحد أن الهلاك قد يصيب كل من عاصروه.. فحددت الألفاظ أن الهلاك إنما هو على الظالمين.. وجدوا فيها المساواة.. فاللفظ لا يحتمل سوى معناه، والترتيب بحسب التتابع الزمني.. والعطف لبيان هذا الترتيب.. والإيجاز.. فهذه الكلمات السبع عشرة تضمنت وقائع عديدة.. وقصة طويلة استمرت وقائعها أياماً كثيرة.. في الآية.. التسهيم إذ يقتضي أول الآية آخرها حتماً ويقيناً.. والتهذيب لأن الألفاظ سهلة مخارج الحروف.. فصيحة كاملة الفصاحة.. خالية من البشاعة.. وتركيبها سليم من التعقيد وأسبابه حسنة البيان واضحة التبيان فلا يتوقف أي إنسان عن فهم مقصود الكلمة.. وجدوا فيها التمكين فالفاصلة مستقرة في قرارها.. سليمة في اللفظ.. وكل دراسة متأنية تكشف المزيد على العشرين لوناً التي قال بها العلماء.

وإن كان هذا ما وجده علم اللغة من البلاغة والفصاحة والبيان في آية واحدة.. فقد وجد العلماء في نصف آية.. عجباً وأي عجب..

فالآية الشريفة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ١٧٩]

إنها آية تتكون من ثماني كلمات.. نصفها الأول الذي يتكون من أربع كلمات هو : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ والمعنى واضح وظاهر.. وهو أن فيما أمر اللّه به من القصاص.. حياة للناس.. وعلى ذلك فإن الأمر لا بد أن يكون يسيراً على علماء اللغة.. وأرباب الكلام.. وحملة الأقلام أن يأتوا بمثل هذا النص.. يحمل نفس المعنى في غير ما ورد في القرآن.. وحاولوا.. وخرجوا بأقوال منها:

(قتل البعض إحياء للجميع) فوجدوا فيه نصاً غير مقبول.. ومعنى غير معقول.

ثم قالوا: (أكثروا القتل ليقل القتل) ووجدوا عليه لجاجة.. وفيه سخافة.. وتفاهة.

وجاؤوا بخير ما عندهم.. وأفضل ما تفتق عنه اجتهادهم وهو : (القتل أنفى للقتل).

واعترفوا وهم يقولون به.. أن لفظ القرآن أفصح وأفضل وأعظم من لفظهم بأمور عديدة وأسباب كثيرة.. فلفظ القرآن أخصر وأشمل.. إذ أورد لفظ ولكم.. إشارة للجميع وهو ما لم يردها لفظهم.. وأن قولهم يبين أن الشيء سبب لانتفاء نفسه.. بخلاف لفظ القرآن فإنه يوضح أن نوعاً من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة.. وأن في قولهم تكرر القتل.. ولم يتكرر في لفظ القرآن.. وأن لفظهم لا يفيد إلا الردع عن القتل ولكن لفظ القرآن يفيد الردع عن القتل والجرح وغيرهما وهذا هو الأفيد والأعم والأشمل.. وكذلك فإن في قولهم ما يدل على ما هو مطلوب بالتبع.. بخلاف قول القرآن فإنه يدل على ما هو مقصود بالأصل لأن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث أنه يتضمن حصول الحياة الذي هو مطلوب أصلاً.. وأيضاً أن القتل ظلماً أيضاً قتل مع أنه ليس بناف للقتل بخلاف القصاص فقولهم باطل.. وقول القرآن حق.. هذا بخلاف الفصاحة والبيان.. والروعة والبلاغة والإتقان.. التي تظهر واضحة في لفظ القرآن ولا تظهر بتاتاً

ولا على أي صورة أو قدر لفظ الناس فقد اشتمل لفظ القرآن على المعنيين المتقابلين وهما القصاص والحياة.

ومما قرره العلماء.. وأوضحه البلغاء أن القرآن في أغلب المواضيع يأتي بلفظ يسير ليتضمن لمعنى كثير وأن اللفظ قد يشير إلى عدة أمور مستترة البحث عنها يجليها والوقوف عليها يؤكدها.. فالآية الشريفة: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ١٦]

أستغفر اللّه أن يظن أي إنسان أن الأمر بالفسق هو من اللّه سبحانه وتعالى.. حاشا وكلا جل وعلا.. لذلك فقد قرأ بعضهم أمرنا بتشديد الميم، أي أن اللّه سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهلك قرية جعل من يتولون أمرها هم أصحاب الترف فيها وهؤلاء إذا ولوا الأمر فسقوا فيها.. وهذا حق.. وصدق.

وقال بعضهم: بل أمرنا أي أكثرناهم عدداً، فإذا زاد عدد المترفين في قرية زاد الفسق فيها، ولكن لو تدبرنا الآية في صور بعض ما تضمنه القرآن من ألوان البلاغة العديدة والمتعددة ومنها حذف المعلوم لتظهر بعض روائع البلاغة والبيان.. لوجدنا أن الآية تشير إلى أن اللّه سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهلك قرية أمر مترفيها بما يأمر به عادة ودائماً، الناس كافة وعامة.. وولاة الأمور خاصة فالقرآن يشير إلى ما يأمر به اللّه سبحانه وتعالى في مثل النصوص الشريفة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٠]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٥٨]

ويؤكد الحقيقة القاطعة.. والإشراقة الساطعة أن اللّه سبحانه وتعالى لا يأمر بفحش أو فسق فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٢٨]

وإنما هو الشيطان الذي يأمر بذلك فيقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦٨]

ويؤكد ذلك في قوله الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ١٦٨ ـ ١٦٩]

إلا أن المترفين وقد ولوا أمور القرية لا يستجيبون لما يأمر به اللّه وإنما استجابوا لما تأمرهم به شياطينهم ففسقوا.. فحق القول عليها فدمرها اللّه تدميراً.

لقد توقف الشعراء والفصحاء أمام كل آية من آيات القرآن يجد فيها الواحد منهم العديد من صور البلاغة والفصاحة والبيان، وحسبما تتكشف له بقدر علمه ومعرفته، فهذا الأصمعي يحكي ويقول: إنه سمع جارية تتكلم بعبارة فصيحة وإشارة بليغة وهي تقول: أستغفر اللّه من ذنوبي كلها في خماسية أو سداسية شعرية، فقال لها: مم تستغفرين ولم يجر عليك قلم؟ فقالت (أستغفر اللّه لذنبي كله.. قتلت إنساناً بغير حله.. مثل غزال ناعم في دله.. انتصف الليل ولم أحله) فقال لها.. قاتلك اللّه ما أفصحك.. فقالت له: أو بعد هذا فصاحة بعد قول اللّه تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

[سورة القصص، الآية: ٧]

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين.. وخبرين وبشارتين.

إن كل كلمة في القرآن الكريم.. جاءت في مكانها تحديداً وقطعاً ويقيناً.. لا يمكن أن تقوم غيرها مكانها، ولا تؤدي معناها.. وقد عرف العلماء والبلغاء والفصحاء بل عامة العرب كلهم ذلك في القرآن الكريم فآمنوا به.. فحين نزلت الآية الشريفة: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٨]

حفظها من الصحابة من حفظها.. وكتبها على ألواح العظام أو جريد النخل من كتبها.. ومنهم من كان يرددها في غدوه ورواحه حتى يتثبت من حفظها.. وحدث أن كان أحد الصحابة يكرر هذه الآية ونسي **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِما جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكالاً مِنَ اللهِ وَاللّهُ غفورٌ رحيم﴾**.. وكان أعرابي ماراً بالطريق فأنصت وسمع فقال: يا صاحب رسول اللّه، صحيح ما تقول.. إن اللّه سبحانه وتعالى عز فحكم فأمر بالقطع، ولو أنه غفر ورحم لما أمر بالقطع.. فتكون الآية ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

[سورة المائدة، الآية:٣٨]

وإذا تدبرنا الآية الشريفة: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾.

[سورة القصص، الآية: ٢٥]

فإننا نجد أن الآية تشير إلى أن المرأة جاءت سيدنا موسى عليه السلام تمشي على استحياء.. وهذه طبيعة المرأة وهي تمشي في الطريق.. كما أنها قد تشير إلى أن المرأة جاءت تمشي ولكن على استحياء كلمت موسى وقالت: يا موسى.. لو أن طبيعة المرأة الاستحياء وهي تمشي.. فإن الاستحياء أوجب وألزم لها وعليها عندما تتحدث مع رجل غريب عنها، ولا يرتبط بها، وكذلك قد تشير إلى استحياء المرأة وهي تمشي.. وأيضاً وهي تتكلم مع الغريب.

إن الحديث عن بلاغة القرآن وفصاحته.. عن بيانه وبديعه.. عن تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب.. عن مطالعه ومقاطعه.. عن فصله ووصله، في الترغيب والترهيب، في الوعد والوعيد.. في الأمر والنهي.. بل في كل لفظ جاء به، إنما هو أمر قد بدأ منذ نزلت أول آية.. واستمر حتى الآن.. وسيظل إلى آخر الزمان.. ففي كل يوم.. ومن كل دراسة متخصصة.. تتزايد أوجه إعجازه البياني وتتوالى وتتضاعف.. وستظل تتابع وتترادف.. فهل صور إعجازه البياني هي بعدد آياته؟ لقد وجدنا في الآية الواحدة أكثر من وجه.. حتى العشرين لوناً.. فهل هي بعدد ألفاظه؟.. أستغفر اللّه.. أن يشملها حصر.. ويحيطها القد.. فإنها أكثر وأكثر.

إن إعجاز القرآن البياني.. متعدد.. متجدد.

صور من الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم

- الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٦١]

- اللَّه تعالى سمى الشمس سراجاً لأنها تجمع إلى النور الحرارة، وسمى القمر «منيراً» لأنه يبعث بضياء دون الحرارة وهذا المعنى الصحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة.

- من خصائص الأسلوب القرآني الإيجاز وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة تؤدي الغرض من غير إخلال بالمعنى، ما هي الآية التي تدل على الإعجاز البياني للقرآن المتمثل في الإيجاز؟

- الحذف في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾.

[سورة يوسف، الآية: ٨٢]

فإن الآية تشير إلى شيوع القول في أهل القرية، وأن القرية كلها تكلمت في ذلك.

- الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ٣١]

- إيجاز الحذف وهو حذف الجواب كأنه قيل: لكان هذا القرآن كذا وكذا، والحذف هنا بلغ من الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان.

- الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧٩]

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ يفوق ما استحسنه العرب في قولهم: «القتل أنفى للقتل» من أربعة أوجه:

الأول: الآية أكثر فائدة، ففيها من المعاني والفوائد ما في قولهم: «القتل أنفى للقتل» وزيادة المعاني الحسية التالية:

أ ـ إبانة العدل بذكر «القصاص» وأن القتل ليس تشفياً من المقتول.

ب ـ الترغيب في القصاص بذكر الحياة وجعلها نتيجة له.

ج ـ القصاص يشمل النفس والأعضاء بخلاف لفظ القتل فإنه قاصر على النفس.

الثاني: الآية أوجز عبارة فإن قوله تعالى: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يتكون من عشرة أحرف، أما قولهم: القتل أنفى للقتل فيتكون من أربعة عشر حرفاً.

الثالث: الآية لا تكرار فيها بخلاف كلمة العرب ففيها تكرار لفظ «القتل».

الرابع: الآية أحسن تأليفاً لملاءمة حروفها بعضها بعضاً.

ـ من أساليب الإعجاز البياني في القرآن «التكرار» فما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟

[سورة التكاثر، الآيتان: ٣ ـ ٤]

ـ تقرير المعنى وتوكيد سياق الآية في الوعيد والتهديد.

ـ ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟

[سورة الحاقة، الآيتان: ١ ـ ٢]

و﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟

[سورة القارعة، الآيتان: ١ ـ ٢]

ـ تقرير المعنى وتوكيده، فالآيات مسوقة في مقام التعظيم والتهويل.

ـ ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؟

[سورة القمر، الآية: ١٦]

ـ تقرير المعنى وتوكيده، فالآيات مسوقة في مقام الاتعاظ.

ـ ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾؟

[سورة الواقعة، الآية: ٦٣]

- تأكيد المعنى، فالآية مسوقة في مقام إنعام اللّه على عباده وبيان قدرته.

- ما فائدة تكرار قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

[سورة الرحمن، الآية: ٢٨]

.. إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن؟

- تكررت هذه الآية ثماني مرات عقب تعداد عجائب خلق اللّه وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم فناسب ذكر «الآلاء» عقيب كل ذلك، ثم تلتها سبع آيات في ذكر النار وأهوال يوم القيامة، فحسن ذكر الآلاء عقيبها لأن في صرف المؤمن عن عذاب النار أكبر نعمة، وبعد هذه السبع ثماني آيات في وصف الجنتين وأهلهما ونعيمهم فيهما فحسن أن يذكر عقيبها نعم اللّه على المؤمنين أن وفقوا للعمل الصالح فاستحقوا الجنتين، ثم بعد ذلك ثماني آيات للجنتين اللتين دونهما ومن استحقهما بتوفيق اللّه ناسب ذكر نعمة اللّه عليه.

- ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

[سورة الفجر، الآيات: ١ ـ ٥]

- إن هذه الكلمات القرآنية قد سيقت في موقعها المناسب لتؤدي المعنى المراد وتتلاءم من الناحية اللفظية والمعنوية مع ما قبلها وما بعدها، فلو استبدلت كلمة «الفجر» بكلمة الصبح، أو كلمة «الوتر» بكلمة الفرد، أو كلمة «الحجر» بكلمة العقل لاختل حسن نظم الكلمات، وتأمل أيضاً كلمة «يسر» تجد أن الياء حذفت منها للانسجام مع كلمة الفجر، عشر، الوتر، الحجر.

- ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

[سورة مريم، الآية: ٤]

- لو تقدمت كلمة «مني» على كلمة «العظم» لاختل النظم في الآيات التي قبلها وهي ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

[سورة مريم، الآية: ٣]

كذلك لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر.

- ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾؟

[سورة الأحقاف، الآية: ١٣]

- إن هذه الآية القرآنية مسوقة في موقعها المناسب بحيث تعطي بمدلولها ما تلقيه من ظلال المعنى المراد بكماله وتمامه مع ما فيه من إيحاءات حيث جمعت هذه الآية الآيتان بالخير كله والبعد عن الشر كله.

- ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾.

[سورة الواقعة، الآية: ٧٣]

إلى ماذا يعود الضمير في كلمة «جعلناها» وما الإعجاز البياني في هذه الآية؟

- يعود إلى النار، ولو أردنا مثلاً بيان فوائد النار في حياة الناس نقول: إنها مما نحتاج إليها في الحضر والسفر وفي طهي الطعام عند الجوع ثم ننعم بدفئها في برد الشتاء القارس وكل هذه المعاني دلت عليها كلمة «المقوين» في الآية.

- ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ ﴾؟

[سورة البقرة، الآية: ١٩٦]

- استعمال كلمة «كاملة» أبلغ من استعمال كلمة «تامة» لأن التمام علم من العدد إنما جاءت كلمة «كاملة» لنفي احتمال نقص في الصفات.

- ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾؟

[سورة القمر، الآية: ٥٥]

- استعمال القعود في قوله تعالى «مقعد» إشارة إلى أنه لا زوال في زمن يسير كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ ﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ١١]

- ما الأعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾؟

[سورة القمر، الآية: ٣٦]

ـ لو أخذنا كلمة «النذر» منفصلة عما قبلها في الآية لوجدنا ثقلاً في توالي الضمة على النون والذال معاً، لكن الكلمة جاءت في القرآن متلائمة تماماً مع السياق، يقول الرافعي: «تأمل مواضع القلقلة في دال «لقد» وفي الطاء من «**بَطْشَتَنَا**» وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا» فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تجفو عليه، ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

ـ ما الإعجاز في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾؟

[سورة النجم، الآية: ٢٢]

ـ كلمة «**ضِيزَى**» تعني جائرة أو ظالمة، وقد عدل سبحانه وتعالى عن الكلمات المألوفة إلى كلمات غير مألوفة ككلمة «**ضِيزَى**» وتظهر حكمة إدخال مثل هذه الفاصلة الغريبة من وجهين:

١ ـ من جهة حسن النظم والتناسق فإن سورة النجم تنتهي فواصلها بالألف المقصورة فناسب أن تكون الفاصلة كلمة «**ضِيزَى**» لا كلمة «جائرة» أو «ظالمة».

٢ ـ أن نسبة النبات إلى الله ونسبة الأولاد إليهم أمر في أشد الغرابة فناسب أن يعبر عنه بلفظ غريب تنبيهاً على غرابة القسمة.

ـ ما الإعجاز البياني في تخصيص قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾؟

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٤]

.. بوصف المنعم عليه، وتخصيص آية النحل بوصف المنعم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾؟

[سورة النحل، الآية: ١٨]

- إن سياق الآية في سورة إبراهيم عليه السلام في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكره عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسبقت في وصف اللّٰه تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته فناسب ذلك ذكر وصفه سبحانه.

- لماذا يغلب على القرآن استعماله للفعل (ينفق) بالصيغة الفعلية في معظم الآيات؟

- لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٤]

فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لأن الإنفاق أمر يتجدد، ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٧]

.. . وهو سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

- التسبيح لم يرد بالصيغة الوصفية في القرآن إلا في آيتين.. ما هما؟

- إحداهما في وصف نبي اللّٰه يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١٤٣]

.. والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يونس عليه السلام إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسبيح.

الثانية في وصف الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ١٦٦]

.. أي هذه صفتهم الثابتة.

- ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦١]

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾.

[سورة يوسف، الآية: ٤٣]

فما الفرق بين (سنابل) في الآية الأولى و(سنبلات) في الثانية؟

ـ «سنابل» جمع كثرة «وسنبلات» جمع قلة وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور، فجيء بها على «سنابل» لبيان التكثير، أما قوله: «سبع سنبلات» فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير.

ـ تستعمل (السماء) في القرآن الكريم على معنيين ما هما؟

ـ إما أن تكون واحدة في السماوات كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٥]

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره، قال تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾.

[سورة نوح، الآية: ١١]

ـ ما معنى (السماء) في الآيتين التاليتين:

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾.

[سورة نوح، الآية: ١١]

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٧]

ـ في آية نوح تعني (المطر)، وآية الرعد تعني (السحاب).

ـ قال تعالى في قصة صالح: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٧٩]

وقال في قصة شعيب: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٩٣]

لماذا أفرد (الرسالة) مع صالح عليه السلام وجمعها مع شعيب عليه السلام فقال: (رسالات)؟

ـ ذلك أن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وصالحاً عليه السلام بعث إلى أمة واحدة إضافة إلى أن ما ذكره شعيب عليه السلام من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح عليه السلام.

ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٨٥]

.. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٧٦ ـ ١٧٧]

لماذا ذكر اللّه تعالى في الآية الأولى (أخاهم) في مدين ولم يذكرها مع أصحاب الأيكة؟

ـ لأن شعيباً عليه السلام كان من مدين، ولم يكن من أصحاب الأيكة، ولذلك إذا ذكر مدين قال (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل (أخوهم).

ـ ما الإعجاز البياني الذي نستشفه من هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؟

[سورة عبس، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢]

ـ إنه سبحانه وتعالى جاء في (أقبره) بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة، وجاء بعده بـ (ثم) لأن النشور يتأخر عن الدفن.

ـ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٦١]

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١١٢]

لم عرف (الحق) في الآية الأولى ونكره في الثانية؟

ـ ذلك أن كلمة (الحق) المعرفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم، أما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل لا غيره، أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم، فكلمة (حق) في آية آل عمران

نكرة عامة، وكلمة (الحق) في آية البقرة معرفة معلومة، والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف.

ـ ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ١٣]

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٤١]

لم قال تعالى في الآية الأولى (عن مواضعه) وفي الثانية (من بعد مواضعه)؟

ـ ذلك لأن الكلام في الآية الأولى على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ والذين يحرفونها بعد أن وضعها اللّه مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً.

ـ ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٥]

ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٣٩]

ما الفرق بين (هامدة) في آية الحج و(خاشعة) في آية فصلت؟

ـ إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، أما الجو في السياق الثاني فهو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها (خاشعة) فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود.

ـ ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٨]

لم تقدم ذكر (السارق) على (السارقة) في الآية؟

ـ لأن السرقة في الذكور أكثر.

- ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٢]

لم تقدم ذكر (الزانية) على ذكر (الزاني) في الآية؟

- لأن الزنى فيهن أكثر، ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام».

- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ١٥١]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ .

[سورة الإسراء، الآية: ٣١]

لم تقدم ذكر رزق الآباء في آية الأنعام على الأبناء؟ وفي آية الإسراء تقدم ذكر رزق الأبناء على الآباء؟

- ذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق تكميل العدة برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنون ما خافوا من الفقر، فقال: لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم أي أن اللّه جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

- ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

[سورة العنكبوت، الآية: ٢٢]

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

[سورة الشورى، الآية: ٣١]

ما الحكمة البلاغية من زيادة (ولا في السماء) في الآية الأولى دون الثانية.

- ذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسلها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ * وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

[سورة الشورى، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١]

فلما كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء، ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

- ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٦]

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٤٣]

ما الحكمة البلاغية من زيادة (منه) في آية المائدة، دون آية النساء؟

- ذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً، فلما فصل وبين في آية المائدة زاد في ذكر الأحكام زاد الجار والمجرور (منه) للزيادة في التبيين.

- ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٧٨]

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

[سورة هود، الآية: ٦٧]

لماذا لما ذكرت (الرجفة) وهي الزلزلة الشديدة وَحَّدَ الدار، وحيث ذكرت (الصيحة) جمع الدار؟

- ذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة (فالرجفة) تختص بجزء من الأرض، أما (الصيحة) فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وحد مع (الرجفة) وجمع مع (الصيحة).

- ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٠ ـ ١٠١]

لم جمع (الشافع) ووحد (الصديق) في الآية السابقة؟

- ذلك لكثرة الشفعاء في العادة وقله الصديق، ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء وبخاصة أنه وصف (الصديق) بأنه حميم فإن ذلك أندر.

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

[سورة الفاتحة، الآيتان: ٥ ـ ٦]

لم تقدم المفعول به (إياك) على فعل (العبادة) وعلى فعل (الاستعانة) دون فعل (الهداية) في الآية السابقة؟

- سبب ذلك أن (العبادة) و(الاستعانة) مختصان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به، ولم يقدم مفعول (الهداية) على فعله فلم يقل (إيانا اهد) كما قال (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن نقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري، أو خصني بالهداية من دون الناس.

- ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

[سورة الملك، الآية: ٢٩]

لم تقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وتأخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) في الآية السابقة؟

- ذلك لأن الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه.

ـ لم تقدم ذكر (الجن) على (الإنس) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟

[سورة الذاريات، الآية: ٥٦]

ـ لأن خلق الجن أقدم من خلق الإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾؟

[سورة الحجر، الآية: ٢٧]

ـ لم تقدم ذكر (السِّنَة) على النوم في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؟

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

ـ لأن السنة وهي النعاس تسبق النوم فبدأ بالسنة قبل النوم.

ـ لم تقدم ذكر (عاد) على (ثمود) في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؟

[سورة العنكبوت، الآية: ٣٨]

ـ لأن عاداً أسبق من ثمود في الوجود.

ـ لم تقدم ذكر (الليل) على (النهار) و(الشمس) على (القمر) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؟

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٣]

ـ قدم الليل لأنه أسبق من النهار، وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود.

ـ على ماذا يجيء معنى قوله تعالى: (من مثله) في جميع القرآن؟

ـ يجيء بمعنى التماثل في الصفة، لا في العدد، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢]

فالمقصود بقوله سبحانه: ﴿يَرْكَبُونَ﴾ هو حيوانات الركوب كالجمال، والحمير، ووجه التماثل هنا بين هذه وبين الفلك المشحون هو أنهما مركوبان فالتماثل هنا هو في النوع، لا في العدد.

ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١]

. . . ما سبب ذكر (الظلمات) بصورة الجمع، وذكر (النور) بصفة المفرد؟

ـ لو جاءت الآية على ذكر (الظلمات والأنوار) لدلت على وجود مصادر عديدة للضوء في المنظومة الشمسية، أي وجود شموس عديدة، وهو ما يغاير الواقع، وبينما الشمس هي مصدر للضوء إلا أنها ليست مصدراً للظلمة، فهي تعطي ضوءاً لا ظلاماً، لكن سبب الظلمات يكمن في الكواكب السيارة نفسها بدورانها حول نفسها لقد ذكر الظلمات مقدماً على ذكر النور لأن الأصل في الكواكب هو الظلمات، لولا ضوء الشمس، فالظلمات في الكواكب السيارة صفة ذاتية لصيقة بها، وأما نور الشمس فهو ليس صفة ذاتية للكواكب السيارة بل هو صفة خارجة عنها.

ـ ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾؟

[سورة هود، الآية: ٣٧]

ـ قوله تعالى: ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ فلم يقل تعالى: سأغرقهم أو أنهم سيغرقون، ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كأن الأمر استقر وانتهى.

ـ ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؟

[سورة العنكبوت، الآية: ٣١]

ـ الإعجاز في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ فلم يقل تعالى: «سنهلك» فذكرها بالصيغة الاسمية ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ للدلالة على الثبات أي كأن الأمر انتهى وثبت.

ـ ما الإعجاز البياني في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟

[سورة الأنعام، الآية: ٩٥]

ـ استعماله سبحانه وتعالى الفعل مع الحي فقال: ﴿يُخْرِجُ﴾ واستعمل الاسم مع الميت فقال: ﴿وَمُخْرِجُ﴾ وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ولأن (الميت) في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات، أما

قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٢٧]

ـ بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين فلأن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ❁ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

[سورة آل عمران، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧]

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغيرات، وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته، وتفضله على خلقه، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ❁ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

[سورة الأنعام، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦]

... فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسماً أيضاً، ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و(فالق الإصباح) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغير والحركة.

ـ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٣١]

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

[سورة هود، الآية: ١١٧]

... لماذا جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك)؟

- ذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة، فهي في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الآية الثانية في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية، لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك وتأتي غيرها وهكذا، فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك) ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على المضي ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾ لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماض بالنسبة إلى الآخرة وجاء في الآية الثانية بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وكذلك ختم الله تعالى الآية الأولى بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وذلك لأن سياق الكلام في الآية الأولى عن ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم ينذروا ولم يكلفوا فإن من لم ينذر فهو غافل، أما الآية الثانية فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه، وهذا من تمام الإعجاز البياني للقرآن الكريم الذي لا تخلو عجائبه ولا تنقضي فوائده.

صور من الإعجاز البياني في مفردات القرآن الكريم

عرف وعلم

* ما الفرق بينهما؟

* وما دلالة كل منهما في القرآن الكريم؟

* ولم ذكرت (عرف) مع وجود (علم)؟

* **أولا: (علم):**

١ ـ كثيرة الورود في القرآن الكريم، وشملت الصيغ اللغوية من الأفعال والمصادر والصيغات المشتقة.

٢ ـ كلمة (علم) ومشتقاتها، ترد وصفاً لفعل الخالق (اللّه سبحانه وتعالى) أو المخلوق.

مثال:

أ ـ إسنادها للّه تعالى (الخالق): ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ٦٦]

ب ـ إسنادها للمخلوق: ﴿عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٦٠]

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

[سورة التكوير، الآية: ١٤]

٣ ـ لم تأت كلمتا (علّام، عليم) إلا وصفاً للّه سبحانه وتعالى، ولم تطلق على خلقه قط.

مثال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٩٥]

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ١١٦]

* **ثانياً: (عرف):**

١ ـ ذُكرت بتصريفات أقل من تصريفات كلمة (علم).

٢ ـ ذُكرت في القرآن الكريم وصفاً لفعل المخلوق، ولم ترد وصفاً لفعل الخالق قطُّ.

٣ ـ بمقارنة الكلمتين في القرآن (علم، عرف) بمشتقاتهما، تجد أن (العلم) أشرف وأفضل وأعظم قدراً من المعرفة.

أمثلة (عرف) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٤٦]

جِسم وجَسَد وبَدَن

* هل هناك فرق بين الكلمات الثلاث؟

* وما دلالة كل منها في القرآن؟

* وهل يسوغُ وَضعُ إحداها مكان الأخرى؟

الفرق بين الكلمات الثلاث

* الجسم: يُطلقُ على العقلاء حال الحياة.

* والجسد: يُطلق على ما لا روح فيه.

* والبدن: يُطلق على العقلاء بعد الموت.

أمثلة قرآنية:

* الجسم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾

[سورة البقرة، الآية: ٢٤٧]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

[سورة المنافقون، الآية: ٤]

* الجسد: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٤٨]

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

[سورة طه، الآية: ٨٨]

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾

[سورة الأنبياء، الآية: ٨]

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

[سورة ص، الآية: ٣٤]

* بدن: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

[سورة يونس، الآية: ٩٢]

الميِّتُ والمَيْتُ

* هل هناك فرق بين الكلمتين؟
* وما المدلول القرآني لكل كلمة منهما؟
* ولِمَ وُصفت (البلد) بأنها (ميّت) وليست (ميْت)؟

الفرق بين الكلمتين؟

* استعمل القرآن الكريم كلمة (ميّت) بتحريك الياء وتشديدها، للدلالة على:

١ ـ **ما كان له روحٌ نشأت عنها الحياة**، وسيموت يوماً ما، مثل قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٣٠]

فلقد أطلق القرآن كلمة (ميّت) و(ميتون) على النبي ﷺ وأصحابه رضي اللَّه عنهم، وهو حيٌّ وهم أحياء، وكلمة (ميّتُون) تشمل كل حيّ بعد صحابة رسول اللَّه ﷺ من الناس جميعاً، فالموت سُنَّةٌ من سُنَنِ اللّه في الأحياء من خلقه.

٢ ـ **ما ليس له روح، كالأرض الميتة**، كما قال تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

[سورة فاطر، الآية: ٩]

* واستعمل القرآن الكريم كلمة (ميْت) بتسكين الياء للدلالة على مَنْ كان حياً حياة حقيقية ثم مات موتاً حقيقيّاً وفارقت روحُهُ بدنه.

أمثلة قرآنية:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٢٢]

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٤٩]

﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾

[سورة الزخرف، الآية: ١١]

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾

[سورة الحجرات، الآية: ١٢]

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١١٥]

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾

[سورة يس، الآية: ٣٣]

عَمِلَ وفَعَلَ

* ما الفرق بين الكلمتين؟
* وما الذي تُسند إليه كلّ منهما في القرآن الكريم؟
* ولماذا خلا كلامُ اللّه تعالى من إسناد كلمة (عمل) إلى اللّه؟ بينما أُسنِدت كلمة فعل إلى اللّه تعالى؟

الفرقُ بين الكلمتين:

١ ـ (عمل) يكثر استعمالها في المحبوب، ويقلُّ في المكروه، بينما تُستعمل كلمة (فعل) في القرآن في الخير والشر إذا أُسنِدت إلى غير اللّه.

٢ ـ (عمل) لا تُسند إلى لفظ الجلالة (اللّه) أو إلى أي اسم من أسماء اللّه تعالى، أو إلى أي ضمير يعود عليه سبحانه، بينما تأتي كلمة (فعل) مسندة إلى لفظ الجلالة (اللّه) و(رب) والضمير العائد عليه في صيغ

الفعلين الماضي والمضارع، واسم الفاعل وصيغة المبالغة، ولكن ما يجيء مُسْنَداً إلى (اللّه) يكون للمدح بجلال اللّه تعالى، أو للتهديد والعظة والاعتبار.

ولم تأت (فعل) مسندة كفعل أمر ولا نهي إلى (اللّه) ولو على سبيل الدعاء تقديساً للّه وتنزيهًا له سبحانه وتعالى.

لماذا خلا القرآنُ من إسناد كلمة (عمل) بمشتقاتها إلى اسم من أسماء اللّه تعالى؟

* والجواب: أن ذلك من ثلاثة وجوه:

١ ـ العملُ (كما قال بعضُ أهل العلم) يحتاج إلى تفكُّرٍ ومقارنة بين الفعل والترك، وتقليب النظر في صوره، واختيار ما يهدي إليه النظرُ فيها، واللّه سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

٢ ـ أن العامل قد يعمل له غيرهُ (أي يقوم بعمله غيرُه) واللّه غنيٌّ عن العالمين.

٣ ـ أن العامل يعمل ليحصل على ثمرة عمله من خيرٍ هو فقيرٌ إليه واللّه هو الغنيُّ الحميدُ.

أمثلة قرآنية:

* أولاً (عمل): ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٦٢]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٧]

* ثانياً: (فعل): ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٩٧]

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٣]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩١]

الريح والرياح

* هل الكلمتان بمعنى واحد؟
* ما دلالة كل منهما في موضعها في القرآن الكريم؟
* وهل يمكن أن تحلَّ إحداهما محلَّ الأخرى؟

أولاً: مقامات (الريح) في القرآن الكريم:

١ ـ استعمالها في الخير: وفي هذه الحالة لا يقترن بها أوصاف، بل يقف عند حد ذكرها، إلا في موضعين:

أ ـ ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٢٢]

وهي الريح اللينة

ب ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٨١]

وسِرُّ التباين بين اللفظين ﴿طَيِّبَةٍ﴾ و﴿عَاصِفَةً﴾ إكمال النعمة في كل موضع بما يناسبها.

* فهي في جراء الفلك طيبة سهلة لانتظام حركة السير وسلامته من الكوارث.

* وهي لسليمان عليه السلام (عاصفة) لأنها جند من جنوده.

ـ ولو قيل في الأولى (عاصفة) وفي الثانية (طيبة) لانقلبت النعمةُ بؤساً، والقوةُ ضعفاً.

٢ ـ استعمالها في الشَّر: وفي هذه الحالة تقترن بها أوصاف تدلُّ على الشَّر.

أمثلة:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٥١]

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٤١]

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.

[سورة الحاقة، الآية: ٦]

٣ ـ استعمالها في الخير والشر في آنٍ واحدٍ: مثال: ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٩]

فهي خير بالنسبة للمخاطبين، وهم المسلمون، وشرٌّ بالنسبة للجنود المغيرين وهم الكافرون.

ثانياً: مقامات (الرياح) في القرآن الكريم:

جاءت كلمة (الرياح) بصورة مختلفة عن (الريح)، كالآتي:

١ ـ التزام استعمال كلمة (الرياح) في مجال الآيات والظواهر الكونية.

٢ ـ التزام استعمالها في (الخير) دائماً.

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾.

[سورة الحجر، الآية: ٢٢]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٤٨]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٤٦]

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾.

[سورة فاطر، الآية: ٩]

﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٥]

اسطاعوا ـ استطاعوا

* ماذا أفادت كلمة اسطاعوا مع وجود كلمة استطاعوا؟
* وهل الكلمتان مترادفتان؟
* وهل يسوغ تبديل إحداهما مكان الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت صيغة (اسطاعوا) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٩٧]

ووردت صيغة (استطاعوا) أربع مرات، منها الآية السابقة.

فما الحكمة من ورود الكلمتين معاً في القرآن الكريم؟

والجواب: من ثلاثة أوجه:

١ ـ الأصل ورود كلمة (استطاعوا) كاملة، ولا يستدعي ذلك تعليلاً.

٢ ـ صيغة (استطاعوا) تعدت إلى اسم هو قوله: (نقباً) فخفف متعلقها فاحتملت أن يتم لفظها، أما (اسطاعوا) بحذف التاء، فقد جاء مكان مفعولها أن والفعل والفاعل والمفعول به، في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾وهي أربعة أشياء فثقل متعلقها، عندئذ فُضّل تخفيف لفظها، فأتت بدون التاء أي (اسطاعوا) وليست (استطاعوا)، وبذلك حدث توازن بين الصفتين: الثقيل مع الخفيف والخفيف مع الثقيل[1].

٣ ـ ولقد اختير للحذف حرف (التاء) لأن في الكلمة حرفاً يُغني عنه، هو الطاء لاقتراب مخرجيهما.

لم تستطع ـ لم تسطع

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* وما الحكمة من وجودهما معاً في القرآن؟

أمثلة قرآنية

* وردت كلمة (لم تسطع) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٨٢]

والجواب: أن ذلك من ثلاثة وجوه:

١ ـ كلمات الآية التي وردت فيها صيغة (لم تستطع) كانت أقل من كلمات الآية

---

(١) نظم الدرر: ١٢/ ١٢٣.

التي وردت فيها صيغة (لم تسطع) فكانت قلة الكلمات في الآية الأولى توجب إتمام حروف الصيغة الأولى (لم تستطع) وكثرة كلمات الآية الثانية توجب تقليل حروف الصيغة الثانية (لم تسطع) فحدث توازن بين الآيتين.

قليلة الكلمات.. اكتملت فيها الصيغة.. وكثيرة الكلمات نقصت فيها الصيغة[١].

٢ ـ أن الأصل في اللغة البيان، فإذا أمكن أن يُبين المعنى المقصود مع قلة الحروف كان ذلك أولى.. لأن الطبيعة البشرية تميل إلى تقليل الجهد إذا وُفِّيَ بالهدف، أما ترى أنهم قالوا (ويلُمِّه) ويقصدون (وَيْلٌ لأمه) وقد وردت كلمة (تستطع) في السياق آنفاً، وكان تكرارها مرة ثانية مفهوماً ولو حُذفت بعض حروفها.. كـ (تسطع).

يبدأ ـ يُبدىء

هل تعلم فرقاً بين يبدأ، يُبدئ؟

* وهل هناك فائدةٌ من ذكر الكلمتين معاً في القرآن الكريم؟
* وهل يسوغ أن تحل إحداهما محل الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (يبدأ) ست مرات، في قوله تعالى: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٤]

بينما لم ترد كلمة (يُبدئ) إلا مرة واحدة في مثل هذا السياق، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ١٩]

فما الحكمة من ورود الصيغتين معاً في القرآن الكريم؟

إذا نظرنا إلى السياق الذي وردت فيه كلمة (يبدأ) وجدنا أنه يُشير إلى الخلق الأول.. لأنه يذكر فيه خلق السماوات والأرض، ففي سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٣]

---

(١) البرهان للكرماني: ١٢٢.

وقد سبقت هذه الآية كلمة (يبدأ) في الآية التالية.. مما دل على أن المقصود منها الخلق الأول.. وهكذا في المواضع الخمسة الأخرى.

* أما السياق الذي وردت فيه كلمة (يُبدئ) فنجد أن المعاني التي سبقتها تشير إلى الخلق الثاني، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ١٩]

جاءتكم البينة ـ جاءكم البينة

* ما فائدةُ كل من الكلمتين (جاءتكم) و(جاءكم)؟

* وكيف وردت كلمة (جاءكم) مع (البينة) وهي مؤنث لفظي؟

* وهل يسوغ أن تحلَّ كل كلمة محل الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (جاءتكم) مع كلمة (بينة) مرتين: قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٧٣]

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٨٥]

* ووردت كلمةُ (جاءكم) مع كلمة (بينة) مرة واحدة، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٥٧]

فما الفرق بين الكلمتين؟

* ذهب كلٌّ من الطبري والرازي والزمخشري في تفاسيرهم إلى أن (البينة) في الآية الأولى هي الناقة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٧٣]

وفي الآية الثانية هي المعجزة أو الحجة، وهذا هو سبب مجيء كلمة (جاءتكم) بصيغة مؤنثةٍ لأن الفاعل (البينة) مؤنثة.

* أما البينة في الآية الثالثة: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فهي القرآن،

والقرآن لفظ مذكر.. ولذلك جاء الفعل (جاءكم) مذكراً (أي بدون تاء التأنيث).

يطوف ـ يُطاف

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* وما الحكمة من ورودهما معاً في نفس السورة؟

* وهل تُغني إحداهما عن الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت صيغة (يطوف) فعلاً مضارعاً مبنياً للمعلوم (ثلاث مرات)، مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

[سورة الطور، الآية: ٢٤]

* ووردت صيغة (يُطاف) فعلاً مضارعاً مبنياً للمجهول (ثلاث مرات)، مثل قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ٤٥]

الجواب:

* أن المبني للمجهول (يُطاف) كان المقصود به الشيء المطوف به (بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أما عن البناء للمعلوم (ويطوف) كان المقصود به ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾.

* وأيضاً: السياق الذي ورد فيه الفعل المبني للمجهول (يُطاف) كان في تعداد النعم التي يتمتع بها المؤمن في الجنة، فاللَّه تعالى جزاهم جنةً دانيةً ظلالُها، وذُللت قطوفها تذليلاً، يلبسون فيها حريراً ويتكئون على الأرائك فيها[1] فناسب ذلك أن تذكر آنية الفضة والأكواب لقوارير التي كانوا يشربون فيها فهي من جملة النعم.. فإذا انتهى من تعداد ذلك، كان لائقاً ومناسباً التعقيب بذكر هؤلاء الغلمان الذين يقومون بخدمة المؤمنين في الجنة ويقدمون لهم من ألوان النعم ما ذُكر.

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل «للإسكافي»: ٢٨٥، والبرهان: ١٢٢، وملاك التأويل: ٢/٧٩١.

* وإن لمن المعقول حقاً أن يتقدم تعداد النعم على من يقومون بتقديمها، لأن من طبيعة الأشياء ألا يكون للمرء خدم وحشم إلا إذا كان صاحب نعمة.

تأخر ـ استأخر

* ما الفرق بين كلمة (تأخر) و (استأخر)؟

* وما الحكمة من الآيتين معاً في القرآن الكريم؟

* وهل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (تأخر) مرتين في القرآن الكريم بصيغة الماضي.. كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٠٣]

وجاءت مرة واحدة بصيغة المضارع.. في قوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾.

[سورة المدّثر، الآية: ٣٧]

* ووردت كلمة (تستأخرون) للمخاطب (مرة) في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

[سورة سبأ، الآية: ٣٠]

وللغائب (خمس مرات) كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٣٤]

فما الفرق إذاً بين (تأخر) و (استأخر)؟

الجواب:

* (يتأخرون) معناها هم يفعلون التأخر بإرادتهم، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي: ومن فعل التأخير بإرادته.. ومثلها في المواضع الأخرى التي وردت فيها.

أما (يستأخرون): فمعناها أن عدم التأخر ليس بإرادتهم، وإنما يكون خارجاً عن إرادتهم (أي هو بإرادة اللّه) ففي قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ ﴾أي لا يسمح لهم الحق تعالى، بالتأخر ولا بالتقدم، ومثلها في المواضع الأخرى التي وردت فيها.

* كما أن (تأخر) منسجمة موسيقاً مع سياقها.. و(استأخر) كانت كذلك مع سياقها.

أَقْبِلْ ـ تَعَالَ ـ ائت ـ هاؤم

* ما الفرق بين هذه الكلمات الأربع؟
* لِمَ تأتي إحداهما مكان الأخرى بنفس المعنى؟
* ما مدلول كل منها قرآنياً؟

الفرق بين الكلمات الأربع:

* (أقبل) أمر متعين طلباً للإقبال ونهياً عن الإدبار المتلبس به المخاطب.
* أما (تعال) فلا يقصد بها الانتقال الحركي الحقيقي؛ بل المراد كما قال الزمخشري:(تعالوا: هلموا، والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة[1].
* أما (ائت) فلم تأت في القرآن الكريم إلا بمعنى (اذهب) كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[سورة الشعراء، الآية: ١٠]

.. أي: اذهب إلى القوم الظالمين إذاً فرق كبير بين كلمة (ائت) وكلمتي (أقبل) و(تعال).

* أما (هاؤم) فلم تأت إلا مرة واحدة في القرآن، في قوله تعالى: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾.

[سورة الحاقة، الآية: ١٩]

أمثلة قرآنية:

* أولاً: (أقبل) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ٢٧، وسورة الطور، الآية: ٢٥]

---

(١) راجع الآيات من (١٢ ـ ١٤) سورة الإنسان.

ثانياً: (تعال): ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٦١]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٦٤]

ثالثاً: (ائت) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

[سورة الشعراء، الآية: ١٠]

رابعاً: (هاؤم): ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾.

[سورة الحاقة، الآية: ١٩]

أخذ ـ أخذت

* ما الفرق بين هاتين الكلمتين؟
* وما الحكمة من الإتيان بهما معاً في القرآن الكريم؟
* وهل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى، أم لا؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (أخذ) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

[سورة هود، الآيتان: ٦٦ ـ ٦٧]

* ووردت كلمة (أخذت) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

[سورة هود، الآية: ٩٤]

الصياغة واحدة.. والكلمتان مختلفتان فلِمَ؟

والجواب:

* يجوز في اللغة العربية أن يتصل بالفعل تاءُ التأنيث كـ (أخذت) وهو الأصل، أو بدونها كـ (أخذ) إذا فُصل بين الفعل والفاعل (المؤنث المجازي) بفاصل كقوله: (وأخذ ـ الذين ظلموا ـ الصيحة) (وأخذت ـ الذين ظلموا ـ الصيحة).

* فالسبب في تعرية الفعل من تاء التأنيث في الآية الأولى: هو أن الألفاظ التي سبقت الفعل كانت أسماء مذكرة (إن ربك ـ هو ـ القوي ـ العزيز) والجواز يقتضي ذلك، كذلك النسق يقتضي ذلك وهما قاعدتان معروفتان في النحو والبلاغة.

* وفي الآية الثانية حيث اتصلت تاء التأنيث بالفعل (أخذت) فإن الاسم الظاهر الذي سبق الفعل كان مؤنثاً (رحمة) في قوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فكان النسق والجواز يقتضيان ذلك.

* إذاً كل كلمةٍ من الكلمتين (أخذ، أخذت) كانت أفضل في موضعها، ولا يسوغ أن تحل محل الأخرى.

النداء ـ الدعاء

* ما الفرق بين النداء والدعاء في القرآن الكريم؟

* وهل يمكن أن تحل إحدى الكلمتين محل الأخرى؟ وهل يسوغ ذلك أم لا؟

أولاً: النداء في القرآن:

جاء النداء في القرآن على أحوال هي:

١ ـ إسناد النداء إلى اللّه:

مثل قوله تعالى (والنداء هنا من الناس للّه): ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾.

[سورة هود، الآية: ٤٥]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

[سورة مريم، الآيتان: ٢ ـ ٣]

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٨٣]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٨٩]

٢ ـ النداء بين العباد بعضهم لبعض: كما قال تعالى عن نوح عليه السلام وابنه:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٤٢]

٣ ـ نداء من الملائكة للناس، كقوله تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ٣٩]

٤ ـ نداء من اللَّه تعالى للناس: كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ .

[سورة الشعراء، الآيتان: ١٠ ـ ١١]

٥ ـ طلب الإقبال على الصلاة سمّاهُ القرآن نداءً: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٥٨]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

[سورة الجمعة، الآية: ٩]

٦ ـ طلب الإقبال للإيمان سمَّاه القرآن نداءً: كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١٩٣]

الكَرْهُ ـ الكُرْهُ ـ الإكراهُ

* ما الفرق بين الكَرْهُ ـ الكُرْهُ ـ الإكراهُ؟
* وهل يمكن تبديل كل منها مكان الآخر؟
* وفي أي الآيات وردت كل منها؟

أولاً: (الكَرْهُ) بفتح الكاف:

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ٨٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ .

[سورة النساء، الآية: ١٩]

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ .

[سورة التوبة، الآية: ٥٣]

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ .

[سورة الرعد، الآية: ١٥]

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ .

[سورة فصلت، الآية: ١١]

ثانياً (الكُرْهُ) بضم الكاف:

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢١٦]

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ .

[سورة الأحقاف، الآية: ١٥]

ثالثاً: (الإكراهُ):

قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦]

الفرق بين الكلمات الثلاث:

١ ـ الكَرْهُ: استعملها القرآن في بيان المشقة والمعاناة النفسية فقط، والدليل على ذلك مقابلة (الكره) (بالطوع) في قوله: ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ٨٣]

٢ ـ الكُرْهُ استعملها القرآن في بيان المعاناة النفسية والجسدية معاً لذا فإن الكلمتين غير مترادفتين، ومن ثم لا يمكن ولا يساغ أن تأتي إحداهما مكان الأخرى.

٣ ـ الإكراهُ: هو مصدر الفعل (أكره) والفرق بين (الإكراه)، و(الكَره) و(الكره) إن الإكراه فعل المُكرِه (اسم فاعل) (والكُرهُ، الكُرهُ) فعل المُكرَه (اسم مفعول).

الحَجُّ والحِجُّ

* هل هناك فرقٌ بين الكلمتين؟
* ولم أتت كلمة (حِجُّ) مع ورود كلمة (حَجُّ)؟
* هل يمكن أن تحلَّ إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (الحجُّ) (بفتح الحاء) تسع مرات، بينما وردت كلمة (حِجُّ) (بكسر الحاء) مرة واحدة.
* جاءت كلمة (الحَجُّ) معرفة دائماً بـ (أل) بينما جاءت كلمة (حِجُّ) مُعرفةً بالإضافة.
* (الحجُّ) بفتح الحاء: تعني وقت الحج أو حدث الحج، بينما (الحِجُّ) بكسر الحاء: تعني أداء شعائر الحج (من إحرام ووقوف بعرفة ورمي للجمار) كما أداها المصطفى ﷺ.

أمثلة قرآنية:

* الحج: قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٩]

وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٩٧]

* حِجُّ: قال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٩٧]

جاءهم البينات، وجاءتهم البينات

* ما الفرق بين (جاءهم) و(جاءتهم)؟

* وما الذي أفادته كل منهما؟
* وهل يمكن الاستغناء بإحدى الكلمتين عن الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت (جاءتهم البينات) ثلاث مرات، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢١٣]

* ووردت (جاءهم البينات) مرتين، مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٨٦]

فما الفرق بين الاثنتين؟

* إن اتصال تاء التأنيث بالفعل (جاء) لتصبح (جاءت) عندما يكون الفاعل كلمة (البينات) هو الأصل.. ولا يحتاج إلى تعليل، لأن البينات جمع مؤنث سالم، والفعل مع جمع مؤنث سالم.. الأصل أن تتصل به تاء التأنيث.
* أما كلمة (البينات) في الآية الثانية والتي جاء معها الفعل جاءهم بدون تاء التأنيث.. فإنها تعني الكتاب.. وكذلك تعني التوراة والإنجيل، وكل منهما مذكر.. لهذا جاء الفعل مذكراً (جاءهم) (أي بدون تاء التأنيث) وهذا كثيرٌ في اللغة وفي القرآن.

جاءتهم الرسل ـ جاءكم رسلٌ

* هل تعلم ما الفرق بين هاتين الكلمتين؟
* وما الذي أفادته كلٌّ منهما في موضعها؟
* وهل يسوغ إحلال إحداهما محل الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت (جاءتهم رسلُنا) ثماني مرات، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ١٤]

* ووردت (جاءكم رسل) مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٨٣]

فما فائدة قوله: (جَاءكُمْ رُسُلٌ) مع ورود قوله: (جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ)؟

والجـــواب:

* أن (جاءتهم رسلنا) أو (جاءتهم رسلهم) أو (جاءتهم الرسل)، جاء الفعل متصلاً بتاء التأنيث (جاءت) لأن كلمة الرسل جمع تكسير، وقد تضمن معنى الجماعة، أي كأنه قال: (جاءتهم جماعةُ الرسل).

* أما قوله: (جاءكم رسل) فجاء فيها الفعل (جاء) دون تاء تأنيث لأن كلمة الرسل هنا في الآية الثانية لم تتضمن معنى الجماعة، ولذلك جاء معها الفعل مجرداً من تاء التأنيث في قوله تعالى: (جَاءكُمْ رُسُلٌ).

تتذكرون ـ تذكرون

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* ولِمَ جاءت (تذكرون) مع وجود (تتذكرون)؟

* وهل يسوغ أن تحل إحداهما محلَّ الأخرى؟

أمثلة قرآنية:

* وردت صيغة(تتذكرون) ثلاث مرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٨٠]

* ووردت صيغة (تذكرون) سبع عشرة مرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٥٢]

فلماذا ورد الفعل بصيغتين مختلفتين؟

* من استقراء الآيات التي وردت فيها كلمة (تتذكرون) وُجد أن حرف التاء قليل التردد في كلماتها الأخرى.. بينما حرف التاء تردد كثيراً في الآيات التي وردت فيها كلمة (تذكرون) إذاً ذلك يعني أن الآيات التي

قل تردد التاء في كلماتها لم تستغن عن ثبوت التاء فيها عندما وردت كلمة (تتذكرون).

أما الآيات التي كثر فيها تردد التاء فقد كانت في غنى عن ثبوت التاء في صيغة (تذكرون) عندما وردت في سياقها، وذلك أقرب إلى الضبط الصوتي.

* أما الآيات التي ترددت في كلماتها التاء كثيراً، وجاءت فيها كلمة (تذكرون) فإنها آيات قصيرة، فكان حذف التاء فيها عن كلمة (تذكرون) متسقاً مع قصر الآيات فالآيات قصيرة، والكلمات قصيرة، والكلمة الطويلة (تتذكرون) تقصر، بحذف حرف منها (تذكرون) حتى تتسق مع الكلمات الأخرى.

* وقال البقاعي: إن الكلمة التي حذفت منها (تاء الفعل) كان يراد من حذفها الإشارة؛ لأنه يكفي في هذا الموطن أدنى حد من التذكرة ولو على وجه خفي[(١)].

جاءها ـ أجاءها

* هل تعلم فرقاً بين الكلمتين؟
* وما فائدة ذكر كلتا الكلمتين معاً في القرآن؟
* وكم مرة ذُكر كل منهما؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (جاءها) ثلاث مرات؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٤]

* ووردت كلمة (أجاءها) مرة واحدة؛ في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

[سورة مريم، الآية: ٢٣]

---

(١) نظم الدرر: ٧/ ٢٢.

فماذا أفادت كلمة (أجاءها)؟

* الجواب: أن كلمة (جاء) هي الأصل، ولا تحتاج إلى دليل ولا إلى تعليل.

* أما كلمة (أجاء) فإن لها خصوصية، حيث تتضمن معنى الإرجاع إلى جانب معنى المجيء، إذاً هذه الكلمة تتكون من معنى مركب من المعنيين.

* وقد أدرك الطبري هذا المعنى عندما قال: «وإنما تأول ذلك بمعنى ألجأها، لأن المخاض لما أجاءها إلى جذع النخلة كان قد ألجاها إليه».

فالإلجاء هو تأول للمعنى.. وليس هو ذات المعنى.

ولو كانت إحداهما.. لأمكن أن تحل محلها.

أشهدوا ـ استشهدوا

* هل تعلم ما الفرق بين هاتين الكلمتين؟

* وما دلالة كل منهما؟

* وهل يمكن تبديل إحداهما بالأخرى أم لا؟

أمثلة قرآنية:

* وردت كلمة (أشهدوا) ثلاث مرات في آية واحدة في سورة البقرة (٢٨٢)، ووردت كلمة (استشهدوا) مرتين في نفس الآية (٢٨٢).

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٢]

فما فائدة (استشهدوا) مع وجود كلمة (أشهدوا)؟

والجواب: أن (استشهدوا) معناها: اطلبوا أن يشهد لكم شهيدان.

قال الزمخشري: ويلزم الطلب لأن الشهيدين يتكلفان مؤنة في الشهادة المكتوبة من حيث التذكر والتعرض لغضب أحد الخصمين عند وقوع خلاف، وهكذا معناها في الموضع الآخر.

* أما (أشهدوا) فمعناها: أعلنوا للناس صورة المبايعة الحاضرة، وهذا هو معناها في الموضعين الآخرين، وفي هذه الحالة لا يتكلف الشاهد معاناة ما، فهو يسمع كما يسمع كل حاضر، وله أن يشهد كما لأي حاضر على سبيل الندب لا الوجوب (قاله أبو السعود) لا كما كانت الشهادة في الحالة الأخرى التي تقع على سبيل الوجوب على الشهيدين.

لم أكن ـ لم أك

* هل هناك فرق بين الكلمتين؟

* ولم حُذفت النون من الثانية دون الأولى؟

* وماذا أفادت كل منهما؟

فما سبب حذف النون أحياناً وإثباتها أحياناً؟

أولاً: السبب في حذف النون:

١ ـ ما قاله الخطيب الإسكافي: وهو أن النون تحذف من الفعل (يكون) المجزوم بأداة من أدوات الجزم، عندما يكثر الكلام الذي تتعلق به، سواء أكان مقدماً عليها أم مؤخراً، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

[سورة هود، الآية: ١٠٩]

٢ ـ الآيات التي وردت فيها (أك) ومثيلاتها جاء التركيز فيها على (أك) (أي التكون) أو كان المقام يستدعي السرعة والإيجاز.

أما الآيات التي وردت فيها (أكن) ومثيلاتها، فكان التركيز موزعاً بينها وبين ما يليها توزيعاً متساوياً.

* مثال الحالة الأولى: قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٤٠]

فإن التركيز هنا على (الحسنة) لا على (تك) لأن الحذف قد يشير إلى:

١ ـ عدم أهمية المحذوف.

٢ ـ ويوحي بأن القارئ أو السامع يريد أن يتجاوز موطن الحذف سريعاً إلى غيره الذي هو أهم منه.

* مثال الحالة الثانية: قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]

فالأمر بالكينونة هنا في غاية الأهمية حيث أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يتم إلا إذا حدثت الكينونة وإلا فلن يكون.

* أما أسباب إثبات النون فهي:

١ ـ عندما يكون الصوت الذي يليها ساكناً تصبح (لو حذفت نونها) كأنها جزءٌ من الكلمة، فأثبت النون في آخرها، ليكون النطق بها واضحاً.

٢ ـ قال ابن منظور في اللسان: إذا وقعت النون موقعاً تحرك فيه، فتقوى الحركة لا تُحذف.

المَسُّ واللمسُ والمَسْحُ

* هل هناك فرق بين الكلمات الثلاث؟

* وما دلالة كل منها في القرآن الكريم؟

* وهل يسوغُ تبديل إحداهن بالأخرى؟

الفروق بين الكلمات الثلاث:

١ ـ كل من الكلمات الثلاث يُراد بها ملاقاة جسم لآخر.

٢ ـ الفرق بين اللمس والمس هو شدة الملاصقة في اللمس وخفتها في المس.

٣ ـ المسح كاللمس والمس إلا أنه يفترق عنهما بتحريك الجسم الماسح على الجسم الممسوح، أما اللمس والمس فيكونان مع سكون الجسم اللامس أو الجسم الماس.. والله أعلم.

أمثلة قرآنية:

* **أولاً:** اللمس ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٧]

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾.

[سورة النساء، الآية: ٤٣، وسورة المائدة، الآية: ٦]

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

[سورة الجن، الآية: ٨]

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

[سورة الحديد، الآية: ١٣]

* **ثانياً:** المسُّ: وردت صيغ (المسّ) على اختلافها في أربع عشرة آية، في صيغ مختلفة بين الأفعال الماضية والمضارعة والاسم والمصدر، ووردت هذه الصيغ المختلفة بصور مختلفة بين الحقيقة والكناية كما يلي:

١ ـ ثلاثة مواضع منها أُريد بها المعنى الحقيقي للمسِّ، من جسم لآخر مساً خفيفاً وهي: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

[سورة طه، الآية: ٩٧]

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

[سورة النور، الآية: ٣٥]

﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩]

٢ ـ ثلاثة مواضع أخرى كناية عن مباشرة النساء وهي: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٣٦]

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٤٧]

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ٣]

* ثالثاً: المسح: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٤٣]

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٦]

﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٦]

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

[سورة ص، الآية: ٣٣]

شِرعةٌ، شريعة

* ما الفرق بين الكلمتين؟
* وما فائدة كل منهما في موضعه؟
* وهل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (شرعة) مرة واحدة، ووردت كلمة (شريعة) مرة واحدة أيضاً.

* كلمة (شريعة) بها زيادة المبنى التي تدل على زيادة المعنى.

فكلمة (شريعة) تعني العقيدة والمنهاج، في حين لا تعني كلمة (شرعة) إلا العقيدة فقط.

أمثلة قرآنية:

* شرعة: قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[سورة المائدة، الآيتان: ٤٧ ـ ٤٨]

* شريعة: قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ

ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

[سورة الجاثية، الآيتان: ١٧ ـ ١٨]

نَزَّل وأنزل

* هل هناك فرق بين الكلمتين؟
* لم ذُكرت (نزّل) بالتضعيف كثيراً مع ذكر القرآن ولم ترد إلا مرة مع ذكر التوراة؟
* ماذا تعني كل منهما؟
* وهل يسوغ تبديل إحداهما بالأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* ذِكْرُ كلمة (نزَّل) يقتضي التكرار لأجل التضعيف، فقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ يشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدعاوى وأنه لم ينزل دفعة واحدة، وفيه توكيد أكثر من (أنزل)، أما (أنزل) فتدل في الغالب على النزول دفعة واحدة، لذا كثر ورودها مع التوراة.
* إذاً تأتي كلمة (نزَّل) في القرآن، وكلمة (أنزل) مع الكتب الأخرى.

أمثلة قرآنية:

* نزَّل: قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية: ٩]

* أنزل: قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ .

[سورة الكهف، الآية: ١]

تتنزَّل وتنزَّل

* ما الفرق بين الفعلين؟
* لم ورد كل منهما في موضعه دون الآخر؟
* هل يمكن إحلال أحدهما محلَّ الآخر؟

ما الفرق بين الكلمتين؟

* ورد الفعل (تتنزل) ثلاث مرات، كما ورد الفعل (تنزل) ثلاث مرات أيضاً.

* ورد الفعل (تتنزل) لسببين:

١ ـ توالي التاءين في الفعل (تتنزل) يدل على الهدوء والترتيب، مما يناسب ذكره مع تنزل الملائكة على المؤمنين بهدوء ورحمة.

٢ ـ سبق في مطلع سورة فصلت قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.
[سورة فصلت، الآية: ٢]

فالمصدر (تنزيل) فعله المضارع (يتنزل) أو (تتنزل) فناسب هذا الفعل ذلك المصدر (الذي هو مصدر الفعل نفسه).

* أما الفعل (تنزَّل) فقد ورد لأسباب:

١ ـ في سورة الشعراء:

أ ـ الآيات قصيرة، ويناسب الآيات القصيرة الألفاظ المختصرة، لذا كان ذكر كلمة (تنزل) أنسب هنا من (تتنزل)

ب ـ كثرة مادة (نزل) في السورة، إذ وردت خمس مرات في الآيات ـ الرابعة (تنزل) والثانية والتسعين بعد المائة (تنزل) والثانية والتسعين بعد المائة(نزلناه) والعاشرة بعد المائتين (تنزلت) ـ ولكثرة ورود هذه المادة في سورة الشعراء، ناسب ذلك ذكر الفعل المختصر (تنزل).

ج ـ حذف التاء من أول الفعل (تتنزل) والعدول عنه إلى الفعل (تنزل) يدل على السرعة والخفة والخفاء، وهذه الحالة تناسب حال نزول الشياطين على الأفاكين في خفة وسرعة وخفاء.. لذا ناسب ذلك ورود الفعل (تنزل).

يُشاق، يُشاقق

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* وكم مرة وردت كل منهما في القرآن الكريم؟

* وهل يسوغ إحلال إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (يشاق) مرة واحدة، بينما وردت كلمة (يشاقق) مرتين.

* وردت كلمة (يشاق) (موحدة بالقاف) عندما كان متعلقها واحداً يتصف

بالوحدانية (وهو اللَّه سبحانه وتعالى) وعندما كان ما يليها ساكناً.

* أما (يشاقق) (مثناة القاف) فقد وردت عندما كان الموقف يقتضي المجاهرة، فكانت المجاهرة باللفظة (بتكرار حرف القاف متسقة مع المجاهرة المعنوية).

قال البقاعي: أظهر القاف أي في كلمة يشاقق إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة، لأن السياق لأهل الأوثان وهم مجاهرون. (وذلك في سورة النساء ١١٥). ويضاف إلى قول البقاعي: أن الآية فيها مجاهرة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١١٥]

وفي تبين الهدى مجاهرة لهؤلاء الكفار بدعوة الحق، وهذه المرة الوحيدة التي ورد فيها التعبير بكلمة يشاقق (مثناة بالقاف).

أمثلة قرآنية:

* يُشاق: قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

[سورة الحشر، الآية: ٤]

* يُشاقق: قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ١١٥]

ظلوم، ظلَّام

* ما الفرق بين الكلمتين؟
* وما فائدة ورودهما في القرآن؟
* وما الذي اختصت به كل واحدة منهما؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (ظلوم) مرتين.

بينما وردت كلمة (ظلَّام) خمس مرات.

* كلاهما صيغة مبالغة: الأولى على وزن (فعول) والثانية على وزن (فعال).

وردت كلمة (ظلوم) وصفاً للإنسان.. بينما وردت كلمة (ظلام) وصفاً منفياً عن الله تعالى..

* أما كلمة (ظلام) فقد جاءت وصفاً منفياً عن الذات الإلٰهية، وأرى أن ذلك لسببين والله أعلم:

١ ـ أن كلمة (ظلام) ربما أتت للنسب، بمعنى أن الله تعالى ليس ذا ظلم، ولا يتصف بأي ظلم كان.

وقد جاءت صيغة المبالغة (ظلام) للتوكيد على المعنى، ولأن الصفة العليا تشمل الصفة الدنية (الظلم) غالباً.

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، وقد استخدمت كلمة (ظلام) كما قال القاضي الباقلاني: أن الله لو كان يعاقب على غير ذنب لكان يوصف بأقصى حد للظلم وهو (ظلام) ولكنه سبحانه وتعالى لا يعاقب إلا على ذنب فليس بظلام أبداً.

أمثلة قرآنية:

* ظلوم: قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٤]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٧٢]

* ظلام: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

[سورة آل عمران، الآيتان: ١٨١ ـ ١٨٢]

وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

[سورة ق، الآية: ٢٩]

كفر، كفور، كفران

* هل ترى فرقاً بين الكلمات الثلاث؟

* وما فائدة ذكر كلمة (كفور، وكفران) رغم وجود كلمة (كفر)؟

* وهل يسوغ إحلال كل كلمة محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (كفر) خمساً وعشرين مرة، ووردت كلمة (كفور) ثلاث مرات، بينما كلمة (كفران) مرة واحدة.

* (الكفر) ضد الإيمان، وهو متعلق بالوحدانية ومقتضياتها.. و(الكفور) أكثر توكيداً ومبالغة في الكفر، وهو متعلق بالوحدانية ومقتضياتها أيضاً، عندما يتنكب المرءُ الحق على معرفة وعلم، أو يأبى استماع الحق والإذعان إليه.

و(الكفران) متعلق بالحقوق والنعم التي تخص المؤمن، وفيها توكيد (ويمكن أن تأتي في غير القرآن بمعنى الكفور).

* جاءت كلمة (الكفر) في معظم المرات في سياق ذكر فيه (الإيمان) فكانت كلمة (الكفر) مقابل كلمة (الإيمان).

* أما كلمة (الكفور) فقد سبقت في المرات الثلاث التي وردت فيها بكلمة (أبى) ولم تستعمل كلمة (أبى) ولو مرة واحدة مع كلمة (كفر) أو (كفران).

* أما كلمة (كفران) فهي خاصة بجحود النعمة أو جحود السعي الطيب للإنسان.

أمثلة قرآنية:

* كفر: قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٠٨]

* كفور: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٥٠]

* كفران: قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ * فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآيات: ٩٢ ـ ٩٤]

شاهد، شهيد

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* ما علة ذكرهما معاً في القرآن الكريم؟

* وماذا أفادت كل منهما؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (شاهد) سبع مرات، وكلمة (شهيد) خمساً وثلاثين مرة.

* كلمة (شاهد) اسم فاعل، بينما كلمة (شهيد) صفة مشبهة على وزن (فعيل) تستخدم في ألوان السياق التي تستدعي توكيداً، وقد جاءت بمعانٍ عدَّة:

١ ـ شهادة على المعاملات في الدنيا، وهذا يقتضي توكيد الشهادة ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٢]

٢ ـ شهادة عيسى ـ عليه السلام ـ لينفي عن نفسه أن يكون قد قال للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون اللَّه، ويقتضي المعنى تأكيد نفي التهمة عن نفسه حتى قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ١١٧]

٣ ـ شهادة الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]

٤ ـ شهادة اللَّه سبحانه وتعالى، وقد وردت خمساً وعشرين مرة من مجموع خمس وثلاثين مرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

وناسب خطاب اللّه هنا للناس التوكيد؛ لأن منهم المؤمن والمكذب الذي يقتضي خطابه التوكيد ليصدق.

أما (شاهد) وهي اسم فاعل، فتأتي في السياق الذي لا يستدعي توكيداً، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٤٥]

بينات، مبينات

* هل ترى فرقاً بين الصيغتين؟

* وكم مرة وردت كل منهما؟

* وهل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (بينات) ثماني مرات، ووردت كلمة (مبينات) ثلاث مرات.

* بينات: تعني واضحات (أي دلائل على نفسها).

* ومبينات: تعني مُوضحات (أي دلائل على غيرها).

أمثلة قرآنية:

* بينات: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٩٩]

* مبينات: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

[سورة النور، الآية: ٣٤]

قولاً، قيــلاً

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* ما فائدة اجتماعهما معاً في القرآن وعدم الاقتصار على واحدة منهما؟

* كم مرة وردت كل منهما؟

* هل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (قولاً) تسع عشرة مرة، بينما وردت كلمة (قيلاً) ثلاث مرات.

* صيغة القول هي الأصل، لذا كثر استعمال (قول) في القرآن، وقل استعمال (قيلاً) التي تدل على البناء للمجهول.

* كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٢٢]

معناه: ليس من أحد أصدق من اللَّه قولاً، أي أنه معدوم أن يكون أحد أصدق من اللَّه قولاً، ففعل القول الذي يدل على العدم يجب أن يكون مبنياً للمجهول، والاسم المبني منه هو (قيلاً)

* وكما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦]

فإن فاعل القول هنا غير محدد: أي مجهول.

ففعله يجب أن يكون مبنياً للمجهول، والاسم المبني عليه يأتي على صورته، لأن المهم هنا (ما قيل) وليس الفاعل.

أمثلة قرآنية:

* قولاً: قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٥٩]

* قيلاً: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٢٢]

حساب، حسبان

* ما الفرق بين (حساب)، و(حسبان)؟

* وكم مرة وردت كل منهما في القرآن؟

* وماذا أفادت كلمة (حسبان) مع ورود كلمة (حساب)؟

* وهل يمكن تبديل إحداهما بالأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

وردت كلمة (حساب) بصورها (معرفة، ونكرة، ومنصوبة، ومجرورة، ومرفوعة) تسعاً وثلاثين مرة.

* بينما وردت كلمة (حُسبان) (منصوبة ومجرورة) ثلاث مرات.

* وردت كلمة (حساب) بثلاثة معان هي:

١ ـ الفصل والجزاء في أمر الإنسان (على ما جاء به من خير وما ارتكبه من شر)، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٠٢]

وقوله: (سَرِيعُ الْحِسَاب) يعني لأن حسابه واقع لا محالة، وأنه لا يشغله حساب بشر عن حساب آخر.

٢ ـ الإحصاء والعد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٥]

٣ ـ نفي المحاسبة، حيث لا عدَّ ولا إحصاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٣٧]

أي يجري عليه الرزق متدفقاً وكأنه لا يعد ولا يحصى.

* أما كلمة (حسبان) فلها معنى واحد وهو الحساب الدقيق والمضبوط، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾.

[سورة الرحمن، الآية: ٥]

... أي يجريان بحساب مضبوط ودقيق، وقال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٤٠]

أي شيئاً مدمراً محسوباً حساباً دقيقاً مضبوطاً.

* وكلمة (حسبان) أبلغ وأكمل (في باب العد والضبط) من كلمة (حساب).

سِخريًّا ، سُخرياً

* هل هنا فرق بين الكلمتين؟

* وما فائدة كلمتي (سُخرياً ، سِخريًّا)؟

* وهل يسوغ إحلال إحداهما محلَّ الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين :

* وردت كلمة (سِخرياً) بكسر السين : مرتين .

* بينما وردت كلمة (سُخرياً) بضم السين مرة واحدة .

* السخرى (بكسر السين) هو الهُزء والسخرية .

* السُّخرى (بضم السين) هو بمعنى السخرة والتسخير .

وهذا المعنى الأخير يتضح في قوله تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ .

[سورة الزخرف، الآية: ٣٢]

أمثلة قرآنية :

* سِخرياً (بكسر السين): قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

[سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٩ ـ ١١١]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ .

[سورة ص، الآيتان: ٦٢ ـ ٦٣]

* سُخرياً (بضم السين): قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۞ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

[سورة الزخرف، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢]

الحياة، الحيوان

* ما الفرق بين الكلمتين؟
* وما الحكمة من وجود كلمة (الحيوان) إلى جانب كلمة (الحياة) في القرآن؟
* وهل يمكن أن تحلَّ إحداهما محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (الحياة) معرفة ونكرة إحدى وسبعين مرة.

بينما وردت كلمة (الحيوان) مرة واحدة.

* (الحياة) ضد (الموت).

أما الحيوان: فهي الحياة المستمرة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها.

والحيوان: مصدر حيي، وقياسه (حييان) فقلبت الياء الثانية واواً.

* وفي بناء (الحيوان) زيادة معنى ليس في بناء (الحياة).

و(حيوان) على وزن (فعلان) الذي فيه معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان... وما أشبه ذلك.

* و(الحيوان) فيها مبالغة وتوكيد، لذلك لم تطلق إلا على الحياة الآخرة لأنها الدائمة فليس لها فناء، والنظيفة فليس فيها رجس ولا وباء، وهي الحق فليس فيها باطل ولا مراء، وهي الباقية فليس لها انتهاء.

أمثلة قرآنية:

* الحياة: قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٨٥]

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٧]

* الحيوان: قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٦٤]

متشابهاً و . . . . مشتبهاً

* ما الفرق بين الكلمتين؟

* ما دلالة كلمة (مشتبهاً)، رغم وجود كلمة (متشابهاً)؟

* هل يمكن تبديل إحدى الكلمتين محل الأخرى؟

الفرق بين الكلمتين:

* وردت كلمة (متشابهاً) أربع مرات، بينما لم ترد كلمة (مشتبهاً) إلا مرة واحدة.

* وردت الكلمتان في سياق واحد في آية واحدة، والمتأمل في هذه الآية يجد أن الآية ورد فيها تنوع بين أكثر من كلمة وأكثر من وصف فغلب عليها التنوع، فناسب ذلك أيضاً التنويع بين كلمتي (متشابه) و(مشتبهاً).

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٩٩]

التوبة، والتوب، والمتاب

* **ما الفرق بين الكلمات الثلاث؟**

* ما فائدة ورودها جميعاً في القرآن الكريم؟

* هل يمكن تبديل إحداهن مكان الأخرى؟

الفرق بين الكلمات الثلاث:

* وردت كلمة (توبة) سبع مرات، بينما وردت كلمة (التوب) مرة واحدة، ووردت كلمة (متاب) مرتين.

* (التوبة) و(التوب) مصدران، غير أن التوبة أقوى وأشد معنى من (التوب) لذا وردت كل منهما في موضعها المناسب.

* أما (متاب) فلها معنيان:

١ ـ اسم مكان من التوبة: أي مرجعي (معنى بالتوبة وحساً بالمعاد).

٢ ـ مفعول مطلق (يتوب متاباً).

* كما أن (متاباً) اتسقت مع الفواصل التي اكتنفتها (سلاماً، قياماً، غراماً، مقاماً، قواماً، مهاناً، متاباً، كراماً، إماماً، سلاماً، مقاماً، لزاماً)

أمثلة قرآنية:

* التوبة: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ١٠٤]

* التوب: قال تعالى: ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

[سورة غافر، الآيات: ١ ـ ٣]

* متاباً: قال تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٧١][١]

---

(١) الدكتور أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية.



الفصل الرابع

- البلاغة في القرآن الكريم .
- أسلوب القرآن الكريم الخصائص والمفردات والتراكيب .
- الشبه العام في اللفظ والمعنى في القرآن الكريم .
- التصوير الفني في القرآن الكريم .
- الأسلوب القصصي في القرآن الكريم .
- الأسلوب التصويري في القرآن الكريم .
- الخاتمــــــة .



البلاغة في القرآن الكريم

فلا سبيل إلى بسط الكلام وتقسيمه فيما تضمنه القرآن من أنواع البلاغة التي نصب لها العلماء أسماءها المعروفة، كالاستعارة والمجاز وغيرهما، فضلاً عن أنواع البديع الكثيرة، فإن ذلك يخرج الكلام مخرج التأليف وبناء القول على هذه الفنون نفسها، وهو معنى كان استخراجه من القرآن باباً مفرداً صنف فيه جماعة من العلماء المتأخرين: منهم الإمام الرازي المتوفى سنة ٦٠٦، فقد لخص كتابي «**أسرار البلاغة**» و«**دلائل الإعجاز**» **للجرجاني**، واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن وهو كتاب معروف، حسن في نسقه وتبويبه، ثم الأديب **ابن أبي الأصبع** المتوفى سنة ٦٥٤ فقد صنف كتاب «**بدائع القرآن**» وأورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن، ثم **ابن قيم الجوزية** المتوفى سنة ٧٥١.

هذا إلى أن كل ما كتبه المتقدمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن **كالرماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني**، وغيرهم، فإنما ينحون به هذا النحو من انتزاع أمثلته في القرآن، والإضافة في أبوابها، ثم ما يداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعره ونثره، فالقرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.

وللعلم فإن كل ما أحصاه العلم من أنواع البلاغة في القرآن الكريم، فإنما هي جملة ما في طبيعة هذه البلاغة مما يمكن أن يقلب عليه الكلام في وجوه السياستين البيانية والمنطقية، بحيث يستحيل البتة أن يوجد في كلام عربي نوع من ذلك وقد خلا هو منه، إلا أن يكون من باب الصنعة والتكلف الذي يتلوم الأدباء على صنعه ويذهبون فيه المذاهب الكثيرة من النظر والإعداد والتنقيح ونحوها، ثم لا يعطيه معنى البلاغة مع كل هذا العنت إلا اصطلاحهم أنفسهم على أنه من البلاغة، ولسنا نقول: إن القرآن جاء

بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجرى على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوز حيث يتجوز ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء.

فالعلماء يقولون: إن كل ذلك فنون من البلاغة وقع بها الإعجاز، لأنهم اصطلحوا على هذه التسمية التي حدثت بعد العرب، ولو قالوا: إن القرآن معجز في ذلك لكان أصوب في الحقيقة، وأبلغ في حقيقة الصواب، وأمكن في معنى الإعجاز، وأتم في هذا الباب كله ما دام في لسان الدهر حرف من العربية.

وليس من شيء يحقق إعجاز القرآن من هذه الجهة، ويكشف منه عن أصول السياستين، والتأتي إلى أغراضها بسياق اللفظ ونظمه وتركيب المعنى وتصريفها فيما تتجه إليه، ومداورة الكلام على ذلك إلا تأمله على هذه الوجوه، وإطالة النظر في كل معنى من معانيه، وفي طبيعة هذا المعنى ووجه تأديته إلى النفس، وما عسى أن تعارضه النفس به، أو تدافعه، وتلتوي عليه من قبله، ثم طبقات هذا المعنى بعينه، وتقديرها على طبقات الإفهام، واعتبارها بما هو أبلغ في نفسه وأعم في وضعه، ثم وجه ارتباط ذلك بما قبله واندماجه فيما بعده، ومساوقته لأشباهه ونظائره حيث اتفق منها في الكلام شيء، ثم تدبر الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصالتها ولحونها، ومناسبة بعضها لبعض في ذلك، والتغلغل في الوجوه التي من **أجلها اختير كل لفظ في موضعه، أو عدل إليه من غيره، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها**، ومن حيث دلالته في نفسه، وملاءمته لغيره، ثم النظر في روابط الألفاظ والمعاني والحروف والصيغ التي أقيمت عليها اللغة ووجه اختيار الحرف أو الصيغة، وموضع ذلك في الغناء، والإبلاغ في الدلالة من سواه، ثم طريقة النسق والسرد في الجملة ووجه الحذف أو الإيجاز أو التكرار

ونحوها، مما خاص بهذه الطريقة حسب ما توجهه المعاني فإن كل ذلك في القرآن الكريم على أتمه، وليس فيه اضطراب أو التواء، ولا يجوز فيه عذر ولا تسويغ، وهو منه بحيث يدعو بعضه بعضه إلى بعض، ويريد بعضه بعضاً مما ينفي عنه التصنع والتكلف والمحاولة، ويدل على أنه كالمفرغ جملة واحدة، ثم هو أمر لا يجتمع البتة في كلام أحد من الناس ولا يستوثق على البلاغة الإنسانية، وما علوم البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التنبيه إليه فهي تعطي القدرة على النظر والفهم ولكنها لا تعطي بمقدار ذلك في العمل والصنعة.

ومهما كان العرب من الرياضة والتمرين واعتياد النفس وإدمان الدربة وذكاء الفطر ودقة الحس، فإن هذه كلها تجري مجرى تلك العلوم في نسبة القدرة على الفهم ـ إلى القوة على العمل، الناس كلهم علم واحد، في أن هؤلاء العرب جميعاً يفهمون الشعر ولكنا لم نجدهم كلهم شعراء، ورأينا الشعراء منهم متفاوتين وعرفنا التفاوت بينهم واضحاً، حتى لينفرد الواحد من الجميع في فن من أغراض الشعر، ثم لا يبينه منهم إلا بلاغة التراكيب، ومبلغ قوته في سياستي البيان والمنطق.

أسلوب القرآن الكريم الخصائص والمفردات والتراكيب

الأسلوب في اللغة:

الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة: فيقال للطريق بين الأشجار، وللفن، وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنق الأسد، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضاً وأنسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد.

الأسلوب في الاصطلاح:

تواضع المتأدبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم مع تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك.

معنى أسلوب القرآن:

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلٰهي أو بشري أسلوبه الخاص به وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها.

الأسلوب غير المفردات والتراكيب:

الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.

وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين

وناظمين مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر أيضاً في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب من هذه الناحية، فمن **حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه**، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها، وتنافسوا في حلبتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي المعجز! ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٤٤]

... ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آية، فقال جل ذكره في سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال في سورة الزمر: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

مثال لهذا الفارق:

وبما أن الأمر قد اشتبه على بعض الناس حتى ضلوا فيه أو كادوا، نمثل للفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتراكيب بمثالين حسيين أحدهما صناعة الخياطة، والآخر صناعة الصيدلة أو تحضير العقاقير والأدوية: فالخياطون يختلفون فيما بينهم اختلافاً بعيداً ما بين خامل ونابه في صنعته، وضعيف وبارع في حرفته، وهذا الاختلاف لم يأت من ناحية مواد الثياب المخيطة، ولا من ناحية الآلات والأدوات والطرق العامة التي تستخدم في الخياطة، إنما الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها واستخدام قواعد هذه الصناعة في شكلها وهندستها وكذلك الصيادلة يختلفون فيما بينهم نباهة وخمولاً، وبراعة وقصوراً، لا من حيث

مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة في تركيبها، بل من حيث حسن اختيار هذه المواد، ودقة تطبيق هذه القواعد في تحضير العقاقير والأدوية، حتى لقد نشاهد أن مزاج الجيد منها وأثره ونفعه، يختلف بوضوح عن مزاج الرديء منها وأثره وضرره، وقل مثل هذا في كل ما حولك من صناعات يختلف فيها الصانعون ومصنوعاتهم جودة ورداءة مع اتحاد مواد الصناعة الأولى وقواعدها العامة في الجميع.

كذلكم البيان اللغوي في أية لغة، ما هو إلا صناعة، موادها وقواعدها واحدة في المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب، وإن شئت فقل: يختلف باختلاف الأذواق والمواهب التي انتقت هذه المفردات اللغوية، واصطفت تلك الجمل التركيبية حتى إنك لترى أهل اللغة الواحدة، يؤدون الغرض الواحد بوجوه مختلفة من المفردات، ومذاهب شتى من التراكيب، يتفاوت حظها من الجودة والرداءة، ومن الحسن والدمامة، ومن القبول والرد بمقدار ما بينهم من اختلاف في طرائق اختيارهم لما اختاروه من مواد اللغة إفراداً وتركيباً، ولما لاحظوه من المناسبات مع هذا الاختيار، فإذا سلم ذوق المتكلم وسمت حاسته البيانية، حَسُنَ اختياره، وسَمَا كلامه، سمواً قد يأخذ عليك حسك، ويملك قلبك ولبك، وإذا فسد ذوق المتكلم وانحطت حاسته البيانية، ساء اختياره، ونزل كلامه، نزولاً قد تتقزز منه نفسك، ويتأذى به سمعك، وربما فررت منه وأنت تتمثل بقول الشاعر:

عَوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى
وصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

بيان ذلك في اللغة العربية:

بيان ذلك في لغتنا المحبوبة العربية، أن مفرداتها منها متآلف في حروفه ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة ومخالف له، ثم من هذه المفردات عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، ومعروف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز، وكذلك التراكيب العربية منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها، وواضح المعاني ومعقدها،

وموافق للقياس اللغوي والخارج عليه، ومنها الجملة الاسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفي والإثبات، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، إلى غير ذلك مما هو مفصل في علوم اللغة وكتبها.

ثم إن ما يؤيده معهود اللغة من المتنوعات المذكورة وما أشبهها، هو المسلك العام الذي ينفذ منه المتكلمون إلى أغراضهم ومقاصدهم ولكن ليس شيء من هذه المتنوعات بالذي يحسن استعماله إطلاقاً ولا شيء منها بالذي يسوء استعماله إطلاقاً أي في كافة الأحوال وجميع المقامات، بل لكل مقام مقال، فما يجمل في موطن قد يقبح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يمتنع في مقام آخر، ولولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هيناً ولأصبح كلام الناس لوناً واحداً وطعماً واحداً، ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فخطاب الأذكياء غير خطاب الأغبياء، وموضوع العقائد التي يتحمس لها الناس غير موضوع القصص، وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التعليم الهادئ ولغة الوعد غير لغة الوعيد والإنذار إلى غير ذلك مما يجعل اختيار المناسبات عسراً ضرورة أن الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين قد تكون متعسرة أو متعذرة ومما يجعل اللفظ الواحد في موضع من المواضع كأنه نجمة وضاءة لامعة وفي موضع آخر كأنه نكتة سوداء مظلمة.

ولعلمائنا ـ أكرمهم اللّه ـ أذواق مختلفة في استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة، مكان حرف أو كلمة، ومن السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤١٢هـ في كتابه (**درة التنزيل وغرة التأويل**) وهاك مثالاً منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ (كلوا) أيضاً، ولكن من قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ مع أن القصة واحدة، ومدخول الحرف واحد، قال رحمه اللّه: «الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء فالأصل فيه عطف

الثاني على الأول بالفاء ومنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ فإن وجود الأكل متعلق بالدخول والدخول موصول إلى الأكل فالأكل وجودٌ معلقٌ بوجوده بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء»[١].

تفاوت القوى والقدر:

ولا ريب أن القوى والقدر تتفاوت تفاوتاً بعيداً فيما نعرف من الأحوال ومناسباتها وأن ميدان الاختيار فسيح مليء بشتى الألوان.

والصور للمفردات ومركباتها، فماذا عسى أن تبلغ قدرة الإنسان في استعراض كل هذه الألوان والصور، وفي إقامة ميزان دقيق بينها تمهيداً لحسن الاختيار، على ضوء تلك الأحوال المقتضية لما ينبغي أن يكون منها! هنا ينفسح المجال ثم ينفسح فما يهتدي إليه متكلم قد يغفل عنه متكلم، وما يتيقظ له كاتب قد يغفل عنه كاتب، وما يدركه شاعر قد يفوت شاعراً آخر، بل ما يدركه الإنسان الواحد في موضع قد يخطئه في موضع سواه، وهكذا.

وليس من غرضنا هنا أن نستقصي الأحوال والمناسبات، ولا أن نضرب الأمثال والشواهد لكل حال وما يناسبها، فلذلك محله من علوم اللغة وكتبها كما قلنا، ولكن الذي نريد أن نضع يدك عليه في هذا المقام، هو أن أسلوب أي كلام بليغ: معناه صورته الفنية أو طابعه الخاص، أو مزاجه الشخصي الذي تهيأ له برعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها في هذا الكلام، وأنه على حسب ما تحتوى أساليب الكلام من الأحوال والمناسبات، يتفاوت هذا الكلام في درجات البلاغة علواً ونزولاً، وفي حظه عند السامعين رداً وقبولاً، **وأنه لم يظفر الوجود بكلام إلٰهي ولا بشري بلغ الطرف الأعلى في البلاغة؛ ووصل إلى قمة الإعجاز من هذه الناحية، غير القرآن الكريم**؛ لأن منشئ هذا الكتاب هو وحده الذي تعلقت إرادته بأن تكون معجزة نبي الإسلام من هذا

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ـ للخطيب الإسكافي.

الطراز لحكمة شرحناها وقد نعرض لها فيما يأتي ولأنه سبحانه هو الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده، ولأنه عز سلطانه هو القادر وحده على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحيط ولن يحيط بها سواه! ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وفيها الخفي الذي لا يعلمه إلا من يعلم السر وأخفى؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق؛ وهم أجيال متعددة، منهم من كان مخلوقاً ومنهم من خلق وقت نزول القرآن ومنهم من خلق على أجيال متعددة تعدَّت الأربعة عشر قرناً ومنهم لم يخلق حتى الآن، وكلنا يعلم بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة؛ حتى يرث اللَّه الأرض ومن عليها، فلا غرو أن يضمنه منزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم وليس ذلك في قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفيات السموات والأرض: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٦]

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

[سورة طه، الآيات: ٤ ـ ٦]

ومن شواهد ما نذكر، **أننا نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار**، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع، وافياً تجارب الجميع، ملائماً لأذواق الجميع، متفقاً ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة، على أنه كلام اللَّه وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى باللَّه شهيداً.

ولنرجع عوداً على بدء إلى أسلوب القرآن ولنذكر شيئاً من خصائص

أسلوب القرآن ومزاياه التي انفرد بها، وكانت هي السر في إعجازه اللغوي أو البلاغي أو الأسلوبي.

خصائص أسلوب القرآن:

إن الخصائص التي امتاز بها القرآن، والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقلامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قُلاً من كثر وقطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزّله الذي عنده علم الكتاب.

وإذاً فلنذكر نحن بدورنا شيئاً من خصائص أسلوب القرآن، على وجه التمثيل والتقريب أيضاً... وما لا يدرك كله فلا يترك أقله.

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية: فإنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

١ - ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور، وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية، وهي مرسلة على وجه الدلالة في الهواء؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات، كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ المجود، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزاً بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكنات، نقول: إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية يشعر من نفسه ولو كان أعجمياً لا

يعرف العربية، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً وإن طالت، على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل لأنه يتنقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب، وأعصاب الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؟ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، أخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم يعرفوا شيئاً منها إلا في الشعر ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا، حتى قال قائلهم ـ وهو الوليد بن المغيرة ـ: «وما هو بالشعر» معللاً ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه[1] ولا في قصيده، بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ، حين زعم في ظلام العناد والحيرة أنه سحر، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية، بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه، ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور لكنه معجز ليس كمثله كلام لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء، وما هو بالشعر ولا بالسحر، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه، والقرآن ليس منه ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم، هذا إلى أن القرآن كله، ما هو إلا دعوة طيبة

(١) الرجز: ضرب من الشعر وزنه مستفعلن ست مرات، وزعم الخليل أنه ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات أو أثلاث؟ قاموس.

لأهداف طيبة، لا محل فيها إلى خبث ورجس، بل هي تحارب السحر وخبثه ورجسه، وتسمه بأنه كفر، إذ قال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٠٢]

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل فليس بمعجز، ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قِبَله (بكسر القاف وفتح الباء) قال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فواللَّه ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن واللَّه ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، وواللَّه إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته! قال أبو جهل للوليد: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، فقال الوليد: دعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾.

[سورة المدّثر، الآيات: ١١ ـ ٢٥]

.. رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري.

فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية، وبديهتها الفطرية كيف أنصف في حكمه، حين تجرد ساعة من عناده وكفره وقال: واللَّه ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا إلى أن قال: وإنه ليحطم ما تحته، ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته، وعاوده عناده وتعصبه، كيف قاوم

فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه، وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب في ضلاله وحيرته، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إلخ، نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه. . . آمين.

٢ ـ ونريد بجمال القرآن اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب، ونظاماً تعاطاه الناس في كلامهم، وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات هذا ينفرد وذاك يصفر، وهذا يخفي وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد. . ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم وضع كلّاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان **حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش،** وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذاك النظام الصوتي أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

[سورة الحجر، الآية: ٩]

الخاصة الثانية:

إرضاؤه العامة والخاصة ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قُرئ عليهم؛ أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك يكون كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه، وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

الخاصة الثالثة:

إرضاؤه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه مثلاً وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال اللّه سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٣٩]

.. وإذ قال في سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

[سورة ق، الآيات: ٦ ـ ١١]

تأمل في هذا الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في

الآية الأولى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾، وفي الآيات الأخيرة: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات!

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلاً، كيف يأتي من خلالها بالعظات البالغة ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك الرواية الرائعة: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

[سورة يوسف، الآية: ٢٣]

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان! وهكذا تجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية ورجِّ العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية! وهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا ثم لا، بل كلامهم إن وفَّى بحق العقل بخس العاطفة حقها، وإن وفَّى بحق العاطفة بخس العقل حقه، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما: أسلوب علمي وأسلوب أدبي: فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم.

وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس، وتجد في كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمي ما لا يغذي الأفكار ويقنع العقول؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة، وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البدل والمناوبة، فكلام الشخص إما وليد فكرة، وإما وليد عاطفة، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور، أما أن تأتي كل جملة من جمله جامعة للغايتين معاً فدون ذلك صعود السماء، وكيف يتسنى

ذلك للإنسان وهو لم يوهب القوتين متكافئتين، ولو تكافأ لديه فإنه لا يستطيع أن يوجههما اتجاهاً واحداً في آن واحد متقارنتين ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ أما القرآن فإنه انفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن، والذي جمع بين الروح والجسد في قرآن ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الخاصة الرابعة:

جودة سبك القرآن وإحكام سرده ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد.

وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم؛ وجدت منه جسماً كاملاً، تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتاباً سوى الخلق حسن السمت ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٢٨]

فالمراد هنا أن القرآن مترابط الأجزاء متناسب تناسباً قوياً.

فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتميل بالعقول والأفكار على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة، لكل حلقة وضع خاص من السبيكة، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متآلفة تُرِيكَ كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن كل من ألقى باله إلى التناسب

الشائع فيه، من غير تفكك ولا تخاذل، ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة، فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك، وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات، ونكتفي بمثل واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

هذه سورة الفاتحة، تأمل كيف تترابط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد: لقد افتتحت متوجة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ كما يُتوج القاضي كل حكم من الأحكام باسم جلالة الملك لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعاً إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال، وبوصف لفظ الجلالة أنه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق المحامد كلها، ما دام أنه المستعان وحده بالدليل، ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاث جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته في ألوهيته وربوبيته، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده، ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق اللّه وحده، بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام، تنبيهاً وإغراء على المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع في نقيض هذا المقصود ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضال رضي أن يعيش عيشة الأنعام، في متاهة الجهالة والحيرة والضلال لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه، ثم تنظر في سورة البقرة، فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل، فالهداية إلى الصراط المستقيم

صراط من أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن، حيث جاءتنا بتفاصيل هذه الهداية، في بيان كامل، وعرض شامل.

أما بعدُ، فقد يظن بعض الناس، أن هذه الوحدة الفنية البيانية في القرآن أمر هين لا يسمو إلى حد التنويه به، فضلاً عن أن ينظم في عداد ما هو مناط للإعجاز ولأجل الرد على هؤلاء، نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة في كلام البلغاء وحملة الأقلام فإن لم يكن عندهم نظر ولا ذوق فليستمعوا إلى حكم نَقَدَةِ البيان وصيارفته عليهم، بأنهم كثيراً ما يخطئون في تنظيم أغراضهم إذا قالوا، بل يأتون بها شيئاً مفككاً غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى غرض في القصيدة الواحدة ومما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافي هذا النقص بما يستخدمون من تنقلاتهم بين أغراضهم، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنونة ولفظ أما بعد نحو هذا وإن وألا وإن قلنا كذا ونقول كذا.

هذا في كلام البشر، أما كلام مالك القوى والقدر، فإنه على تنوع أغراضه وطول نفسه في سوره وآياته ينتقل من مقصد إلى مقصد وينقلك أنت معه بين هذه المقاصد غير مستعين بوسائل العجز المذكورة، بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر، وحسبك أن تنظر في المثال الآنف الذي قدمناه لك في سورة الفاتحة وحبذا أن تنظر في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة، فإنك ستطرب وتعجب وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر، وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد في بيان هذا اللون وأبدع وأشبع العقول وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين آحاد هذه السورة.

الخاصة الخامسة:

براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهو بين من الفصحاء والبلغاء، ولسنا هنا بسبيل

الاستيعاب والاستقراء، ولكنها أمثلة تهديك ونماذج تكفيك:

أ ـ منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١ ـ الإتيان بصريح مادة الأمر، نحو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٥٨]

٢ ـ والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين، نحو: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٣]

٣ ـ والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٩٧]

٤ ـ والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]

أي مطلوب منهن أن يتربصن.

٥ ـ والإخبار عن المبتدأ معنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٩٧]

.. أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم.

٦ ـ وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو: ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٣٨]

.. أو بلام الأمر، نحو: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٢٩]

٧ ـ الإخبار عن الفعل بأنه خير ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٢٠]

٨ ـ ووصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر، نحو: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٩]

٩ ـ ووصف الفعل بالفرضية، نحو: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٥٠]

.. أي من بذل المهور والنفقة.

١٠ ـ وترتيب الوعد والثواب على الفعل، نحو﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

[سورة الحديد، الآية: ١١]

١١ ـ وترتيب الفعل على شرط قبله نحو﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٩٦]

١٢ ـ وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام، نحو﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٧]

.. أي تذكروا.

١٣ ـ وإيقاع الفعل عقب ترجٍّ نحو: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٥]

١٤ ـ وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٤٤]

ب ـ ومنها تعبيره عن النهي بالوسائل الآتية:

١ ـ الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي، نحو: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

[سورة الممتحنة، الآية: ٩]

٢ ـ والإتيان في جانبه بمادة التحريم، نحو: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٣٣]

٣- ونفي الحل عنه، نحو: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٩]

٤ - والنهي عنه بلفظ لا، نحو: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٥٢]

٥ - ووضعه بأنه ليس براً، نحو: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٩]

٦ - ووصفه بأنه شر، نحو: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٨٠]

٧ - وذكر الفعل مقروناً بالوعيد، نحو: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ٣٤]

٨ - وذكر الفعل منسوباً إليه الإثم، نحو: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨١]

٩ - ١٥ - ونظم الأمر في سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة، والإخبار عن الفعل بأنه رجس، ووصفه بأنه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه ورجاء الفلاح في تركه، وترتيب مضار مؤذيه على فعله، والأمر بالانتهاء عنه في صورة الاستفهام، ونمثل لهذه الطرق كلها، بتحريم الخمر والميسر في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

[سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١]

ج - ومنها تعبيره عن إباحة الفعل بالطرق الآتية:

١ - التصريح في جانبه بمادة الحل، نحو: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ١]

٢ ـ والأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب، نحو: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٦٠]

٣ ـ ونفي الإثم عن الفعل، نحو: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧٣]

٤ ـ ونفي الحرج عنه، نحو: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

[سورة الفتح، الآية: ١٧]

أي ترك القتال، أو في الأكل في البيوت[1].

٥ ـ ونفي الجناح عنه في غير ما ادعى فيه الحرمة، نحو: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٩٣]... إلخ[2]

أما ما ادعى فيه الحرمة فإن نفي الجناح عنه يصدق بوجوبه نحو: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٥٨]

٦ ـ وإنكار تحريمه في صورة استفهام، نحو: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٣٢]

٧ ـ والامتنان بالشيء ووصفه بأنه رزق حسن، نحو: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٦٧]

---

(١) تجد هذا النص الكريم في سورة الفتح عقب توعد من يتخلف عن القتال في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ إلخ ثم تجد هذا النص الكريم أيضا في سورة النور نازلاً بسبب، وهو أن المسلمينً كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون ويقولون: نخشى ألا تكون نفوسهم بذلك طيبة.

(٢) نزلت فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم، فقرر لهم أن ذلك كان مباحاً لهم.

وهكذا تجد القرآن يَفْتَنُّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم غيبة وخطاب ومضي وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد إلى غير ذلك، ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط كثيراً ما تجده سريعاً لا يجاري في سرعته، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مكباً على وجهه، مضطرباً أو متعثراً، بل هو محتفظ دائماً بمكانته العليا من البلاغة ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٢٢]

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان لباساً فضفاضاً من الجدّة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يمل قارئه، ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون؛ كما ينتقل الطائر في روضة غناء من فَنَن إلى فَنَن؛ ومن زهر إلى زهر.

واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو؛ كان فناً من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه مِنَّة منَّها اللَّه على الناس، ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعاً، وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه، اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٩]

وقوله سبحانه في سورة الكهف: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٥٤]

وقوله سبحانه في سورة الرعد: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٧]

الخاصة السادسة:

جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان

في كلام واحد للناس! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين[١] لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة، فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد، أما أنها بينة أو مبينة (بتشديد الياء وفتحها) فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً، وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار، بقدر ما تصيب أنت من النظر ما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يـزيـدك وجـهـه حـسـنـاً إذا مـا زدتـه نـظـراً

ولهذا السر وسع كتاب اللّه جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة، شفاء أنفسهم وعقولهم فيه، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به، ولا كذلك البشر في كلامهم، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم، ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل، وإذا قصدوا إلى إجمالها، لم يتضح ما أرادوه، وربما التحق عندئذ بالألغاز وما لا يفيد.

والأمر فيه هذه الخاصة ظاهر غني بظهوره عن التمثيل، وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير، ففيها من ذلك الشيء الكثير ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

الخاصة السابعة:

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن، تجد بياناً قاصداً مقدراً على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر على الوفاء بحاجات

(١) المجمل ما له دلالة غير واضحة، فخرج المهمل والمبين، والمبين ما لا خفاء فيه لا ما وقع إليه السياق، مثال الأول لفظ القرء ولفظ مختار، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ لأن الأول متردد بين الحيض والطهر، والثاني بين الفاعل والمفعول، والثالث مجهول معناه قبل نزول آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ والمبين نحو: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾ ـ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾.

الخلق من هداية الخلق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئاً يعتبر عنصراً أصلياً فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئاً يعتبر دخيلاً فيها وغريباً عنها، بل هو كما قال الله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن، بل كل منطيق بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان، تجده بين هاتين الغايتين، كالزوج بين ضرتين بمقدار ما يرضي إحداهما يغضب الأخرى، فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه، حمله ذلك في الغالب على أن يغض من شأن المعنى، فتجيء صورته ناقصة خفية ربما يصل اللفظ معها إلى حد الألغاز والتعمية، وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة، حمله على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ راكباً متن الإسهاب والإكثار، حرصاً على ألا يفوته شيء من المعنى الذي يقصده ولكن يندر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة في إسرافه وفضوله، تلك التخمة التي تذهب ببهائه ورونقه، وتجعل السامع يتعثر في ذيوله لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله.

وإذا افترضنا أن بليغاً كتب له التوفيق بين هاتين الغايتين ـ وهما القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى ـ في جملة أو جملتين من كلامه فإن الكلال والإعياء لا بد لاحقاً به في بقية هذا الكلام، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية، إلا في الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس في الحين بعد الحين، وهو يبحث في التراب أو ينقب بين الصخور.

وإن كنت في شك فسائل أئمة البيان وصيارفته: هل ظفرتم بقطعة من النثر، أو بقصيدة من الشعر، كانت كلها أو أكثرها جامعاً بين وفاء المعنى وقصد اللفظ؟ ها هم أولاء يعلنون حكمهم صريحاً بأن أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا في أبيات معدودة من قصائد محدودة أما سائر شعرهم بعد فبين متوسط ورديء، وها هم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه، على الناثرين من الخطباء والكتاب.

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة، فافتح المصحف الشريف مرة واعمد إلى جملة من كتاب اللّه وأحصها عدداً، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أي كلام آخر، وقارن بين الجملتين، ووازن بين الكلامين، وانظر أيهما أملأ بالمعاني مع القصد في الألفاظ؟ ثم انظر أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها في ذلك الكلام الإلٰهي؟ وكم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها في ذلك الكلام البشري؟ إنك إذا حاولت هذه المحاولة فستنتهي إلى هذه الحقيقة التي أعلنها ابن عطية فيما يحكي السيوطي عنه وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول: «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد» اهـ. . وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا، حتى كلام رسول اللّه ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وأشرقت نفسه بنور النبوة والوحي، وصيغ على أكمل ما خلق اللّه، فإنه مع تحليقه في سماء البيان، وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن، وسبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم!

تعليق وتمثيل: يحلو لي أن أسوق إليك هنا كلمة قيمة، فيها تعليق وتمثيل لما نحن بصدده، وهي لصديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد عبد اللّه دراز في كتابه (**النبأ العظيم**) الذي اقتبسنا منه فيما يتصل بإعجاز القرآن الكريم.

«قلنا: **إن القرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني**، أجل: تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازاً كله، لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلي بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها، **فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى**». . دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية: إنها «مقحمة» وفي بعض حروفه إنها «زائدة» زيادة معنوية.

ودع عنك قول الذي يستخف كلمة التأكيد فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح

لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به.

أجل: دع عنك هذا وذاك؛ فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها، إنما هو ضرب من الجهل ـ مستوراً أو مكشوفاً ـ بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن، وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، **فإن عَمِيَ عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون**، ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: «**اللَّه أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه**» ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلاً: «أين أنا من فلان وفلان» كلا، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل، ألا تدري إلى قصة عمر عن الأحجية المشهورة[1] فجد في الطلب ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

[سورة طه، الآية: ١١٤]

. . . فعسى اللَّه أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عمي على غيرك ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٧]

ولنضرب لك مثلاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ١١]

أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي في التشبيه، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن

---

(١) قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤) وقال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها لمثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فخفي على القوم علمها، وجعلوا يذكرون أنواعاً من شجر البادية، وفهم ابن عمر أنها النخلة، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سناً، وفيهم أبو بكر وعمر، فقال ﷺ: «هي النخلة» الحديث رواه الشيخان. . وفي القرآن ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

مثل اللَّه، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه: أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه، لأن السالبة كما يقول علماء المنطق تصدق بعدم الموضوع، أو لأن النفي ـ كما يقول علماء النحوـ قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعاً، تقول: ليس لفلان ولد معاوية، إذا لم يكن له ولد قط، أو كان له ولد لا يعاونه، وتقول: ليس محمد أخاً لعلي، إذا كان أخاً لغير علي أو لم يكن أخاً لأحد، وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها: إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً، لأن نفي مثل المثل يتبعه العقل نفي المثل أيضاً، وذلك أنه لو كان هناك مثل اللَّه، لكان لهذا المثل مثل قطعاً وهو الإلٰه الحق نفسه، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبه، وإذاً لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل، وهو المطلوب.

وقصارى هذا التوجيه ـ لو تأملته ـ أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته، ولا يبين مسيس الحاجة إليه، ألست ترى أن مؤدي الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً من التعمية والتعقيد، وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول: هذا أخو فلان، فقال: هذا ابن أخت خالة فلان؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد، ذلك الاسم الذي لا نعرف له مسمى ها هنا، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً البتة، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان.

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوة دلالته، قائما بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه، ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلكاً من الآخر: **(الطريق الأول)** وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لكان ذلك نفياً للمثل المكافئ وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ إذ إن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه، وإذاً لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإلٰه الحق شبه ما في قدرته أو علمه،

وشرك ما في خلقه أو أمره فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً للّه، فضل على أن يكون مثلاً له على الحقيقة وهذا باب من التنبيه الأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ نهياً عن يسير الأذى صريحاً، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

(الطريق الثاني) وهو أدق مسلكاً: أن المقصود الأول من هذه الجملة ـ وهو نفي الشبيه ـ وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: (ليس كاللّه شيء) أو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم، تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه قلت: «فلان لا يكذب ولا يبخل» أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها ـ فإذا زدت فيه كلمة فقلت: (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائض، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم.

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة الحكيمة قائلة: (مثله تعالى لا يكون له مثل) تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه، فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً.

فالتشبيه المدلول عليه (بالكاف) لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ (المثل) المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع: لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال لوازمه وآثاره العلمية، حسب ما

أرشد إليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه: ويقر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار، فكأننا بها تقول لنا: «إن حقيقة الإلٰه ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها، كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص، أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الآلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والأثينية؛ لأنك مهما حققت معنى الآلهية حققت تقدماً على كل شيء وإنشاء لكل شيء ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وحققت سلطاناً على كل شيء، وعلواً فوق كل شيء ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت، إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبوقاً ومُنْشِئاً مُنْشَأً ومستعلياً مستعلى عليه، أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما، إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً، فأنى يكون كل منهما إلٰهاً، وللإلٰه المثل الأعلى؟!

أرأيت كم أفدنا من هذه (الكاف) وجوهاً من المعاني كلها شاف كاف، فاحفظ هذا المثال، وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظام الحكيم حرفاً حرفاً» وهو كلام جد نفيس، فاحرص عليه.

الشَّبَهُ العامُّ في اللفظِ وفي المَعنَى:

وردت مجموعة من الآيات، تُؤَدي معنى واحداً أو تتقارب في المعاني أو تكمل بعضها بعضاً في المعاني، لكن ألفاظها مختلفة بعض الشيء، هي:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٤٥]

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٤٣]

في الآية الأولى: زكّى هيأتهم في الصلاة وأداءهم لها، فأخذ الجانب الشكلي.

في الآية الثانية: زكّى قلوبهم وزكّى إيمانهم وزكّى دينهم، فهم خاشعون ومؤمنون ومهتدون.

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١١٣]

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١١٨]

ـ تكملة الأولى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١١٣]

والآية الثانية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١١٨]

فالمعاني في الآيتين واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ١٧٣]

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٣]

في الآية الأولى: أشار إلى عدم الرغبة في التجاوز، وإلى محدودية الرخصة المرهونة بظرفها وحالتها.

في الآية الثانية: بيَّنَ سبب الرخصة ـ المخمصة ـ مع الكره لها وعدم الرغبة فيها والميل إليها والابتعاد عنها بعد الانفكاك من أسبابها(١).

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢٤٥]

﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ١٢]

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

[سورة الحديد، الآية: ١١]

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

[سورة التغابن، الآية: ١٧]

الآية الأولى: تتحدث عن الأجر في الدنيا فتحدثت عن الأضعاف المضاعفة والكثيرة.

الآية الثانية: تحدثت عن الأجر في الآخرة، تكفير السيئات ودخول الجنات.

الآية الثالثة: تتحدث عن المضاعفة وعن الأجر، وتصف لنا هذا الأجر بأنه أجر كريم.

الآية الرابعة: تتحدث عن المضاعفة أيضاً وعن المغفرة للذنوب.

---

(١) ينظر الكشاف ١/ ٣٢٩، ٥٩٤، والمفردات: ٧٢، ١٤١، ٤٨٩.

فهناك مضاعفة في الدنيا، مغفرة وتكفير للسيئات، وإدخال للجنات وإكرام وزيادة في الأجر، فالآيات تكمل بعضها بعضاً، وتغطي المسألة من جميع جوانبها.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥١]

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٤٠]

في الآية الأولى: لولا أن اللَّه يهيئ المؤمنين الخيرين ليدفع بهم شرور الكافرين لفسدت الأرض.

فركز فيها على أثر المؤمنين وشرور الكافرين، وأعطى النتيجة النهائية.

في الآية الثانية: بين أسباب الفساد وأسباب الصلاح، فقال: الصوامع والبيع والصلوات والمساجد، فوجودها وإقامتها صلاح للأرض، وهدمها فساد لها.

فغطى الجانبين، أثر الكافرين وأثر المؤمنين، وأسباب الفساد، وأسباب الصلاح.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾.

[سورة طه، الآية: ١١٠]

في الآية الأولى: نفى إحاطتهم بعلم اللَّه، إلا بما شاء هو وأراد.

في الآية الثانية: نفى إحاطتهم بذات اللَّه.

هو يعلم كل شيء ويحيط علمه بكل شيء ويسع علمه كل شيء، وهم لا يعلمون ولا يحيطون بشيء إلا بما شاء هو وأراد من المعلوم.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١١٠]

الآية الأولى: سبقها الأمر بالاعتصام بحبل اللّه جميعاً، وفي الآية نفسها بعض في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها مهمة صعبة وتحتاج إلى من له علم بالمعروف وعلم بالمنكر[(١)] .

في الآية الثانية: ذكر الزمخشري أن معنى «كنتم: أي وجدتم أو كنتم في علم اللّه أو كنتم مذكورين في الأمم قبلكم»[(٢)] . ويضيف بأن اللّه تعالى عندما أمر الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أراد أن يعلي هممهم على الدعوة إلى اللّه، وأداء المهمة، لأنكم أكثرهم إيماناً به والتزاماً بأوامره واجتناباً لنواهيه، لأنه أتبع الأولى بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ .

[سورة آل عمران: ١٠٥]

وأكمل الثانية بقوله: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١١٠]

واللّه أعلم.

﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٢٢]

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٢٤]

المعنى واحد واللفظ مختلف، فقط الآية الثانية فيها زيادة كلمة (أبداً) وهي تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول.. ما داموا فيها بيان للأبد[(٣)] .

---

(١) ينظر الكشاف: ١/ ٤٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٤.

(٣) الكشاف: ١/ ٦٠٤.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٤٨]

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ١٦٥]

الآية الأولى: تدل على الاختلاف بين الأمم.

والآية الثانية: تدل على الاختلاف في الأمة الواحدة، وكل ذلك بمشيئة الله وامتحان للبشر.

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ .

[سورة التوبة، الآية: ٥]

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

[سورة التوبة، الآية: ١١]

الآية الأولى: تتحدث عن العفو عن المشركين ورفع الحصار عنهم (فإن تابوا...).

الآية الثانية: تتحدث عن المرحلة الثانية من التعامل معهم، فإن صدقت توبتهم وصدقوا فيها ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ والله أعلم.

﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٦٢]

﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٨٧]

﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ .

[سورة إبراهيم، الآية: ١٠]

في الآية الأولى: نهي عن العبادة.

وفي الثانية: نهي عن المعبود.

وفي الآية الثالثة: منع ونهي عن الاقتراب من المعبود، وانصراف وتحويل إلى عبادة أخرى[١].

---

(١) ينظر المفردات: ٤٠٧.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ .

[سورة الرعد، الآية: ١٢]

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ .

[سورة الروم، الآية: ٢٤]

في الآية الأولى: يتحدث عن آية من آيات الله وهي إنشاء السحاب.

في الآية الثانية: يتحدث عن آية أخرى وهي إنزال الماء من السحاب، وكل آية تكمل الأخرى.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٢]

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

[سورة الجاثية، الآية: ١٢]

في الآية الأولى: قدم لنا جزءاً من الصورة.

وفي الآية الثانية: قدم لنا الجزء الثاني لتكملة الصورة، فالفلك مسخرة، والبحر مسخر، وكل شيء خاضع لإرادة الله ومسخر بأمره.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

[سورة النحل، الآية: ٥٨]

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

[سورة الزخرف، الآية: ١٧]

المعنى واحد واللفظ مختلف، وإنما قال في الأولى بالمباشر، وفي الثانية بالإشارة.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

[سورة الكهف، الآية: ١٠٩]

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة لقمان، الآية: ٢٧]

عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بأسلوبين مختلفين، ليجزم بأن كلمات اللَّه لا تنفد أبداً.

وقال في الأولى: بالمداد.

وقال في الثانية: بالأقلام.. مع التكثير والزيادة الكبرى عما في الأولى.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٦٥]

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾.

[سورة لقمان، الآية: ٣٢]

الآية الأولى: تقدم لنا حالة الناس في الظروف الطبيعية فهم عندما يسافرون من مكان إلى آخر يتوكلون على اللَّه ويخلصون نيتهم له كي ينجيهم، مخافة أن يصيبهم مكروه، فإذا وصلوا سالمين، إذا هم يشركون باللَّه وينسون دعاءهم وعهدهم.

الآية الثانية: تتحدث عن مشهد آخر، وهو حالهم عندما يتعرضون لخطر داهم في الطريق حيث يدعون اللَّه مخلصين له الدين لينجيهم من هذا الكرب العظيم فإذا نجاهم تجد قسماً منهم يتردد في إيمانه ويخلط عملاً طيباً وآخر سيئاً[1] متناسياً ما حصل له، وما حصل منه.

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٣٥]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٥٦]

في الآية الثانية: بين أسباب جدالهم: الكبر، وليس غيره.

---

(١) ينظر المفردات: ٦١٠.

في الآية الأولى: بين لنا عقوبة هؤلاء المتكبرين الجبارين، بأن يغلق قلوبهم ويعمي أبصارهم عن الحق[١].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٣٠]

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

[سورة الحديد، الآية: ٢٢]

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

[سورة التغابن، الآية: ١١]

المراد بالمصائب: الأحوال المكروهة، واختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فمنهم من أثبت أن هذه المصائب تقع عقوبات على ذنوب سلفت، ومنهم من أنكر ذلك، وجاء كل منهم بأمثلة من القرآن والحديث.

الدنيا دار تكليف، والآخرة دار جزاء، فكيف تكون دار تكليف وجزاء[٢]؟

الشيخ متولي الشعراوي كان أكثر علمية في تفسير هذه الآية فقال: «أعمال الجوارح ناشئة بحركاتها من تعب نفسي، والنفس مسيطرة خاضعة لها في الدنيا، وفي الآخرة السيطرة تكون للّه، فعندما تكون النفس مستقيمة لا تسمح للجوارح بارتكاب الأخطاء، فإذا أردت أن تستقيم لك حياتك فحافظ على منهج اللّه معك، فإن اللّه لا يغير نعمته إلا إذا غير الناس منهجه.

في الآية الثانية، قالوا: لا توجد مصيبة من هذه المصائب إلا وهي مكتوبة عند اللّه»[٣].

وفي الآية الثالثة قالوا: وبعلمه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٣٢]

---

(١) ينظر المفردات: ٢٠٥.

(٢) التفسير الكبير م ١٤/ج٢٧/ ١٧٤.

(٣) التفسير الكبير: م١٥/ج٢٩/ ٢٣٧.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

[سورة الرحمن، الآية: ٢٤]

في الآية الأولى: يقدم لنا آية من آياته الدالة على قدرته.

في الآية الثانية: يقدم الدليل على تحكمه بكل شيء وسيطرته على كل شيء، وإليه يعود كل شيء، وملكيته لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومن ذلك الجوار المنشآت في البحر كالأعلام.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

[سورة ق، الآية: ١٦]

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

[سورة الواقعة، الآيات: ٨٣ ـ ٨٥]

الآية الأولى: تتحدث على قرب اللّه إلى الإنسان في داخل ذاته، وفي كل عضو من أعضائه.

والآية الثانية: تتحدث على قرب اللّه إلى الإنسان من كل الناس الآخرين، وأن المسافة التي بينه وبين اللّه أقرب من المسافة التي بينه وبين أقرب الناس إليه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

[سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣]

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ٤]

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ٥]

الآية الأولى: تتحدث عن الضنك والرزق والأشياء المحيطة بالإنسان.

الآية الثانية: تتحدث عن معاناة الإنسان في ذاته وفي داخله، لأنها تتحدث عن الحمل والولادة.

الآية الثالثة: تتحدث عن الأجر والثواب في الدنيا والآخرة..

التصوير الفني في القرآن الكريم

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن: فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة، فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية؛ وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة؛ لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن.

والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها؛ حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد، أو حالة نفسية أو صفة معنوية أو نموذج إنساني أو حادثة واقعة أو قصة ماضية أو مشهد من مشاهد القيامة، أو حالة من حالات النعيم والعذاب، أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل أو محاجة بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً واعتمد فيه

على الواقع المحسوس، والمتخيل المنظور، وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا: «إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن» فليس هو حلية أسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتفق، إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معينة، يفتن في استخدامها بطرائق شتى، وفي أوضاع مختلفة، ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة: قاعدة التصوير.

ويجب أن نتوسع في معنى التصوير حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن، فهو تصوير باللون، تصوير بالحركة وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل.

وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان.

وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة وخطوط جامدة وتصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات، بالمشاعر والوجدانات، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة[١].

المعاني الذهنية في صور حسية:

١ - يريد أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل، هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة، ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٤٠]

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لو لوج الحبل الغليظ في سم الخياط؛ ويختار أسماء الحبل الغليظ اسم (الجمل) خاصة في هذا المقام؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال

(١) التصوير الفني في القرآن.

بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة؛ في أعماق النفس، وقد وردا إليها من طريق العين والحس ـ تخييلاً ـ وعَبَرَا إليها من منافذ شتى في هينة وتؤدة.

٢ ـ يريد أن يبين أن اللّه سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها رداً فيقدم هذا المعنى مصوراً في قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٢٣]

ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور، فتعطيك معنى أوضح وآكد، للضياع الحاسم المؤكد.

٣ ـ أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ١٨]

فتزيد الصورة حركة وحياة، بحركة الريح في يوم عاصف، تذرو الرماد وتذهب به بدداً إلى حيث لا يتجمع أبداً.

٤ ـ ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها المن والأذى، لا تثمر شيئاً ولا تبقى، فينقل إليهم هذا المعنى المجرد، في صورة حسية متخيلة على النحو التالي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦٤]

ويدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوي، غطته طبقة خفيفة من التراب، فظنت فيه الخصوبة، فإذا وابل من المطر يصيبه، وبدلاً من أن يهيئه للخصب والنماء ـ كما شيمة الأرض حين تجودها السماء ـ إذا به ـ كما هو المنظور ـ يتركه صلداً، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره، وتخيل فيه الخير والخصوبة.

ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء، ومعنى

الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦٥]

فهذا الوجه الثاني للصورة، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى، فهذه الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة اللّه، هي في هذه المرة كالجنة، لا كحفنة من تراب، وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان، فالجنة هنا فوق ربوة، وهذا هو الوابل مشتركاً بين الحالتين، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق، وفي الحالة الثانية يربي ويخصب، في الحالة الأولى يصيب الصفوان، فيكشف عن وجه كالح كالأذى، وفي الحالة الثانية يصيب الجنة فيمتزج بالتربة فيخرج (أكلاً) ولو أن هذا الوابل لم يصبها فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات، ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها! فإن لم يصبها وابل فطل.

ولا أريد أن أتعرض هنا لذلك التناسق العجيب في جو الصورة، وفي تماثل جزئياتها، وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة فيها، حيث يكون الصفوان تغشيه طبقة خفيفة من التراب، مثلاً للنفس المؤذية تغشيها الصدقة تبذل رياء (والرياء ستار رقيق يخفي القلب الغليظ) وحيث توضع الجنة فوق ربوة، في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان...

٥ ـ ثم يعود إلى ذلك المعنى مرة أخرى فيقول: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١١٧]

فيرسم صورة الحرث تأخذه الريح فيها برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، كالذي ينفق ماله وهو كافر، ويرجو الخير فيما أنفق فيذهب الكفر بما كان يرجوه.

ولا يفوتنا ما في جرس كلمة «صر» من تصوير لمدلولها، وكأنما هو قذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه، وذلك لون من التناسق، سنعرض له كذلك في فصله الخاص.

٦ ـ ويريد أن يبرز معنى: أن اللّه وحده يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه، وأن الآلهة التي يدعونها مع اللّه لا تملك لهم شيئاً ولا تنيلهم خيراً، ولو كان الخير قريباً، فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٤]

وهي صورة تلح على الحس والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة؛ وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حي شاخص، باسط كفيه إلى الماء، والماء منه قريب، يريد أن يبلغه فاه، ولكنه لا يستطيع.

٧ ـ ويبين أن الآلهة الذين يعبدون من دون اللّه، لا يسمعون ولا يجيبون، لأنهم لا يعون ولا يتبينون، وأن دعاء عُبَّادِهم لهم عبث لا طائل وراءه، فيختار صورة تبين هذا المعنى، وتجسم هذه الحالة، وتلمس الحس والنفس بأقوى مما تلمسهما العبارات العادية عن المعاني الذهنية: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧١]

... هكذا ينعق الكفار بما لا يُسْمَع وينادون ما لا يفهم، فلا يصل إليه من أصواتهم إلا دعاء مبهم، ونداء لا يفهم، فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها، وهذا مثل ولكنه صورة شاخصة، صورة جماعة يدعون آلهة تصل إليها أصواتهم مبهمة، فلا تفهم مما وراءها شيئاً وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعوتهم، بجانب غفلة المدعوين واستحالة إجابتهم!.

٨ ـ ويريد أن يجسم ضعف هؤلاء الآلهة، أو الأولياء من دون اللّه عامة، ووهن الملجأ الذي يلجأ إليه عبادهم حين يحتمون بحمايتهم، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٤١]

... فهم عناكب ضئيلة واهنة، تأوي من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيوت العنكبوت أوهن وأضأل، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن، جهلاً وغفلة، حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور.

٩ ـ ويريد أن يبين الذي يشرك بالله، لا منبت له ولا جذور ولا بقاء له ولا استقرار، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات، عنيفة الحركات: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٣١]

... هكذا في ومضة يخر من السماء من حيث لا يدري أحد فلا يستقر على الأرض لحظة، إن الطير لتخطفه، أو إن الريح لتهوي به... وتهوي به في مكان سحيق! حيث لا يدري أحد كذلك! وذلك هو المقصود.

١٠ ـ ويريد أن يثبت معنى الحرمان والإهمال في الآخرة لهؤلاء الذين عاهدوه، ثم أخلفوه، ابتغاء نفع مادي قليل، شأن من لا عهد له، ولا احترام لكلمته، فيرسم لهذا الإهمال المعنوي صورة حسية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٧٧]

... فيوضح معنى الإهمال لا بألفاظ الإهمال، ولكن برسم الحركات الدالة عليه: لا كلام، ولا نظر، ولا تزكية، وإنما عذاب أليم.

تصوير الحالات النفسية والمعنوية

١ ـ يريد أن يبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، فيرسم هذه الصورة المحسة المتخيلة: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٧١]

. . . فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض (ولفظ الاستهواء لفظ مصور لمدلوله) ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون له راحة ذي القصد الموحد ـ ولو كان في طريق الضلال ـ ولكن هناك من الجانب الآخر، إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه «ائتنا» وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» موزع القلب، لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا أي الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت!.

٢ ـ ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيئ اللّه لهم المعرفة، فيفرون منها كأن لم تهيأ لهم أبداً، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم، بما عملوا وبما جهلوا؛ فلا هم استراحوا بالغفلة، ولا هم استراحوا بالمعرفة، فيرسم لهم هذه الهيئة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾.

[سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦]

. . . وفي الصورة تحقير وتقدير ـ وذلك غرض ديني لا شأن لنا به هنا ـ ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة، فيها الحركة الدائبة، وهي صورة معهودة، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى، هكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن.

٣ ـ ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ؛ ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته، بعيدة عن ميزان الربح والخسارة، فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح، وتوشك على الانهيار: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

[سورة الحج، الآية: ١١]

. . . إن الخيال ليكاد يجسم هذا «الحرف» الذي يعبد اللّه عليه هذا بعض من الناس وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأو

ضح مما يؤديه وصف التزعزع، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس.

فالاختلاف الذي طرأ هو مجرد إدراكي اليوم أن هذا مثل يضرب لا حقيقة تشهد، وذلك إعجاز التعبير الذي تتقارب في إدراكه شتى المدارك، وتصل في كل حالة إلى صورة حية، مع اختلاف الأفهام.

٤ ـ ومما هو بسبيل من ذلك في غرض آخر غير هذا الغرض، تلك الصورة التي رسمها للمسلمين قبل أن يسلموا، يوم أن كانوا معرضين لجهنم بما هم فيه من الكفر، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]

هكذا: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ موشكين على الوقوع، تكاد أقدامكم تزل فتهوون، وليس المهم لدينا ـ في هذا المجال ـ دقة التشبيه وصيرورته، إنما المهم أولاً هو هذه الصورة القلقة المتحركة الموشكة في الخيال على الزوال، ولو استطاعت ريشة مصور بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيلة في صورة صامتة لكانت براعة تحسب في عالم التصوير، والمصور يملك الريشة واللوحة والألوان، وهنا ألفاظ فحسب يصور بها القرآن، ثم ننظر إلى جمال التعبير من زاوية أخرى: إذ يرسم هذه الصورة، ثم يجعل هذه الحفرة من النار، ويجعلهم على شفا منها، فيطوي الحياة الدنيا كلها ـ وهي الفاصل بينهم وبين النار ـ ويجعلهم ـ وهم بعد أحياء، وهم بعد في الدنيا ـ واقفين هذه الوقفة، على شفا حفرة من النار، حينما كانوا من الكفار!

٥ ـ وشبيهة بهذه الصورة صورة أخرى، لمن يقيم بنيانه على غير التقوى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾؟

[سورة التوبة، الآية: ١٠٩]

... فهذا قد أكمل الحركة الأخيرة، التي كانت متوقعة هناك: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ وبذلك طوى الحياة الدنيا كلها، دون أن يذكر ولو كلمة «ثم»

في موضع «الفاء» «فانهار» لأن هذا المدى الطويل، قصير قصير، حتى لا ضرورة لهذا «التراخي» القصير!

ومن بين الحالات النفسية التي يصورها القرآن، ما يرسم «نموذجاً» إنسانياً واضحاً للعيان:

مثال ذلك «من يعبد اللّه على حرف» وقد تحدثنا عنها هناك، فنزيد عليها هذه الأمثال:

١ ـ يريد أن يشخص حالة العناد السخيف، والمكابرة العمياء، التي لا يجدي معها حجة ولا برهان، فيبرز «نموذجاً إنسانياً» في هذه الكلمات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

[سورة الحجر، الآيتان: ١٤ ـ ١٥]

... أو يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٧]

٢ ـ ويريد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق، حتى إذا جاءه الفرج نسي اللّه الذي فرج عنه، ولكنه لا يقولها في مثل هذا النسق الذهني، إنما يرسم صورة حافلة بالحركة المتجددة، والمشاهد المتتابعة، ويرسم من خلالها «نموذجاً إنسانياً» كثير التكرار في بني الإنسان: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

[سورة يونس، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣]

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك، وتموج وتضطرب، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض، ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد، أبلغ أداء وأوفاه.

٣ ـ ويريد أن يبرز حالة «نموذج» من الناس ظاهرهم يغري، وباطنهم يؤذي،

فيرسم لهم صورة كما يأتي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ ـ ٢٠٥]

... فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن، في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال.

٤ ـ وفريق من الناس ضعيف العقيدة، ضعيف العزيمة، مستور الحال، لا يتبين ضعفه في فترة الرخاء، فإذا جد الجد وجاء الشد ظهر هذا الضعف على أتمه، هؤلاء يصورهم نموذجاً واضحاً في هذه الكلمات: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

[سورة محمد، الآية: ٢٠]

ومنظر المغشي عليه من الموت معهود، فما هو إلا أن يذكر التعبير حتى تبرز صورتهم في الضمير، مصحوبة بالسخرية والتحقير.

٥ ـ وقد يبرز هذا «النموذج» في حادثة مروية، فيتجاوز الحادثة الخاصة ويخلد نموذجاً عاماً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٤٦]

وفي هذا المثال يزيد على الضعف، تلك اللجاجة في أيام السلم، وإظهار الشجاعة والاستبسال، ثم الخور والجبن، عندما تحين ساعة النضال! وليست هذه حادثة تقع مرة وتمضي، ولكنه نموذج مكرر في بني الإنسان، لا يتقيد بالزمان والمكان[١].

وإلى هنا قصرنا الأمثلة على المعاني الذهنية، والحالات النفسية،

---

(١) التصوير الفني في القرآن.

والنماذج الإنسانية، يخرجها التعبير القرآني صوراً شاخصة أو متحركة ويعدل بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور، فلنأخذ الآن في ضرب الأمثلة على التصوير المشخص، **لمشاهد الحوادث الواقعة، والأمثال المضروبة،** والقصص المروية، فالطريقة فيها واحدة، والشبه بينها قريب:

١ ـ ها هو ذا يتحدث عن «الهزيمة» فيرسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يغفل عنه قليل أو كثير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا * إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا * وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا * وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآيات: ٩ ـ ١٣]

... فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك، المساوق في حركته لحركة الموقف كله؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائقة، وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالاً شديداً، وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل، يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ ويقولون لأهل المدينة: لا بقاء لكم هنا، ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر، وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إن بيوتنا مكشوفة، وليست في حقيقتها مكشوفة: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ وهكذا لا تفلت في الموقف حركة ولا سمة، إلا وهي مسجلة ظاهرة، كأنها شاخصة حاضرة... تلك حادثة وقعت بالفعل، ولكن صورتها ترسم «الهزيمة» مطلقة من كل ملابسة، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيات في الواقع! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان، حيثما التقى جمعان، وتعرض أحدهما للخذلان.

٢ ـ وقريب من هذه الصورة صورة أخرى للهزيمة أيضاً وهي كذلك صورة باقية، لا حادثة مفردة، وذلك حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾.

[سورة آل عمران، الآيات: ١٥٢ ـ ١٥٤]

... يخيل إليك وأنت تقرأ أن المشهد تنظره الآن بكل من فيه وما فيه، هذا إعجاز القرآن إذ ينقلك إلى موقع الحدث وإن بعدت المسافة والزمن.

الأسلوب القصصي في القرآن الكريم

١ ـ ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا لا جنة الآخرة ـ وها هم أولاء يبتون في شأنها أمراً، لقد كان للفقراء حظ من ثمر هذه الجنة، ولكن الورثة لا يشاؤون، إنهم ليريدون أن يستأثروا بها وحدهم، وأن يحرموا أولئك المساكين حظهم فلننظر كيف يصنعون: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾.

[سورة القلم، الآيتان: ١٧ ـ ١٨]

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين، فلندعهم على قرارهم، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل، حيث يختفون هم، ويخلو منهم المسرح، فماذا يرى النظارة؟ هناك مفاجأة تتم خلسة، وحركة خفية كحركة الأشباح في الظلام! ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[١].

[سورة القلم، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠]

وهم لا يشعرون.

والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين! وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام: ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ[٢] * فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾.

[سورة القلم، الآيات: ٢١ ـ ٢٤]

ليمسك النظارة ألسنتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم؛ وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين، يتنادون متخافتين، خشية أن يدخلها عليهم مسكين!

---

(١) كالمقطوعة الثمار.

(٢) قاطعين لثمرها، أو قاطعين فيما تنوون.

ليكتموا ضحكات السخرية! بل ليطلقوها! فها هي ذي السخرية العظمى:
﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ (١) قَادِرِينَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٢٥]

... أجل! إنهم لقادرون الآن، على المنع والحرمان، حرمان أنفسهم على الأقل!

وها هم أولاء يفاجأون، فليضحك النظارة كما يشاءون: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٢٦]

.. ما هذه جنتنا الموفرة بالثمار فقد ضللنا إليها الطريق! فلتتأكدوا، ولكن الجواب قد جاءهم ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٢٧]

.. وهذا هو الخبر اليقين!

والآن قد سقط في أيديهم: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٢٨]

.. إي والله! هلا سبحتم الله واتقيتموه؟

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٢٩]

.. الآن وبعد فوات الأوان!

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين، ها هم أولاء يصنعون: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾.

[سورة القلم، الآية: ٣٠]

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة، عسى أن يفيدهم الاعتراف فيغفر لهم، ويعوضهم الله سبحانه من الجنة الضائعة جنة أخرى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾.

[سورة القلم، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢]

٢ ـ والآن فإلى صاحب جنة أخرى، بل صاحب جنتين أكبر من الأولى، إن

---

(١) منع وحرمان.

له لقصة مع صاحب له، ليس من ذوي الجنان، ولكن من ذوي الإيمان، وكلاهما «نموذج إنساني» لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة فينسى القوة الكبرى، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره: ﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾.

[سورة الكهف، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤]

. . . وبهذا ترتسم صورة الجنتين مكتملة، في ازدهار وفخامة، وهذا هو المشهد الأول، فلننظر إلى المشهد الثاني: ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٣٤]

. . ويبدو أنه قال قولته هذه وهما في الطريق إلى الجنتين، أو وهما على الباب، إذ جاء بعده: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

[سورة الكهف، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦]

فها هو ذا في أوج زهوه وبطره، وتعاليه وازدهائه، فماذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير، الذي لا جنة له ولا مال ولا عصبة ولا نفر؟ إن صاحبه المؤمن، ما تشعره كل هذه المظاهر بالهوان، وما تنسيه عزة ربه الديان، وما تغفله عن واجبه الصحيح، في رد صاحبه البطر إلى جادة الطريق، ولو استدعى ذلك أن يجابهه بالتقريع، وأن يذكره بمنشئه الصغير من التراب المهين: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾.

[سورة الكهف، الآيات: ٣٧ ـ ٤١]

.. وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين: أحدهما منتفش كالديك، ازدهاه ما في جنته من ازدهار، والآخر موقن باللّه، مستعز بالإيمان، يذكر صاحبه ويؤنبه، ويبصره بما كان يجب أن يصنع إذ رأى جنته، ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه ـ وهذا طبيعي في هذا الموقف ـ فهو يقسو عليه قسوة الغاضب لدينه، ويدعو على جنته أن يرسل اللّه عليها الصواعق، فتصبح جرداء ملساء، تزل فيها القدم وتزلق؛ أو أن يصبح ماؤها غائراً لا يستطيع أن يطلبه، فضلاً على أن يستخرجه.. ثم يفترق الصاحبان وهما متغاضبان، فلننظر بعد ماذا يكون؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٤٢]

... لقد استجاب اللّه دعوة الرجل المؤمن المتحدى بلا ضرورة، فلنشهد صاحبنا شاخصاً يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، ولندعه يندم ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ولنسدل الستار على منظر الدمار والاستغفار.

والآن فلنعرض شطراً من **قصص حقيقية**، بعدما عرضنا قصص الأمثال:

١ ـ لنعرض مشهداً من قصة إبراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان:
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ١٢٧ ـ ١٢٩]

... لقد انتهى الدعاء، وانتهى المشهد، وأسدل الستار.

هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردته حاضراً، فالخبر: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم

وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، ويزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا... إلخ، إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة، وهذا هو الفارق الكبير، إن الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة، وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة، وذلك هو الإعجاز.

٢ ـ ثم لنعرض مشهداً من قصة الطوفان: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وفي هذه اللحظة الرهيبة، تتنبه في نوح عاطفة الأبوة، فإن هناك ابناً له لم يؤمن، وإنه ليعلم أنه مغرق مع المغرقين، ولكن ها هو ذا الموج يطغى فيتغلب «الإنسان» في نفس نوح على «النبي» ويروح في لهفة وضراعة ينادي ابنه جاهراً: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ ولكن البنوة العاقة لا تحفل هذه الضراعة، والفتوة العاتية لا ترى الخلاص إلا في فتوتها: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ ثم ها هي ذي الأبوة الملهوفة ترسل النداء الأخير: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وفي لحظة تتغير صفحة الموقف، فها هي ذي الموجة العاتية تبتلع كل شيء ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾... إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظات القصار: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ونوح الوالد الملهوف يبعث النداء تلو النداء؛ وابنه الفتى المغرور، يأبى إجابة الدعاء، والموجة القوية العاتية، تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة، وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية ـ بين الوالد والمولود ـ كما يقاس بمداه في الطبيعة ـ حيث يطغى الموج على الذرى والوديان، وإنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصامتة، وفي نفس الإنسان.

ثم لننتقل إلى مشاهد القيامة، وإلى صور النعيم والعذاب، فقد كان لها من التصوير الفني أوفى نصيب:

١ ـ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

[سورة القمر، الآيات: ٦ ـ ٨]

... فهذا مشهد من مشاهد الحشر، مختصر سريع؛ ولكنه شاخص متحرك، مكتمل السمات والحركات، وهذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة، كأنها جراد منتشر (مشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المنظر العجيب) وهذه الجموع تسرع في سيرها نحو الداعي، دون أن تعرف لم يدعوها، فهو يدعوها ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ لا تدريه ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾وهذا يكمل الصورة، ويمنحها السمة الأخيرة، وفي أثناء هذا التجمع والإسراع والخشوع ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصار؟ وإن السامعين ليتخيلون اليوم النكر، فإذا هو حشد من الصور، صُوَرهُمْ هُمْ ـ وإنهم لمن المبعوثين ـ يتجلى فيها الهول الحي، الذي يؤثر في نفس كل حي!.

٢ ـ وهذا مشهد آخر من مشاهد الإسراع والخشوع، أشد في النفس هولاً وأكمد في التصوير لوناً: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢ ـ ٤٣]

... أربع صور متتابعة متواكبة، أو أربعة مشاهد لرواية واحدة، يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض، فتتم بها صورة شاخصة في الخيال، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام، يجللها ظل كئيب ساهم، يكمد الأنفاس، وهي صورة ترسم كذلك في وسط حي: هؤلاء آدميون، بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك، والحس المتشابه، فهي ترتسم في نفوسهم حية، ويصل الشعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية وبالتخيل المحسوس، فإذا قرأها القارئ تَمشَّتْ رعدة الهول في حناياه، كأنما يلقاه!

٣ ـ ثم تأتي صورة الهول العظمى، التي لا تغني الألفاظ عنها، فلننقلها لتعبر عن نفسها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

[سورة الحج، الآيتان: ١ ـ ٢]

... مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت، تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعي، وبكل حامل تسقط حملها، للهول المروع ينتابها، وبالناس سكارى وما هم بسكارى، يبتدي السكر في نظراتهم الذاهلة، وفي خطواتهم المترنحة، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن بوقعه في النفوس الآدمية: المرضعات الذاهلات عما أرضعن، والحوامل الملقيات حملهن، والسكارى وما هم بسكارى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

٤ ـ وإذا كانت الصور الثلاث الماضية ترسم الهول ظاهراً للعيان، فهناك صور لا يدركها إلا الوجدان: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

[سورة عبس، الآية: ٣٧]

.. ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

[سورة المعارج، الآية: ١٠]

إنه لا يوجد أخصر من هذا ولا أدق في تصوير اشتغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر، حتى لا موضع لسواه، ولا تلفت ولا انتباه.

٥ ـ وهذا موقف آخر من مواقف البعث مفصل بعض الشيء ومؤلف من عدة مشاهد، بين كل منها والآخر فجوة يملؤها الخيال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠]

.. فهذه هي الصيحة الأولى أخذتهم وهم يتجادلون ويتخاصمون، فلم يستطيعوا حتى التوصية، لأنها عجلت بهم إلى القبور، ثم: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٥١ ـ ٥٢]

.. وهذه هي النصيحة الثانية، وها هم أولاء يسرعون من القبور إلى ربهم، وهم في ذعر ودهش، يتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ ثم يفركون عيونهم فيتحققون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.. ثم: ﴿إِن

كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٥٣ ـ ٥٤]

.. وهذه هي الصيحة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ولقد حضروا فعلاً، وارتسم المشهد، وها هم أولاء يتلقون الخطاب، على مرأى ومسمع ممن يقرؤون الآن هذا الكتاب!: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٦ ـ وإذا تم الحشر، وابتدأ العرض، فها نحن أولاء أمام مشهد لجماعة كانت في الدنيا متوادة متحابة، وهي اليوم متناكرة متدابرة كان بعضهم يملي لبعض في الضلال، وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين، ويهزأ من دعواهم في نعيم الآخرة.

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج، هذا هو الفوج الأول، ينقل إليه نبأ اقتحام الفوج الثاني: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ فماذا يكون الجواب؟: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾فهل يسكت المشتومون؟ كلا! فها هم أولاء يردون: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.. وإذا دعوة جامعة: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾!

ثم ماذا؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا ويظنون بهم شراً، فلا يرونهم معهم مقتحمين: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.. وإننا لنشهد اليوم هذا التخاصم كما لو كان حاضراً في العيان! وإن كل نفس آدمية لتحس في حناياها وقع هذا المشهد وتتقيه ـ وتحاذر ـ لو ينفع الحذر ـ أن تقع فيه!

تلك مشاهد للبعث والحشر، وما يقع فيها من حوار بين الشركاء، وتناكر بين الأصفياء، **فلنعرض صوراً من النعيم والعذاب**، بعد الحوار والعتاب:

١ ـ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا

بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

[سورة الزمر، الآيتان: ٧١ ـ ٧٢]

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

[سورة الزمر، الآيتان: ٧٣ ـ ٧٤]

وتكملة المشهد: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٧٥]

ونحسب أن المشهد بارز واضح، منسق الخطوات، متقابل الجزئيات، لا يحتاج منا إلى توضيح أو بيان، فلنتابع خطوات الفريقين فريق أهل الجنة وفريق أهل النار.

٢ ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

[سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٥٠]

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

[سورة الدخان، الآيات: ٥١ ـ ٥٦]

٣ ـ ونختم مشاهد القيامة هنا، بهذا المشهد المتعدد المناظر، المتنوع المشاهد، المتفرد في طريقة العرض والحوار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٥]

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ

يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[سورة الأعراف، الآيتان: ٤٦ ـ ٤٧]

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

[سورة الأعراف، الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩]

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

[سورة الأعراف، الآية: ٥٠]

فها نحن أولاء أمام مشاهد يتلو بعضها بعضاً.

ها نحن أولاء أمام المؤمنين في الجنة، والكافرين في النار، ينادي الأولون الآخرين: ﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾؟ وفي هذا السؤال من التهكم المر ما فيه ـ فيجيء الجواب من هناك (نَعَمْ) حيث لا مجال لنكران أو محال، وعندئذ يؤذن بينهما مؤذن: ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم نحن أولاء أمام الأعراف ـ الفاصلة بين الجنة والنار ـ وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء، فهم يتوجهون إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام، ويتوجهون إلى أصحاب النار بالتبكيت والإيلام: ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾؟ انظروا أين هم الآن، إنهم في الجنة يتلقون التكريم!

وأخيراً ها هم أولاء أصحاب النار يستغيثون، طالبين من أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم اللّه، فلديهم من كل شيء فيض غزير، فليفيضوا منه على الملهوفين، ولكن الجواب هو المعذرة والتذكير: ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

تلك من صور القيامة، ومن صور الحوار فيها والخصام، ومن صور النعيم والعذاب، فهل كان القارئ في أثناء استعراضها يحس أن هذا كله آت، في المستقبل البعيد؟ أم يحس أنه واقع في الحاضر المشهود؟

الأسلوب التصويري في القرآن الكريم

١ ـ الصورة الأولى: مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة، يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة اللّه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

[سورة الملك، الآيتان: ٣ ـ ٤]

هذه لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر، لينقل البصر ما يراه إلى النفس، ليقع في النفس ما يقع في الأثر، لنؤمن بقدرة اللّه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وهي لوحة معروضة في كل حين، ولكنك تقرأ هذه الآيات فتلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود، وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة، ومشاهد الحياة في جميع المناسبات.

٢ ـ وهذه صورة من مشاهد الطبيعة الصامتة كذلك، ولكنها في هذه المرة معروضة في الأرض لا في السماء: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ٤]

. . . فهذا المشهد قديم مكرر، تمر عليه العيون في غفلة، ولكنه يعرض هنا كأنه جديد وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصاً فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة في النبات، لا بل إن النوع الواحد من النبات ليختلف في الأشكال، فمزدوج ومنفرد، وجميعه يسقى بماء واحد، ولكن تختلف طعومه في الأكل، وأياً ما كانت هذه الملاحظات، فمردها الأول إلى المشاهدة: مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية التي يوجه إليها الأنظار، لتراها بالبداهة الملهمة والحس البصير، بعد أن تتملاها الأبصار.

٣ ـ وهذا منظر من مناظر الطبيعة المتحركة في الجو، يعرضه خطوة خطوة، وفي كل خطوة مشهد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ * فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[سورة الروم، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠]

... هكذا لوحة بعد لوحة: إرسال الرياح، إثارة السحاب، بسطه في السماء جعله متراكماً، خروج المطر من خلاله، نزول المطر، استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين، إحياء الأرض بعد موتها.

لينتقل من هذه المشاهد المتابعة بعد استعراضها للعين والخيال، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل، إلى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيجيء هذا لتقرير، في أنسب الأوقات للتقرير.

٤ ـ ولئن كان المشهد الثالث في جو السماء، فالمشهد الرابع في الأرضين، وهو من ذلك المشهد بسبيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٢١]

... فهذا مشهد من مشاهد الأرض كذلك متعدد الخطوات وهو يعرض في بطء وتفصيل، وتترك كل خطوة للعين مدة كافية للتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر، هذا هو الماء ينزل من السماء، فيسلك ينابيع للري، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج هذا الزرع وينضج فتراه مصفراً بعد حين، ثم ييبس فيصير حطاماً، و(ثم) في كل مرة تعطي هذه (المهلة) للعين والنفس، لتملي المشهد المعروض قبل طيه، وعرض المشهد التالي.

٥ ـ وفي جو السماء مشاهد أخرى حية، فهناك الطير التي تطير باسطة أجنحتها، صافة أقدامها، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ١٩]

.. إنه مشهد واحد ذو منظرين، منظر الطير باسطات أجنحتها صافات أرجلها، ومنظرها كذلك قابضات، وهي صورة حية متحركة، يراها الناس كل لحظة، فيمرون عليها غافلين، فهو يلفت إليها أنظارهم، ليروها بحس الشاعر المتأثر، دليلاً على قدرته ورحمته.

٦ ـ وفي الأرض مشهد آخر متكرر، يمر به الناس غافلين كذلك، وفي تأمله وتتبع حركته الوئيدة التي تكاد تتم في الخيال ـ وإن كانت معروضة في العيان ـ ما يلمس النفس، ويؤثر في الوجدان ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات، ذلك منظر الظل الذي تلقيه الأجرام فيبدو ساكناً، وهو يتحرك ببطء لطيف: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

[سورة الفرقان، الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦]

.. وفي هذا المشهد جمال طبيعي يغري الخيال بالجولان، ويملي للخواطر في الهيمان، وكم في المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديداً، كأنما تتملاه العين أول مرة، حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح، والعين المتيقظة للألوان.

٧ ـ وفي الأرض مشاهد أخرى لعل من أشدها أثراً في الحس والنفس تلك الرسوم الدوارس، والربوع الخوالي، وما تحيله للحس من صور الحياة الغابرة، ومن أشباح الأحياء الدائرة، فهي مشاهد للعين في الظاهر، وللنفس في الضمير، والقرآن يوجه إليها النظر، ثم يرد الخيال إلى الحياة الغابرة فيها، الدائرة منها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٩]

وهكذا ليتبين لنا أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان، وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأغراض [١].

---

(١) التصوير الفني في القرآن: صفحة ٧٠.

الخاتمـــة

لقد تم بحمد اللّه الجزء السادس عشر الذي تحدث في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم.. ومن سرد وجوه الإعجاز المتعدد في لغة القرآن وأسلوبه وبيانه في حروفه وكلماته وجمله، تبين لنا عظمة هذا القرآن الكريم وأنه لا يمكن أن يكون إلا من إلٰه قادر يعلم السر في السماوات والأرض.. ومما يثلج صدرك ويسرك أن آلافاً بل عشرات الآلاف بل مئات الآلاف قد انبروا شرحاً وتفسيراً وبياناً لهذا القرآن العظيم وإظهاراً لوجوه إعجازه اللغوي والبياني والعلمي.. ومما يلفت النظر أنك حين تراجع هذه الكتب الخاصة في إعجاز القرآن اللغوي والبياني والأسلوبي تجد أن كل كاتب يقطف ثماراً وزهوراً من بستان هذا الكتاب العظيم ويتذوق طعمها ويشم رائحتها، تختلف عن زهور غيره وثمارهم، إذ إن القرآن حديقة غناء دائمة الخضرة متنوعة الأزهار فهو جنة ملأى بما لذ وطاب، وكنز عظيم كبير لا تنتهي نفائسه ولا تنقضي عجائبه، وكلما غرفت لتأخذ منه زاد في عطائه لازدياد كنزه الدائم.. وها نحن وبعد مضي ١٤٢٧ سنة على نزول القرآن لا زلنا نستخرج من كنوزه الدفينة، ونعبر ونفسر بغير كل الأساليب والطرق التي استخدمها الأو ائل.. فإذا قرأت كتب التفسير والبيان والإعجاز اللغوي تجد في كل كتاب حلاوة وطلاوة وعذوبة غير عذوبة وطلاوة غيره.

وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول: «**هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه**» رواه الترمذي ٢٨٣١.

فعلاً إنه كتاب عظيم لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ولا تنتهي نفائسه، وكيف تنقضي وهو الكتاب الذي أنزله عالم الغيب

والشهادة، وأعجز عن الإتيان بمثله إلى يوم القيامة، وجعله تبياناً لكل شيء وما فرط فيه من شيء.

يقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]

ويقول تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٣٨]

وهنا تكمن عظمة القرآن الكريم بأنه بيان لكل شيء وما فرط اللَّه سبحانه فيه من شيء، فهو الهداية والنور والصراط المستقيم وهو الذي ينقذ الناس من براثن الجهل ويشرق قلوبهم بالإيمان والتوحيد، هو الذي يعلم الإنسان حقيقة الحياة والوجود، وحقيقة الابتلاء والامتحان، وحقيقة الموت والبعث، وحقيقة الحساب، وحقيقة الجنة والنار، وحقيقة الخلود وأن الإنسان لم يخلق عبثاً ولا لهواً ولا لعباً، يقول تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآية: ١١٥]

وكل هذه الحقائق عبر عنها اللَّه سبحانه بأسلوب وبيان معجزين، فقد تفرد بإعجاز بيانه، وتفرد بإعجاز أسلوبه، وتفرد بإعجاز لغته.. حيث جعلها اللَّه سبحانه مفهومة رغم سبكها القوي، يدرك معانيها كل الناس على اختلاف فهمهم ومقدراتهم اللغوية والعلمية.. فترى القرآن الكريم يتلى ليلاً ونهاراً من جميع طبقات الناس من غنيهم وفقيرهم وتاجرهم وخادمهم من الحداد والنجار والخياط ومن أساتذة الجامعات ومن طلاب العلم وأساتذتهم، سهل القراءة سهل الحفظ، سهل الفهم، يتعلم الجميع منه توحيد اللَّه سبحانه والإيمان به ومعرفته وتقدير قدره، إنه الكتاب الذي إن بدأت تحفظه فلا تفارقه، وإن بدأت بقراءته وجدت حلاوة ولذة في قلبك تدفعك إلى الإعادة والزيادة، تحس وأنت تقرأ القرآن أنه صديق حميم بل أب وأم حنونان وأخ رحيم وابن مطيع، إنه إِلْفٌ يألفه الناس، وخسر كل مكابر ومعاند، أو قع المنافقين في حيرة من أمرهم ورد على الكافرين كفرهم.

حقاً إنه الكتاب الذي دانت له الأقلام والأفكار والعقول والقلوب إنه الكتاب الذي خضع لعظمته العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي، عمل به العاملون وما شذ عن طريقه إلا المنافقون، وما ترك السعادة فيه إلا من رضي بالحياة الدنيا وكذب بلقاء الآخرة الذين جعل اللَّه على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وهو عليهم عمى، فأغلق أبوابه من دونهم، وما جعل اللَّه سبحانه لهم من نصيب في الآخرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٤٤]

فاللَّهم اجعل هذا القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا ومعين أفكارنا نتلوه ما حيينا ونحفظ منه ما استطعنا.. إنك سميع مجيب الدعاء.

د. ماهر أحمد الصوفي
موبايل: ٧٥٢٦٦٩١/ ٥٠/ ٠٠٩٧١
أبو ظبي: ص.ب ٢٩٢٢

الموسوعة الكونية الكبرى

آيات الله

في الإعجاز التشريعي والغيبي في القرآن الكريم

الجزء السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال اللّه تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

[سورة النساء، الآية: ١١]

وقال اللّه تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٣٢]

وقال اللّه تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ٦٠]

وقال اللّه تعالى:

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٤]

وقال تعالى:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾.

[سورة المسد، الآيات: ١ ـ ٥]

حديث شريف

قال رسول اللَّه ﷺ :

- قال رسول اللَّه ﷺ لعوف بن مالك :

«أعدد ستًّا بين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يَأْخُذ فيكم كَقُعَاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً» رواه البخاري برقم ٣١٧٦.

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال :

«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل في بصرى الشام» رواه مسلم رقم الحديث ٢٠١١.

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ :

«إذا زال ملك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» رواه البخاري رقم ٣١١٨.

عن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ :

«إن من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد» رواه أبو داود وأحمد والدارمي.







المقدِّمة

الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم هو من إلٰه حكيم يعلم ما ينفع عباده ويعلم ما يؤذيهم ويضرهم.. وإن ما جاء من التشريع في القرآن الكريم سواء كان في تنظيم حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة إنما هو لخير الإنسان في الحياة الدنيا وكذلك لخير الإنسان في الحياة الآخرة. وعلى الرغم من الزمن الطويل الذي مرَّ وامتد على نزول القرآن وتشريعه حتى بلغ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً إلا أنك لا تجد أي تعارض بين تشريع اللّٰه سبحانه وتطور الإنسان عبر هذه القرون وما طرأ على حياته من مستجدات يخيل إليك أنها، أي التشريعات الإلٰهية، بحاجة إلى تغيير أو تجديد أو تبديل أو تحديث أو مواكبة أو ما أشبه ذلك. ولكن عندما تضع التشريع الإلٰهي والسنة النبوية المطهرة أمام أي مستجد حديث تجد أن القرآن الكريم قد أفاض فيه تشريعاً وتنظيماً في الخير كله للإنسان رغم الزمن الطويل ومستجدات الحياة المعاصرة... وكل ما نحتاجه هو فهم النص والتشريع أو حسن التفسير... ومع ذلك فإن ما يزيد الإسلام وتشريعه حسناً أنه لم يقتل الفكر الإنساني بل ترك اللّٰه سبحانه ورسوله ﷺ حسن التدبير مع كل مستجد معاصر فإن لم يجد منه تفضيلاً شرعياً لا من قرآن ولا من سنة فعليه القياس على تشريع آخر مشابه فإن لم يجد فعليه الاجتهاد وليس هذا عيباً في التشريع ولكن ربما أراد اللّٰه سبحانه أن يبدع الإنسان المسلم في ما يستجد منه حتى لا يقتل الفكر الإنساني وحتى يجعل اللّٰه سبحانه له الأجر في القياس والاجتهاد لذلك قال رسول اللّٰه ﷺ: «**من اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ومن اجتهد فأصاب فله أجران**».... ولكن تجتهد بما لا يخالف الشرع ولا يخالف ما أحلَّ اللّٰه سبحانه وما حرَّم اللّٰه سبحانه ولا تجتهد فيما فيه نص وأيضاً لا تجتهد في الأصول بل تجتهد في الفروع لأن الأصول واضحة لا

لبس فيها فلا تجتهد فيها.. فهذا الدين كامل بتشريعه وتنظيمه لكل شأن من شؤون الحياة وقد أكمل اللّه سبحانه هذا الدين العظيم وأتم نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً.

يقول تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣]

وكذلك فإن القرآن الكريم بنص آياته أن جعله اللّه سبحانه تبياناً لكل شيء.

يقول تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]

وكذلك ما فرط اللّه سبحانه فيه من شيء يقول تعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٣٨]

ولكن ما يجب أن نعلمه أن الإعجاز التشريعي الرباني في القرآن ليس إلا جزءاً يسيراً من إعجاز كتاب اللّه سبحانه فالكتاب تبيان لكل شيء وما الإعجاز التشريعي إلا شيء واحد من هذا التبيان.. وإن من أهم ما قدَّمه القرآن الكريم من تشريع هو تنظيم حياة الأسرة وأفرادها وعلاقتهم بعضهم مع بعض وحق الآباء وحق الأبناء ذكراً كانوا أو أنثى وكذلك حق المرأة (الزوجة) التي لم يكن لها أي حق في إرث أو رأي أو تربية بل كان معظم شعوب العالم يعتبرها من سقط المتاع. أوجب بعضهم كالهنود حرقها في حال موت زوجها وكان العرب في الجزيرة يئدونها وإذا توفى زوجها عنها تحبس في بيت مظلم حتى تنقضي عدتها نحو عام، ومن الشعوب من كان يعتبرها نجساً ومنهم من كان يعتبرها غير إنسان، فجاء التشريع الإسلامي فحق حقوقها وأوجب عليها الواجبات وجعلها فرداً كامل الأهلية ولها كامل الصفات الإنسانية فحرّم قتلها ووأدها.. وكذلك جاء التشريع الرباني في مفهوم بر الوالدين ورعاية الأولاد والعدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه، كما أوجب

تشريع اللّه سبحانه أن تحترم الزوجة زوجها وجعل في ذلك تشريعاً ونظاماً من خالفه يعاقب يوم القيامة، وكذلك رسم حدوداً لها في زواجها وطلاقها وعدتها ومهرها وحقها في الحياة الآمنة ثم توعد اللّه المخالفين بنار جهنم وأنهم خاسرون يوم القيامة.

يقول تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٢٩]

وما جاء هذا التشريع إلا لسعادة الإنسانية فنظم العلاقة وشرع للبشرية قانون حياتها وعلاقات المجتمعات والدول والجهات والشعوب مع بعضها في نظام تشريعي عظيم.

يقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٣]

ولم يفرق التشريع الإلهي بين الذكر والأنثى والأبيض والأسود والعربي والأعجمي فكل عند اللّه سواء، وجعل الإيمان ما وقر في القلب وصدقة العمل، وجعل الرجل الذي يحمل صفة المسلم والمؤمن هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأعراضهم.

قال رسول اللّه ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأعراضهم» رواه مسلم.

وجعل في تشريعه حقاً للجار فقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني في الجار حتى ظننت أنه سيورثه».. وأعطى الطريق حقها فلا اعتداء ولا أذى ولا نميمة ولا غيبة. قال رسول اللّه ﷺ في حق الطريق: «رد السلام وغض البصر والكف عن الأذى».

ومنع الإسلام في تشريعه أخذ الناس بالظنون ومنع التجسس والغيبة والنميمة والظن يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

[سورة الحجرات، الآية: ١٢]

ومن أهم تشريعات الإسلام والتي جاءت في كتاب اللّه تعالى أن ربط الإنسان بالآخرة وأعلمه أن هذه الدنيا دار لعب ولهوـ ودار امتحان ـ وليست دار قرار وديمومة بل هي دار ابتلاء وامتحان يقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ .

[سورة الملك، الآية: ٢]

ومن أهم ما نظم القرآن الكريم من تشريع أن جعل الأعمال بالنيات حتى يمنع عن الإنسان نيه الشر والسوء في عمله قال رسول اللّه ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإن لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

ويكفي القرآن الكريم عظمة والتشريع الإسلامي علواً هذا التنظيم الكبير في العلاقات المادية والتي هي من أهم الأعمال في تأسيس مجتمع قوي يسوده الحب والتعاطف فغير الزكاة التي جعلها فرضاً يؤخذ من مال الغني صدقة ويرد إلى الفقير كي تقوى العلاقات ويسود الوئام والألفة والحب وقد رغب الشارع الحكيم بذلك ترغيباً كبيراً.

يقول تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢٤٥]

(٢)

وقد جاء القسم الثاني من هذا الجزء «آيات اللّه في الإعجاز التشريعي والغيبي» الذي يتحدث عن الإعجاز الغيبي، هذا الإعجاز الذي هو من ركائز الإعجاز في القرآن الكريم ذلك أن الإنسان لا يملك علم بعد ساعة من الزمان أو علم ما في غد.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

[سورة لقمان، الآية: ٣٤]

وأما اللّه سبحانه فعنده علم الغيب وما كان وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيامة يقول تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ .

بل ويعلم اللّه سبحانه ما يكون يوم القيامة من أحداث وما تقوله الناس ومن سيدخل الجنة ومن سيدخل النار وقد بين القرآن الكريم بعض إعجازه في علم الغيب حتى يعلم الناس قدرة اللّه سبحانه وأنه لوشاء لأخبرهم بما هو كائن إلى يوم القيامة. . ولكن الإنسان في ابتلاء وامتحان وعليه أن يؤمن بالغيب وهو أحد مواد الابتلاء والامتحان وهو دليل الإيمان القوي للفرد المسلم يقول تعالى:

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٤]

والغيب هو كل ما لم يعلمه الإنسان أو يراه وهو كل ما لا سيعلمه ولا يراه إلى يوم القيامة أما ما عرفه الإنسان فليس هوبغيب وكل ما يراه ليس بغيب حتى لوكان يبعد عنا مليارات السنين الضوئية كالمجرة التي اكتشفها التلسكوب هابل وصورها وهي تبعد عن الأرض خمسة عشر مليار سنة ضوئية.

فيوم غدٍ غيب على البشرية جمعاء فإذا جاء وعلمنا عنه شيئاً فلم يعد غيباً وكل ما نراه بأعيننا من نجوم وأقمار وكواكب وشموس ليس بغيب وكذلك ما تراه التلسكوبات وتصوره ليس بغيب.

واللّه وحده يعلم ما يعلمه الإنسان وما لا يعلمه فالملائكة غيب والجن غيب والجنة غيب والنار غيب والمستقبل غيب. . وقد بين القرآن الكريم بعض إعجاز الغيب وأخبر عنه أنه واقع لا محالة كانتصار الروم على الفرس وعدم إيمان أبي لهب وفتح مكة وانتصار المسلمين في بدر وأحداث غيرها ما

يكون مشروحاً ومفسراً في هذا الجزء من الموسوعة.. ومما لا شك فيه أن هذه الغيبيات عندما تتحقق تزيد من إيمان المؤمن وتدله دلالة قوية على صدق القرآن الكريم وأنه منزل من عند اللّه سبحانه الذي يعرف السر وأخفى. ولنا في هذا الجزء متسعٌ من التفصيل سواء عن الإعجاز التشريعي أو الإعجاز الغيبي وعندما تقرأ فستدرك عظمة هذا القرآن الكريم الذي أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض يقول تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

د. ماهر أحمد الصوفي

الفصل الأول

ـ كلمة في الإعجاز التشريعي.
ـ عظمة التشريع الرباني في القرآن الكريم أنه يأتي على صور شتى.
ـ المواريث والتشريع الرباني.
ـ المرأة والتشريع الرباني.
ـ من سمات وصفات الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم.
ـ مبادئ الشريعة الإسلامية في القرآن.
ـ صور من إقامة الحدود في التشريع الإسلامي.
١ ـ قتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق.
٢ ـ القصاص في القرآن.
٣ ـ محاربة اللَّه ورسوله والسعي في الأرض فساداً.
٤ ـ جريمة السرقة.
ـ الربا والزكاة في التشريع الإسلامي.
١ ـ حكم الربا في التشريع الإسلامي.
٢ ـ الزكاة في التشريع الإسلامي.
ـ الإعجاز التشريعي المادي والمعنوي في القرآن الكريم.
ـ كيف شرع اللَّه سبحانه الأحكام.

كلمة في الإعجاز التشريعي

إن أول آية نزلت في القرآن الكريم هي: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾.

[سورة العلق، الآية: ١]

إنما أراها زائدة قررت للإنسان حقاً له.. وأوردت واجباً عليه.. فقد قررت له حق التعليم.. وأوجبت عليه الإيمان بالله.. هكذا نجد أن أول آية من القرآن نزلت للإنسان.. إنما هي إعلان حق له.. وفرض واجب عليه.

وعندما يطلق على التعليم لفظ اقرأ على عموميته كما جاء في الآية الشريفة المباركة فإنما ليشمل كل أنواع وأصول وفروع العلم، وبذلك يعرف الإنسان كافة حقوقه.. وكل واجباته.. ثم توالت الآيات الكريمة من القرآن الكريم تقرر الحقوق وتحدد الواجبات حتى شملت كل الحقوق.. وحددت كل الواجبات.

وحرصاً من القرآن الكريم على بيان عمومية هذه الحقوق وشمولية هذه الواجبات على الناس، كل الناس، وعلى الإنسان كل إنسان.. فإننا نجد أن الآيات التي توردها تبدأ الخطاب بيا أيها الناس أو تذكرهم فيها حيث ورد لفظ الناس في القرآن ٢٤١ مرة، أو تخاطب الإنسان حيث تكرر ذكره ٦٥ مرة أو بني آدم حيث تكرر ذكرها ٦ مرات.

لقد أعلن القرآن الكريم كرامة الإنسان فقال بالنص الشريف: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٧٠]

وهكذا فرض القرآن للإنسان كرامته.. وعندما قرر فرضها فإنما أوردها لبني آدم حتى يعم هذا الفرض بالكرامة كل فرد من بني آدم أياً كان قدره ولونه أو مركزه.. وإعلان تفضيل الله سبحانه وتعالى للإنسان على كثير ممن

خلقهم اللّه من الكائنات الأخرى الحية إنما ليفيد تكريم النوع الإنساني.

وأعلن القرآن الكريم مساواة الناس جميعاً.. فالناس جميعاً متساوون في الخلق فكلهم من ذكر وأنثى وهم في ذلك سواء.. وما اختلاف ألسنتهم أو ألوانهم أو درجاتهم إلا لقضاء المصالح المتشابكة بين الناس وفي ذلك تقول الآيات الكريمة.. مخاطبة الناس حتى يتأكد التعميم بالنص الشريف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٣]

وهذه المساواة تحول دون قيام أي شبهة لاستعباد أو تفرقة أياً كانت أسبابها من دين وجاه أولون أو جنس أو دولة.

قرر القرآن الكريم حرية الإنسان الشخصية وأهم أنواعها حق الحياة فقد أوجبها القرآن الكريم في آيات كثيرة حيث أمر بالمحافظة على حياة كل نفس.. ومنها حماية الإنسان لنفسه فلا يقتل نفسه وذلك بنص الآية الشريفة: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٢٩]

وقرر حرية العقيدة في بضعة ألفاظ قصار لا يمكن أن تصل إليها أية تعبيرات أخرى فقال في النص الكريم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦]

وقرر حرية الرأي وأعلن إطلاق هذه الحرية دون تقييد مع فرض واجب عليه هو أن تكون حرية الرأي في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وفرضه على الأمة حتى يشمل الأفراد والجماعات.. في الماضي والحاضر والمستقبل أي في كل الأوقات فتقول الآية الكريمة: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]

وإذا كان حق كرامة بني آدم والمساواة والتعليم والحرية وغيرها قد عممت فرضها على الإنسان لتشمل الرجل والمرأة.. فإن القرآن الكريم قد أفرد لحقوق

المرأة نصوصاً كثيرة وعديدة وكرمها تكريماً يتضح قدره من تسمية إحدى السور الشريفة باسمها ألا وهي سورة النساء التي اختصت بكل شؤون المرأة.. وأصَّل القرآن الكريم قانوناً هاماً في حقوق المرأة حين قرر عدم تبعية المرأة للرجل في المسؤولية.. فكل منهما يتحمل تبعة عمله منفرداً عن الآخر.. فصلاح الزوج لا يعفي الزوجة الخائنة من مسؤوليتها وكذلك فساده لا ينسحب عليها إن كانت صالحة وذلك بالنص الشريف: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۞ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[سورة التحريم، الآيتان: ١٠ ـ ١١]

وقرر القرآن الكريم للمرأة حقوقها المالية فأوجب توريثها بعد أن كانت لا ترث وأنها في القرآن الكريم ترث كما يرث الرجل بنص الآية الكريمة: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٧]

وكذلك حقوقها السياسية.. والتي منها وعلى رأسها حق المبايعة.. مبايعة سيدنا رسول الله ﷺ في النص الشريف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

[سورة الممتحنة، الآية: ١٢]

وحقوقها الاجتماعية.. بالمشاركة مع الرجل في بناء المجتمع والدولة.. بولاية الأعمال التي تأمر فيها بالمعروف وتنهى عن المنكر وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ٧١]

وحق العمل.. قرره القرآن الكريم بما أمر به كل مسلم ومسلمة بالعمل.. موجباً عليه أن يكون العمل صالحاً.. ومفهوم العمل الصالح في آيات القرآن الكريم التي دعت للعمل إنما يتسع ليشمل العمل الإنتاجي من

زراعة وتجارة، وإصلاح وعمارة.. سعي وجد واجتهاد في كل شؤون الدنيا وإصلاحها.. وصيانتها مما يسيء لها أو يفسدها.. حيث تقول الآية الشريفة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٧]

فتقرر هذه الآية الكريمة أن الذين آمنوا.. ولا شك أن مقتضى الإيمان يؤكد قيام الإنسان بما يفرضه إيمانه من عبادات وأعمال تتصل بالتقوى.. وعلاوة على ذلك فقد أوردت الآية قيام الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. وسبق ذلك دعوتهم إلى العمل الصالح مما يؤكد أن معنى العمل الصالح هو غير الصلاة والزكاة والعبادات.. إنما هو العمل الذي أوجب اللّٰه على الإنسان أن يقوم به في استخلافه للأرض.. إذ جعله اللّٰه خليفة في الأرض بالنص الشريف:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٣٠]

وواجب الخلافة أن يقوم الخليفة بما يأمره به من استخلفه وأن يحافظ ويباشر ما قام به.. وقد خلق اللّٰه الأرض ومهدها.. وسلك فيها سبلاً وأجرى الأنهار.. وأنبت الزرع.. وأقام الأشجار.. ويسر للإنسان السكن والبناء وسبل الإنتاج والنماء.

ودعا القرآن الكريم إلى إقامة العدالة بين الناس بل العدالة حتى مع الخصوم والأعداء الذين يكونون لظروف خصومتهم وعدائهم مكروهين حتما عند الإنسان إذ تقول الآية الشريفة: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٨]

لقد أورد القرآن الكريم حقوق الإنسان واضحة كاملة.. وافية شاملة وبين واجباته محددة ملزمة مسببة موجبة.

وقد وجد العرب حين نزل القرآن أن حقوقهم قد فرضت ولم يكن لهم بها معرفة سابقة.. وأن عليهم واجبات قد حددت لم يسمعوا عنها في أزمان

سالفة.. فعجبوا وتعجبوا.. وآمنوا وأسلموا.. ونشروا وأذاعوا.. كيف حوى القرآن الكريم كل هذه القوانين والتشريعات وأوضحوا بنصوصه أنه لم يترك إطلاقاً وأبداً علاقة بين إنسان وآخر إلا وحددها ورسم إطارها.. وبين الحق فيها والواجب منها ولها وعليها.. بداية من علاقة الإنسان مع ربه.. فقد حدد علاقة الإنسان مع آبائه وأولاده.. مع زوجته وجيرانه.. مع أهله وناسه.. نسبه وصهره ورحمه.. مع الحاكم والتبعية.. مع الوالي والرعية.. وكل الأحوال.. ومختلف الحالات.. في الحرب والسلام.. في المحبة والخصام.. في البيع والشراء.. في الإقراض والاقتراض.. في المشاركة أو الاستقلال.. في الإقامة والارتحال.. في كل شأن من شؤون الدنيا.. وفي كل حال..

لذلك أدهشهم وأدهش غيرهم ممن لا يعرفون لغته.. كيف جمع هذا التشريع الكامل.. وهذا التنظيم الشامل.. في وقت لم يكن يعرف العالم كله ما هي التشريعات.. ولا ما هي التنظيمات.. ما هي الحقوق وما هي الواجبات.. فكل من تدبر هذه الآيات وتفهم أهدافها.. فقد اتجه إليها وآمن بها.. واهتدى بهديها.

وتنبه الناس في كل مكان إلى حقوقهم.. لقد أيقظهم ما جاء في القرآن من غفلتهم فظهرت النداءات وقامت الثورات تطالب بتقرير الحقوق وتحديد الواجبات.. فلقد جاء عصر التشريعات.. وفيه توحدت الآراء.

واتفقت كلمة العلماء في كل البقاع محايدين أو معادين.. ومن كل الأصقاع.. من مسلمين أو غير مؤمنين على أن القرآن الكريم هو القانون الأشمل الكافي.. وهو الدستور الأمثل الوافي.

وفي ديسمبر ١٩٨٤ أي بعد أربعة عشر قرناً من الزمان من نزول القرآن.. تصدر أول وثيقة وضعية لحقوق الإنسان والتي جاء في مقدمتها التي استغرق إعدادها عامين كاملين ما نصه: «نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا أن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية».

وتتضمن الوثيقة ثلاثين مادة تنص على تساوي الناس في الكرامة

والحقوق وحق كل فرد يتمتع بالحقوق والحريات دون تفرقة أو تمييز ولا يجوز استعباد أي إنسان أو تعذيبه، كما قررت أن لكل إنسان حرية الفكر والضمير والرأي والدين وأن له حق التعليم وساوى الرجال والنساء في الحقوق التي تتصل بالزواج والانفصال.

ولا شك أن كل نظرة حتى وإن كانت عابرة إنما تهتدي بصدق وأمانة إلى الفارق الكبير بين القرآن وتشريعاته.. والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وتطبيقاته.. إنه الفارق بين المصدرين.. الخالق.. والمخلوق.. الرب.. والعبد، إنه فارق السماء والأرض.

وفي هذا الإعلان عن حقوق الإنسان الذي يحتفل بذكرى إصداره العالم كل عام.. من سمع عنه واستجاب إليه.. ومن عمل به وحافظ عليه ومن عارضه وحاربه.. إن التفرقة العنصرية مثلاً بمختلف صورها هي ركن في حياة مختلف دول العالم رغم محاربتها في الإعلان.. ولا وجود لها تحت أي ظرف، ولا أي شكل بين شعوب ودول المسلمين استجابة لداعي القرآن.. وهكذا في كل القوانين والتشريعات.

وتشير الدراسات القانونية إلى أن القرآن هو أول دعوة في تاريخ الإنسان تقرر حقوقا لم تصل أي دعوة إليها حتى الآن.. بل لم تفكر فيها المؤتمرات التشريعية.. ولا التجمعات القانونية.

فقد قرر القرآن الكريم مبدأ عدم مؤاخذة الإنسان عن الخطأ والنسيان وما استكره عليه فأي خطأ وقع فيه الإنسان بدون قصد فلا جناح عليه.. إلا إذا تسبب الخطأ في قتل إنسان فوجب عليه قضاء حق مقرر.. لذلك لا يجب معاقبة الإنسان على خطأ وقع فيه بحسن نية وذلك بمقتضى النص الشريف:
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٥]

وفي النسيان تقول الآية الشريفة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]

وفيما أكره عليه تقول الآيات الشريفة إنه حتى الذي يكفر بالله بعد

إيمانه وهو مكره وقلبه مطمئن بالإيمان فلا جناح عليه بالنص الشريف: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٠٦]

ويدخل تحت هذا من اضطر لظروف خارجة عن إرادته أن يأكل ما هو محرم عليه بشرط أن ينتهي فور انتهاء الظروف وإلا يكون عازماً على العودة، وذلك بالنص الشريف: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧٣]

ويسبق القرآن الكريم كل تشريعات حقوق الإنسان بحق لم تدع إليه أية تشريعات حتى الآن.. ألا وهو عدم تكليف الإنسان ما لا يطيق.. أيا كان هذا التكليف وفي أي قطاع كان.. وسواء كان التكليف بدنياً أو عقلياً أو مادياً أو أدبياً، وذلك بالنص الشريف: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]

وكذلك ما أفرده للمظلوم من حق الجهر بالسوء من القول حتى يلفت النظر إلى ما وقع عليه بعد أن يكون قد استنفد كل وسائل الشكوى.. ولم ينصفه مجتمعه، وذلك بالنص الشريف: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٤٨]

وأيضاً بما أثبته للمرأة.. من حق للحفاظ على حقوقها.. ألا وهو حق الجدال عن هذه الحقوق، وإلى أعلى مستوى.. حيث جادلت امرأة سيدنا رسول الله ﷺ والله يسمع تحاورهما، وذلك بالنص الشريف: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ١]

فهل بعد ذلك يتسع المجال.. أي مجال ـ أو يحتاج الأمر إلى مزيد من البحث للتأكيد على أن إعجاز القرآن الكريم التشريعي.. إنما هو إعجاز متعدد ومتجدد؟.

عظمة التشريع الرباني في القرآن الكريم أنه يأتي على صور شتى

قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۞ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۞ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۞ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۞ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۞ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۞ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۞ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

[سورة الإسراء، الآيات: ٢٩ ـ ٣٨]

رحمة من اللَّه سبحانه وتعالى بعباده فتارة يأتي عن طريق الهداية والإرشاد ولكي تدرك أن هذا الأمر المسمَّى لا يحبه اللَّه سبحانه وتعالى فتبتعد عنه رغم أنه لم يذكر فيه عقوبة وإنما إرشاد وهداية.

كقوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٢٩]

وحتى يتبع العبد هذه الهداية فلا يكون مسرفاً ولا بخيلاً دلَّه اللَّه سبحانه وتعالى أنه هو الرزاق ويبسط الرزق لمن يشاء من عباده.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٠]

ثم ينتقل إلى الآية التي بعدها وهي ذات صلة وثيقة بالآيتين ٢٩ ـ ٣٠ من سورة الإسراء ولكنها شديدة دخلت في باب التحريم وليس الهداية مع ربطها ببسط الرزق من اللّه لعباده.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣١]

فإن كنتم تقتلون أولادكم خشية الفقر فإياكم ذلك فاللّه هو الرزاق ثم يشدد على العقوبة أن قتلهم خطأ كبير.

ثم ينتقل إلى تحريم آخر وهو الزنا مع بيان سوء فعله وأنه فاحشة تحريم أعقبه سبب التحريم.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٢]

ثم ينتقل إلى تحريم آخر أشد وهو قتل النفس التي حرَّم اللّه إلا بالحق.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٣]

وهذا نهي شديد ثم يبين قاعدة الجزاء فينبه ويحذر من التصرف غير الصحيح لأهل المقتول ثم تعود الآيات إلى الإرشاد والتنبيه مع التحذير فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٤]

تحذيران وتنبيهان في آية واحدة مع عدم ذكر العقوبة إلا الأمر بالنهي.

ثم تعود الآيات إلى الإرشاد.

قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٥]

فهذا إرشاد وأمر أعقبه جزاء ولكن من نوع آخر وهو الخير والفضل لمن اتبع فجاء النهي بأسلوب آخر وهو الخير لمن سمع وأطاع.

قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٥]

ثم يحذر في الآية التي تليها ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ هذا إرشاد وتنبيه ثم يبلغك بالعقوبة بأن عليك شهوداً ستكون مسؤولة ومحاسبة ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ أدوات الحديث بما ليس لك به علم ﴿ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ إذا كنت تقفو وتتحدث بما لا تعلم وإن كان ظاهره الإرشاد إلا أن عقوبته شديدة ثم يأتي التنبيه.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ وأن ذلك لا يحبه اللّه ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ أي ابتعد عنه وختم آيات التنبيه والإرشاد والتحريم: أي يا عبادي إن كل ذلك الذي ذكرته وأمرتكم بالابتعاد عنه أوامر ونواه ولكن صيغت بمنتهى الدقة والعلم والرحمة.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾.

هذه بعض آيات اللّه في تشريعه جمع اللّه سبحانه وتعالى فيها:

١ ـ أنها آيات تتلى إلى يوم القيامة.

٢ ـ أن فيها أجراً في تلاوتها وكل حرف يتلى فيه عشر حسنات.

٣ ـ أنه فيها بيان لما يحبه اللّه سبحانه وتعالى ويكره.

٤ ـ أن فيها بياناً أن اللّه أعلم خلقه أن هذا ما أكره منكم وعكسه هو ما أحبه فيكم.

٥ ـ أن اللَّه سبحانه وتعالى جمع فيها أساليب متعددة فلا يضيق صدر العبد إذا سمعها وقرأها وتلاها.

٦ ـ فيها رحمة اللَّه بعباده فلم يشدد القول عليهم بل جعل ذلك في صورة إرشاد وتنبيه وتحذير يفهم منه النهي والتحريم.

٧ ـ أن اللَّه سبحانه وتعالى جمع في صفحة واحدة من القرآن الكريم ما يكفي البشرية علماً في أكثر حياتهم وشأنهم.

وأما إذا قرأت القوانين الأرضية فمثل هذا الإرشاد والتحذير يحتاج إلى صفحات طويلة وربما إلى مجلد كامل في تفصيل المنع والعقوبة فيه.

٨ ـ أن جعل اللَّه سبحانه وتعالى في النهي خوفاً من اللَّه سبحانه وتعالى قبل العقوبة أو تنفيذها وهذا سر من أسرار نجاح التشريع القرآني للبشر.

٩ ـ أن العبد عندما يقرأ هذا النهي يدرك أن هذا تشريع رباني عليه التنفيذ رغبة في الجزاء وخوفاً من العقوبة.

١٠ ـ أن هذا التحريم لم يأت بصورة ترهيب وكأنه أقرب إلى الترغيب في عكسه وهذا نوع من الإعجاز في التشريع الرباني.

١١ ـ رغم أنه في هذه الآيات تحريم وتحذير إلا أنها صيغت بأسلوب رباني تجعل النفس البشرية تقبل النهي وتبتعد عنه حباً وطواعية ربما ليس خوفاً من عقوبة بل حباً بما يحبه اللَّه سبحانه وتعالى وكرهاً بما يكرهه اللَّه سبحانه وتعالى.

١٢ ـ كل ذلك جعله اللَّه بصيغة الحكمة حيث أن الحكمة هي مصدر التشريع ذلك أن الحكمة لا تقبل الخطأ ولا تقبل الذنب ولا تقبل الإساءة ولا تقبل إلا الحق.. وعندما تقول رجل حكيم فمعنى ذلك أنه رجل حق ويقول الحق ولا يظلم ولا يفتري ولا يفعل المنكر.. لذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى بعد أن أنهى تحريمه وإنذاره وتنبيهه وإرشاده لعباده قال:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٣٩]

المواريث والتشريع الرباني

جاء تشريع المواريث في القرآن الكريم نقلة هائلة بين ما شرعه البشر لأنفسهم وما شرعه اللّٰه سبحانه وتعالى لهم.

قبل نزول القرآن الكريم كنت تسمع أن في كل بلد وفي كل دولة أو إمبراطورية أو قبيلة نظاماً خاصاً للإرث والمواريث. . فمنهم من كان يحرم جميع الأبناء من ذكر أو أنثى إلا الولد الأكبر فهو الذي يرث ثروة أبيه جميعاً دون إخوته ومنهم من كان يحرم على المرأة أن ترث شيئاً من مال أبيها أو مال ابنها أو مال زوجها فنصف سكان الأرض من النساء وكلهم محرومون من الإرث ومنهم من يحرم أن يرث الأقرباء وإن لم يكن للميت ابن أو زوجة أو أب وأم ومنهم لا تجيز أن ترث الابنة وإن كانت هي الوريث الوحيد لأبيها كونها امرأة لا يحق لها الإرث وهكذا حتى نزل تشريع اللّٰه سبحانه وتعالى الرحيم العادل العليم بخلقه والعليم بما ينفعهم وما يضرهم الخبير بنفوسهم فأوجب الحق للجميع ذكراً أو أنثى طفلاً كان أو رجلاً قريباً من الدرجة الأولى أو قريباً من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة وأعطى الزوجة حقها من ميراث زوجها وابنها وأبيها بل زاد لها في مواقع وخفض لها في مواقع اللّٰه أعلم بصالحها جميعاً وجعل الأم ترث ابنها كما يرث ابنه وأمر بتنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث وحتى لا تطال النفوس المريضة عدم التنفيذ توعد اللّٰه سبحانه وتعالى أن من يَحرِمَ من أوجب اللّٰه له الحق في الميراث بعذاب شديد أليم.

قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ

ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

[سورة النساء، الآيات: ١١ ـ ١٤]

المرأة والتشريع الرباني

المرأة هي الأم والأخت والابنة والزوجة كانت من سقط المتاع عند أقوام الأرض جميعاً فمنهم من كان يحرقها ومنهم من كان يوئدها ومنهم من كان يعتبرها غير إنسان، ومنهم من كان يعتبرها نصف حيوان، ومنهم من كان يحرمها من كل شيء فقد كانت المرأة عند معظم شعوب الأرض حاجة نتنة ليس لها حق في شيء.

فعند الهنود كانت المرأة إذا توفى زوجها قبلها لا يحق لها أن تعيش من بعده ولذلك كانوا يحرقونها حية مع زوجها الميت. وعند الرومان كانت المرأة تعتبر من سقط المتاع لا ترث وليس لها رأي في شيء. وعند اليهود المرأة نجسة سواء كانت في حيض أو في طهر وفي حيضها أشد نجاسة فلا يجوز أن تلمسها أو تأكل من يدها وكان الخلاف شديداً في بعض المذاهب النصرانية وهو هل المرأة إنسان أم غير إنسان؟ وقد تم عقد اجتماع لمختلف الطوائف حول تحديد هوية المرأة هل هي إنسان أم غير إنسان؟. وكانت نتيجة الاجتماع أن المرأة إنسان ولكن ليس لها حقوق في أي شيء كان.

ـ ولم تكن المرأة في جزيرة العرب أحسن حالاً من غيرها بل كانت أسوأ حالاً.

هكذا كان حال المرأة في التشريعات الإنسانية قبل بعثة رسول اللَّه ﷺ ونزول القرآن الكريم.. ونزل القرآن الكريم وجاءت آياته الكريمة تبين حق المرأة في كل شيء، وبلغ من إكرام اللَّه سبحانه وتعالى لها أن سمَّى سورة من سور القرآن الكريم الطوال باسم سورة النساء.. ولغى القرآن الكريم ما كان سائداً عن المرأة وبين حقوقها وواجباتها وأنها مسؤولة كما الرجل مسؤول ومطالبة بالواجبات جميعاً كما الرجل مطالب، وجعل لها من الرعاية أكثر مما جعل للرجل حتى قال رسول اللَّه ﷺ للرجل الذي سأله من أحق

الناس بحسن صحابتي فقال رسول اللّه ﷺ (**أمك**) قال ثم مَنْ؟ قال: (**أمك**) قال ثم مَنْ؟ قال: (**أمك**) قال ثم من؟ قال: (**أبوك**).

وهكذا قد عظم اللّه سبحانه وتعالى في كتابه المرأة على اعتبار أنها أحد الوالدين الذين صاحب عبادته برهما.

قال تعالى:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٢٣]

وكذلك قرر لها حقها في الميراث فقال تعالى:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٧]

وإن كانت حصتها في الميراث أقل في بعض المواريث ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى لم يوجب عليها الإنفاق بوجود الزوج فعلى الرجل إطعام وإكساء زوجته وأولاده وقد بين اللّه سبحانه وتعالى أن هذه الدرجة التي جعلها للرجل بسبب الإنفاق.

قال تعالى:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٣٤]

وقد بين اللّه سبحانه وتعالى في كتابه أن الذي على النساء مثل الذي لهنّ مع فارق الدرجة للرجال يقول تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]

فهذه الدرجة هي للقوامة المالية. أما ما يتعلق بالحقوق والواجبات والجزاء فقد ساوى اللّه سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة. قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٩٥]

ويقول تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٢٤]

وليس هذا فحسب بل ذكر اللّه سبحانه وتعالى أن الأنثى مثل الذكر إذا آمنت وعملت صالحاً فوعدها اللّه سبحانه وتعالى أن يحييها حياة طيبة في الدنيا ويجزيها خير الجزاء يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٧]

وإذا كانت المرأة قبل الإسلام من سقط المتاع عند شعوب الأرض فقد أعزها اللّه سبحانه وتعالى وجعلها درة نفيسة يجب أن لا تظهر على الرجال إلا ما أحل اللّه لها إكراماً لها وصوناً لمكانتها وعفتها وشرفها وحيائها ولئلا تمتهن كرامتها فلا تؤذى ولا تتهم.

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ١٥٩]

فحينما شرع اللّه سبحانه وتعالى لها الحجاب إنما شرعه لها كرامة لها ولكي لا تؤذى.. وبهذا يُعلم اللّه سبحانه وتعالى الرجال أن هذه المرأة التي

كنتم تؤذونها وتمتهنون كرامتها حفظتها وجعلتها لا تنال منكم إلا بحق اللّه لا كما تظنون أنها سقط لا قيمة له.

فأوجب على الرجل أن يطلبها من أبيها وأن يعقد قرانها ويقدم لها المهر المعجل والمؤخر وأن تحترم كزوجة وتصان شخصيتها وقد جاءت السنة المطهرة بمئات الأحاديث الشريفة التي تحفظ للمرأة حقها من استعلاء الزوج واستكباره وتطاوله وأقرت المحاكم الشرعية حقها في الطلاق إذا أساء الزوج معاملتها أو لم يكن لائقاً بها حسب الأصول الشرعية وكذلك أوجب لها حق رعاية أبنائها وأن تكون لها كلمة فاعلة في أسرتها وعلى الأولاد الطاعة وعلى الزوج الاحترام والمودة والرحمة وهذا غيض من فيض مما كرمها اللّه سبحانه وتعالى به ورسوله الكريم ﷺ.

من سمات وصفات الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم

* من أهم محاسن الشريعة الإسلامية كما جاء في القرآن الكريم:

١ ـ أنها شريعة سمحة لا تكلفُ الناس فوق طاقاتهم، لأن تكاليفها كلها ميسرة لا مشقة فيها، فهي في حدود استطاعة كل مسلم، فقد قال تعالى:

قال تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]

وقال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٧٨]

وقال تعالى:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ٧]

٢ ـ أنها جاءت شريعة عامة لا نظر فيها إلى رحلات فردية أو جزئية أو

شخصية قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ .

[سورة سبأ، الآية: ٢٨]

٣ ـ **أنها سنَّت للناس رُخَصاً** عند الضرورة دفعاً للضرر ورفعاً للمشقة، قال تعالى:

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ .

[سورة النور، الآية: ٦١]

٤ ـ **قلة تكاليف الشريعة**، لتكون في استطاعة الجميع، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، ذكرهم وأنثاهم.

* فإن تتبعت القرآن والسنة وجدت الأوامر فيها قليلة وبسيطة.

* فقد أمر اللَّه سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة والزكاة فقال:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٤٣]

* وفرض تعالى الحج فقال:

قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ٩٧]

* وأمر تعالى بطاعة اللَّه والرسول وأولي الأمر فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ .

[سورة النساء، الآية: ٥٩]

وأمر تعالى بالدعوة والحسبة والجهاد.. قال تعالى:

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]

وأمر تعالى بالاعتصام بحبله وعدم التفرق فقال:

قال تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]

* وأمر تعالى بالجهاد فقال:

قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢١٦]

* وأمر تعالى بتوحيده ونهى عن الشرك وأمر بالإحسان إلى الوالدين، وعدم قتل الأولاد خشية الإملاق، ونهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ونهى عن قتل النفس بغير حق وعن قرب مال اليتيم إلا بالحُسنى، وأمر بالوفاء بالكيل والميزان والعدل في الأقوال والوفاء بعهد اللّٰه واتباع الصراط المستقيم، فقال تعالى:

قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٥١]

* وأمر تعالى بذكره فقال:

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٥٢]

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى

عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآيات: ٤١ ـ ٤٣]

* وأمر تعالى بقراءة ما تيسر من القرآن، وإقراض اللّه قرضاً حسناً واستغفاره سبحانه وتعالى، فقال:

قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

[سورة المزمل، الآية: ٢٠]

* وأمر تعالى بالإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت اليمين.

قال تعالى:

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٣٦]

٥ ـ **التدرج في الأحكام**: لأن الشريعة عالجت العادات الذميمة المتأصلة في النفوس بالتدرج في استئصالها شيئاً فشيئاً من غير تشديد ولا تعقيد في النهي عنها وتحريمها.

فمثلا: في عادة شرب الخمر جاء الإسلام بالأحكام متدرجة في تحريمها بأسلوب حكيم لم يشعر الناس معه بحرج أو مشقة.

التدرج في تحريم الخمر:

* روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: حُرمت الخمر

ثلاث مرات، قدم رسول اللّه ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول اللّه ﷺ عنها فأنزل اللّه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢١٩]

فقال الناس: ما حُرما علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يومٌ من الأيام صلى رجل من المهاجرين، وقد أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل اللّه أغلظ منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

[سورة النساء، الآية: ٤٣]

فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٩٠]

قالوا: انتهينا ربنا[1].

* وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض فلما أن صَحُوا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فأنزل اللّه سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٦٧٥).

وهي في بطن فلان قتل يوم بدر وقتل فلان يوم أحد فأنزل اللّه ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٩٣]

* وعن أنس رضي اللّه عنه قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيح، فأمر رسول اللّه ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حُرمت، قال: فقال لي أبوطلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فأهرقتها فجرت في سكك المدينة، فقال لي بعض القوم قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل اللّه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الآية[(١)(٢)].

٦ ـ **مسايرةُ مصالح الناس**: وذلك أن اللّه سبحانه وتعالى شرع بعض الأحكام ثم نسخها إذا كان في ذلك المصلحة العامة كما حدث في بعض الأحكام الخاصة بالوصية وآيات المواريث، وكذلك تحويل القبلة في بيت المقدس إلى الكعبة بمكة المكرمة.

---

(١) البخاري (٦/ ٣٦).

(٢) الصحيح المسند من أسباب النزول (٨٨، ٨٩).

مبادىء الشريعة الإسلامية في القرآن

١ ـ مبدأ التوحيد:

فقد جمع اللّه سبحانه وتعالى أهل الكتاب كلهم على التوحيد، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٦٤]

٢ ـ مبدأ الاتصال المباشر باللّه سبحانه وتعالى دون وساطة:

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٦٠]

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٨٦]

٣ ـ مبدأ الدعوة إلى التفكر والاعتبار:

فقال تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[سورة ص، الآية: ٢٩]

وقال تعالى:

﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[سورة ص، الآية: ٤٣]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية: ٩]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية: ٢١]

وقال تعالى:

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

[سورة غافر، الآية: ٥٤]

وقال تعالى:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ .

[سورة الطلاق، الآية: ١٠]

٤ ـ مبدأ إحاطة الشريعة بالأخلاق الفاضلة والآداب الزاكية:

مثل قوله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ .

[سورة الفرقان، الآية: ٦٣]

٥ ـ مبدأ التوفيق بين الدين والدنيا:

فقد دعا اللَّه سبحانه وتعالى إلى ابتغاء الدار الآخرة وفي نفس الوقت عدم نسيان الإنسان لنصيبه من الدنيا، قال تعالى متحدثاً عن قارون، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

[سورة القصص، الآية: ٧٧]

٦ ـ مبدأ العدل والمساواة بين الناس، والفرق بينهم عند اللَّه التقوى:

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

[سورة الحجرات، الآية: ١٣]

٧ ـ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيها صلاح البلاد والعباد:

قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]

وقال تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١١٠]

وقال تعالى:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣، ١١٤]

وقال تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٢٥]

٨ ـ مبدأ الشورى:

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٣٨]

٩ ـ مبدأ الرحمة واللين والرأفة والتسامح والعفو:

قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]

وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٥٤]

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٤٤]

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة النور، الآية: ٢٢]

وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة التغابن، الآية: ١٤]

١٠ ـ مبدأ الحرية:

قال تعالى:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦]

وقال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٢٩]

١١ ـ مبدأ التكافل الاجتماعي:

فقد جعل اللّه سبحانه وتعالى للفقير حقاً في مال الغني، وليس تفضلاً من الأغنياء على الفقراء...

قال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

[سورة التوبة، الآية: ١٠٣]

(١) الموسوعة الذهبية صفحة ٤٨١.

صور من إقامة الحدود في التشريع الإسلامي

١

قتل النفس (التي حرم الله إلا بالحق)

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

[سورة النساء، الآيتان: ٩٣، ٩٢]

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ: أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأً، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب ـ وقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو

هدنة فلهم دية قتيلهم فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل: ثلثها ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين.

وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾: هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك باللَّه في غير ما آية في كتاب اللَّه.

* عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ولا توبة له فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم.

* وعن سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعدما كف بصره فأتاه رجل فناداه يا عبد اللَّه ابن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً؟

فقال: **(جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)**.

قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟

قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى، والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول:

(ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً، جاء يوم أخذه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه، يقول: يارب سل هذا فيما قتلني).

وايم الذي نفس عبد اللّه بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قُبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان.

* قال ابن كثير: والذي عليه جمهور سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين اللّه عز وجل فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل صالحاً بدل اللّه سيئاته حسنات، وعوَّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته،

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

[سورة الفرقان، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠]

وقال تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٥٣]

وهذا عام من جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك. كل من تاب تاب اللّه عليه(١).



٢ القصاص في القرآن

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧٨]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٩ـ ٥١١).

وقال تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٤٥]



محاربة اللّه ورسوله والسعي في الأرض فساداً

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

[سورة المائدة، الآيتان: ٣٣، ٣٤]

فالمحاربون للّه ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطرق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي فيغصبونهم أموالهم ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها فتنقطع بذلك فأخبر اللّه أن جزاءهم ونكالهم عند اللّه إقامة الحد عليهم بفعل واحد من هذه الأمور (أي المذكورة في الآية).

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: أي النكال ﴿ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فدل هذا على أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، وهو موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب للّه ورسوله.

وإذا كان هذا شأن تعظيم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق من القتل وأخذ الأموال من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وإنه إصلاح في الأرض كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ ﴾ أي من هؤلاء المحاربين.

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ودل مفهوم الآية أن توبة المحارب بعد القدرة عليه لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه فمن باب أولى[١].

* وقد نص القرآن على عقوبة المحاربين بقطع اليد اليمنى وترك بقية الأطراف سليمة كي يعمل بها لكسب رزقه من حلال إذا ارتدع.

* وتجمع هذه العقوبة من القسوة والرحمة في آية واحدة، وهذا ضرب من الإعجاز في العقوبة والردع معاً، وقد أحل الشرع بعد ذلك قتله إذا تمادى في الجريمة ولم يرتدع، ويعاقب المحارب بالقتل إذا قتل سواء استولى على المال أم لم يستول عليه، وقد نصت الآية على أنواع أخرى من العقوبات التي توقع على المحاربين الآثمين.

* وهذه الأحكام تدل دلالة واضحة على أن الشريعة الإسلامية تنظر إلى آثار الجريمة التي فيها اعتداء شنيع على الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، وإزهاق أرواحهم وسلب أموالهم، وشدَّدت العقوبة بما يناسب ما أحدثته الحرابة من عدوان وترويع للآمنين، ثم إن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً هو عذاب الجحيم.

٤

جريمة السرقة

قال تعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٨]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٣٠، ٢٢٩).

قال ابن كثير: يقول تعالى آمراً بقطع يد السارق والسارقة، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط أخرى كما ستذكر إن شاء اللّه، كما كانت القسامة والدية والقراض، وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح.

* وقد ذهب الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قُطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً، لعموم هذه الآية، وتمسكوا بما قد ثبت في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال:

(لعن اللّه السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده)[١].

وأما الجمهور، فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، وعن عائشة رضي اللّه عنها أن رسول اللّه ﷺ قال:

(تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً)[٢].

قال أصحابنا: فهذا الحديث أصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار وما ساواه، قالوا: وحديث ثمن المجن، أن النبي ﷺ:

(قطع في مجنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم)[٣] لا يناقض، ولا يُنافي لأنه إذا كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي تعدل ربع الدينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق[٤][٥].

---

(١) البخاري (الفتح ٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).
(٢) البخاري (٦٧٨٩)، ومسلم (١٦٨٤).
(٣) البخاري (الفتح ٦٧٩٥)، ومسلم (١٦٨٦).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٦٣٣).
(٥) القرآن وإعجازه التشريعي، محمد إسماعيل إبراهيم.

الربا والزكاة في التشريع الإسلامي



حكم الربا في التشريع الإسلامي

قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٥]

الربا من السبع الموبقات:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال:

(اجتنوا السبع الموبقات). قالوا: يا رسول اللّه، وما هن؟ قال: (الشرك باللّه، والسحر، وقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[(١)].

لعن النبي ﷺ آكل الربا

* عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: لعن رسول اللّه ﷺ آكل الربا وموكله[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٩٤)، ومسلم (٨٩).

(٢) مسلم (١٥٩٧)، والترمذي (١٢٠٦)، وأبو داود (٣٣٢٣).

تعريف الربا وحكمه:

الربا في اللغة: الزيادة، والمقصود به في الآية الزيادة على رأس المال عن طريق الترابي..

* **حكمه**: محرم في جميع الأديان السماوية في اليهودية والمسيحية والإسلام.

جاء في العهد القديم:

(إذا أقرضت مالاً لأحد من أبناء شعبي فلا تقف منه موقف الدائن لا تطلب منه ربحاً لمالك).

وفي العهد الجديد:

(إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة فأي فضل يُعرف لكم؟ ولكن افعلوا الخيرات، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها، وإذن يكون ثوابكم جزيلاً).

وفي النصرانية:

اتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريماً قاطعاً.

وفي الإسلام:

أنزل اللّه سبحانه وتعالى دينه ليقيم العباد على منهج العبودية الحقة التي تعرج بهم إلى مراتب الكمال، وتسموبهم إلى المراتب العليا، وبذلك يتخلصون من العبودية الفاسدة ويقصرون أنفسهم على عبادة رب الخلائق، ويتخلصون بذلك من الفساد الذي يخالط النفوس.

إن الإسلام يريد أن يطهر العباد في نفوسهم الخافية المستورة، وفي أعمالهم المنظورة، وتشريعات الإسلام تعمل في هذين المجالين، والقرآن الكريم سماها بالتزكية والتطهير،

قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ١٠٣]

من آثار الربا:

* الربا واحد من الأعمال التي تعمق في الإنسان الانحراف عن المنهج السوي، وذلك أن المرابي يستعبده المال، ويعمي ناظريه بريقه، فهو يسعى للحصول عليه بكل السبل وفي ذلك يدوس على كل القيم ويتجاوز الحدود، ويعتدي على الحرمات، إن الربا ينبت في النفس الإنسانية الجشع، كما ينبت الحرص والبخل، وهما مرضان ما أصابا نفساً إلا أفسدا صاحبها.

ومن الجشع والبخل، تجد الجبن والكسل، فالمرابي جبان يكره الإقدام لذلك شعار المرابين: إن الانتظار هو صنعة المرابين، فهو يعطي ماله لمن يستثمره، ثم يجلس ينتظر إنتاجه لينال حظاً معلوماً بدل انتظاره، وهو كسول لا يقوم بعمل منتج نافع، بل تراه يريد من الآخرين أن يعملوا ثم هو يحصل على ثمرة جهودهم، وأشارت الآية القرآنية إلى هذا المعنى، قال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٣٩]

فالآية تشير إلى أن المرابي يعطي ماله للآخرين كي ينمومن خلالها.

قال تعالى:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٦]

* الربا يحدث آثاراً خبيثة في نفس متعاطيه وتصرفاته، وأعماله وهيئته.

* ويرى بعض الأطباء أن الاضطراب الاقتصادي الذي يولد الجشع يسبب كثيراً من الأمراض التي تصيب القلب، فيكون من مظاهرها ضغط الدم والذبحة الصدرية والجلطة الدموية والنزيف بالمخ أو الموت المفاجئ، وقد قرر عميد الطب الباطني في مصر الدكتور/ عبد العزيز إسماعيل في كتابه (الإسلام والطب الحديث) أن الربا هو السبب في كثرة أمراض القلب.

٢

الزكاة في التشريع الإسلامي

أولاً

فريضة الزكاة وأثرها في الاقتصاد وعلاج الفقر

* فريضة الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وقد وردت آيات كثيرة بشأن الزكاة فقد تكررت في أكثر من ثلاثين آية من كتاب اللَّه سبحانه وتعالى وجاء الأمر بها مقروناً بالصلاة في معظم الآيات، كما في قوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٤٣]

١ ـ فيها دفع لحاجة الفقراء وهم السواد الأعظم في معظم البلاد.

٢ ـ في الزكاة تقوية للمسلمين ورفع لشأنهم.

٣ ـ في الزكاة إزالة للأحقاد والضغائن التي تكون في صدور المحتاجين والفقراء. فإذا صرف الأغنياء لهم شيئاً من أموالهم على رأس كل حول (وهي في الحقيقة حق الفقراء الشرعي على الأغنياء) زال الحقد والبغضاء من قلوب الفقراء وحصلت المودة والوئام.

٤ ـ في الزكاة تنمية للأموال وتكثير لبركتها، وجاء في الحديث الصحيح **(ما نقصت صدقة من مال)** أي إن نقصت الصدقة المال عددياً فإنها لن تنقصه بركة وزيادة في المستقبل بل يُخلف اللَّه بدلها ويبارك في ماله.

٥ ـ في الزكاة توسعة وبسط للأموال، فإن الأموال إذا صُرف منها شيء اتسعت دائرتها وانتفع بها كثير من الناس، بخلاف إذا كانت دُولة بين الأغنياء لا يحصل الفقراء على شيء منها..

ثانياً

أثرُ الزكاة في توزيع الدخل والثروة

* إن فريضة الزكاة تُعدُّ وسيلة فعالة من وسائل إعادة توزيع الثروة بين

أفراد وحدات السلع المستهلكة يمكن التدليل على تناقص المنفعة الحدية للدخل كلما زادت عدد وحداته، فالغني تكون لديه منفعة الوحدة الحدية للدخل أي الوحدة الأخيرة أقل من منفعة الوحدة الحدية للدخل لدى الفقير وعلى ذلك فإن نقل عدد من وحدات دخل الغني عن طريق الزكاة إلى الفقير، يسبب كسباً للفقير أكثر من خسارة الغني، والنتيجة النهائية هي أن النفع الكلي للمجتمع يزيد بإعادة توزيع الدخل عن طريق الزكاة، وإعادة توزيع الدخل لصالح الفقراء الذين يرتفع لديهم الميل الحدي للاستهلاك عن غيرهم من الأغنياء، ينعكس أثره على زيادة الإنفاق من خلال المضاعف على زيادة الإنتاج.

* من الواضح أن الزكاة تُعين كل من هو قادر على الإنتاج، فهي بذلك تخلق طاقات إنتاجية إضافة إلى تشغيل الطاقات العاطلة، وبذلك يتم القضاء تدريجياً على البطالة، بحيث يصبح جميع أفراد المجتمع من المنتجين، كما أن الزكاة دعوة إلى إطلاق الحوافز المادية بتقريرها سهماً من الزكاة للعاملين عليها، فكلما اجتهد العامل في جمع الزكاة فأحسن الأداء زاد الدخل وارتفع نصيب العاملين عليها[١].

(١) الإنفاق العام في الإسلام (١٥٣)، فريضة الزكاة، عبد الرازق نوفل (٣،٧).

الإعجاز التشريعي المادي والمعنوي في القرآن الكريم

جاءت التشريعات الربانية في القرآن الكريم من لدن حكيم خبير. . . . وليس قانون سنته البشرية عبر تاريخها وتجاربها إلا أخطأت في بعضه وأصابت في بعضه الآخر وعدّلت في بعضه وأضافت وألغت طبقاً لمصالحها أو مصالح أفرادها أو مصالح ملوكها وأمرائها وسادتها وأغنيائها. . فكم من القوانين ألغيت بسبب حكم جائر أو عدلت بسبب ملك ظالم؟. . كالملك الرومي قسطنطين الذي أراد أن يعدّل قانون الكنيسة قهراً حتى يتسنى له الزواج من ابنة أخته التي أحبها ممّا ينافي سنة اللّه سبحانه وتعالى في أرضه والعرف والتقاليد والعادات لدى شعوب الأرض.

أمّا أحكام اللّه ومنذ نزول القرآن الكريم منذ ١٤٢٦ سنة لم تتغير ولم تتبدل ولم يلغ منها شيء لأي سبب من الأسباب إلا ما أوقف عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه واحداً من ثمانية من مستحقي الزكاة وهو ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ بسبب عدم وجود المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وبعد دخول الناس في الإسلام أفواجاً أفواجاً.

على الرغم من صلاح الأمر حتى هذه الساعة أو قل خاصة هذه الساعة التي يحتاج كثير من الناس إلى المال الذي يستمال به القلوب غير المسلمة. . . وها قد مضى أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم بأحكامه الصائبة المتينة والصحيحة ـ ولم نشعر أن تشريعاً واحداً في القرآن الكريم غير صحيح أو بحاجة إلى تبديل أو تغيير سواء كان تشريعاً جماعياً أو فردياً أوللأمة بأسرها. . على الرغم من التقدم الهائل الذي تلمسه شعوب الأرض في هذه الأيام.

. . لقد استحدثت مئات بل آلاف المستجدات اليوم كلها لم تكن

موجودة من قبل إلا أنها جميعاً لم تمس جوهر التشريع الإسلامي كطفل الأنابيب أو كالاستنساخ الحيواني أو البشري أواكتشاف الجينات المورثة، كثيراً هي التغيرات والتبدلات والمستجدات وعلى الصعد كافة الطبية والنباتية والحيوانية والفلكية والجيولوجية والفيزيائية أو في علم الرياضيات والحساب وظهور الحاسب الآلي والإنترنت والسفن الفضائية والصواريخ العابرة للقارات واختراع الطائرة والسيارة والقطار. . . كل ذلك ما مسَّ التشريع الإسلامي في شيء بل تفاعل معها التشريع الإسلامي بكل شفافية ووضوح. . فإن قلنا تطور الطب والتشريح الجسدي واكتشاف آليات الجسد. . نقول: هذا لا يمانع فقد قال تعالى:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٢١]

وإن قلنا أن تطوراً هائلاً حدث في علم الجيولوجيا نقول وفي هذا لا يمانع التشريع يقول تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٢٠]

وإن قلنا إن البشرية استطاعت أن تنفذ من أقطار الأرض وتتجه نحوالفضاء والكون الفسيح، نقول إن هذا لا يمانع القرآن وعلمه والتشريع ووضعه فقد قال تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

[سورة الرحمن، الآية: ٣٣]

فلووضعنا كل المستجدات المعاصرة واحدة واحدة ونظرنا في التشريع الإسلامي لا تجد حكماً ناقصاً في واحدة منها ولا تجد الإسلام يعارض واحدة منها إذا كانت في صالح البشرية جمعاء ولا تعارض بين أحكام القرآن ومستجدات العصر إلا ما كان من مستجداته فاسداً (كالاستنساخ البشري مثلاً) أو اللعب بالجينات المورثة، أو في قتل المريض فيما يسمى (الموت الرحيم)

ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى (هو الذي يحيي ويميت) أو فيما يتعلق بزواج الذكر من الذكر والأنثى من الأنثى والذي أباحته بعض الدول وأقرته برلماناتها مما يخالف الطبيعة البشرية والتي تأباها شرائع القرآن (أحكامه وتشريعاته). . فهل إذا خالف التشريع الرباني أمثال هؤلاء الذين شذوا عن سنة اللّه ـ يكون غير صالح لتطورات الحياة على هذه الأرض؟ وهل إذا خالف في تشريعاته كتحريمه شرب المسكرات أنه يخالف التطور أو أن تشريعه لا يتعامل صحيحاً مع رغبات الناس من غير المسلمين الذين أباحوا لأنفسهم من مثل هذه المعصية التي حرَّمها اللّه في كتابه أشد التحريم؟ . . وهل إذا خالف في تشريعاته لعب الميسر أنه غير قابل للتطور والتحديث في إقامة مشاريع نوادي القمار التي تسلب الناس أموالهم وتشرد عائلاتهم، وهل إذا منع إقامة علاقات غير مشروعة بين الرجل والمرأة قبل الزواج وحرَّم الزنا أنه يقتل رغبات النفس البشرية والتي أطلقت لها العنان تشريعات وقوانين أرضية. . إذ تعتبر أكثر دول العالم أن حرية الجنس من حق الناس حتى لوكانت من دون أدنى ضوابط. . ويقولون كيف نكبح رغبة دفينة في الجسد؟ وكيف تحرمها شريعة لا تتعامل مع الحياة بشكل صحيح؟ يقولون وكأن اللّه سبحانه وتعالى كبت الجسد وحرمه من غريزة هو خلقها في الإنسان ولكن اللّه سبحانه وتعالى ضبطها بضوابط حتى لا يقع المجتمع فريسة لشهواته وعبداً لها فيهوي في مهاوي الردى ولوبعد حين.

كيف شرَّع اللَّه سبحانه وتعالى الأحكام؟؟

لا شك أن قاعدة الأحكام الشرعية بنيت على التوافق بين عدة أمور وهنا يكمن سر عظمة التشريع الإلهي حيث إن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم عندما شرع الشرائع للإنسان فأباح وحرَّم لعلمه بالإنسان ولعلمه سبحانه بما يفيده ويضره، أليس هو خالقه؟ أليس سبحانه وتعالى أعلم بما يفيد الإنسان مما يؤذيه؟ وهو الذي يقول في محكم كتابه:

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

[سورة ق، الآية: ١٦]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ١٩]

فاللَّه سبحانه وتعالى أعلم بخلقه وهو أقرب إليهم من حبل الوريد فهو أقرب لخلقه من خلقه أنفسهم.

فالتشريع الرباني في كل شأن من شؤون حياة الإنسان وضع بناء على **قاعدتين أساسيتين:**

الأولى: قاعدة الامتحان والابتلاء.

فالإنسان خلقه اللَّه سبحانه وتعالى على الأرض للابتلاء والامتحان ولا بد لهذه القاعدة من تأثير عام وشامل في كل الأحكام التي شرعت للإنسان.

قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٢]

من الآية القرآنية الكريمة ندرك أن الإنسان واقع في امتحان وابتلاء.. إذاً لا بد من نهي ولا بد من إباحة.. ولكن وضع الله سبحانه وتعالى النهي والإباحة وفق علمه بالإنسان وبما ينفعه ولا يضره.

الثانية: قاعدة الرحمة الإلٰهية.

فمع وجوب الامتحان والابتلاء على الإنسان والذي عليه ستكون قاعدة الحساب يوم القيامة إلا أن اللّه سبحانه وتعالى كان في كل أرحم الراحمين فجاء التشريع سهلاً ليناً خفيفاً متوافقاً مع نفس الإنسان وفكر الإنسان وعقل الإنسان بل جعل في النهي منفعة عظيمة وفي الإباحة منفعة عظيمة ومن رحمة اللّه بعباده أن ضيق دائرة الامتحان حتى لا يكلف الإنسان فوق طاقته فمثلاً أحلَّ اللّه سبحانه وتعالى لنا كل المشروبات وحرَّم علينا الخمر وأشباهه فقط وأحل لنا كل الطعام وحرَّم علينا لحم الخنزير والميتة والدم فقط ومع ذلك أباحها عند الضرورة قال تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٧٣]

ما حرم اللّه شيئاً إلا وهو ضار وما أحلَّ شيئاً إلا وهو نافع

لووضعنا التشريع الإلٰهي في القرآن الكريم في خطة دراسية واحداً واحداً لما وجدنا في النهي نفع ولا وجدنا في الإباحة ضرر ولا وجدنا تعارضاً وضرراً في النهي مع خلق الإنسان وطبيعته وتركيبه الفيزيولجي.. فإذا زاد الإنسان في المباحات وقع الضرر عليه على مبدأ لا إفراط ولا تفريط فالطعام مباح ولكن يقع الضرر إذا أفرطنا فيه، والنوم مباح وإذا زدنا فيه وقع الضرر فكل المباحات القاعدة فيها لا إفراط ولا تفريط وأما في المحرمات فيقع الضرر في أدنى شيء منه ويزداد الضرر كلما زدت فيه فالربا مثلاً ضرر كلما زدت في الإقراض الربوي زاد الضرر حتى يضيِّع الإنسان نفسه وأسرته.. والميسر ضرر كلما زاد زاد الضرر حتى يبيع الإنسان المقامر حذاءه الذي يلبسه آخر الأمر ويمشي حافياً.

شرب الخمر ضرر فإذا زدت فيه زاد الضرر حتى يفقد الإنسان

شخصيته وكرامته ومكانته ويصبح بلا عقل فيستولي الآخرون لفقدانه عقله واتزانه في شرابه حتى الثمالة على ممتلكاته وربما على زوجه وأولاده وبالعكس فإن ما أحلَّه اللَّه يزداد ويربوعند اللَّه وعند الناس وعند أهل فاعله وعياله وعند نفسه.

قال تعالى:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٧٦]

ومع ذلك فإن كثيراً من الشعوب أحلَّت الخمر والميسر والربا ولا تعتبر الأمة وأفرادها في هذا ضيراً طالما هو جزء من حرية الفرد وضرورة العلاقات المادية.. ولكن ما هي حقيقة الناس في تلك المجتمعات التي أحلت الخمر والميسر والربا؟ هل هي مجتمعات سعيدة وأفرادها في حالة نفسية ممتازة.... لا ثم لا.. فإن علماء الاجتماع عندهم درسوا هذه الظاهرة ظاهرة الربا، والقروض الربوية وكم تفعل في أصحابها من أفاعيل تحيلهم إلى أفراد يودون الخروج ممَّا هم فيه بأي ثمن ولكن هيهات فلا مناص مما وقعوا فيه وفوائد القروض تزداد عليهم في كل يوم.. وأما لاعب الميسر أو المجتمع الذي أباح الميسر وأنشأ له النوادي والأماكن التي يقامر فيها من محلات ومقاهي، انظر إلى آثاره الفتاكة.. ثم آتني بلاعب ميسر واحد قد ربح وخرج من اللعب فائزاً بل من النادر أن تجد فيهم أحداً لم يبع بيته وأثاث بيته بل باع زوجه وأولاده.. وكذلك شرب الخمر الذي يفتك بالجسد ويذهب بالعقل والفكر.. انظر ما يفعل وصاحبه حتى لوشرب قليلاً فأقلها أنه يسعى إلى اللذة المحرَّمة من زنا ولواط وغيرهما من أنواع الفواحش.

.. فالإنسان لا يترك في هذه الأرض ليشرع لنفسه ويشرع لرغباته وشهواته كالبرلمانات التي أحلت زواج الشواذ ظناً منها أن هذا من الديمقراطية والحرية الشخصية فأباحت ما حرَّم اللَّه سبحانه وتعالى بل ما شدد على تحريمه وتجريمه.. فهو خروج عن الطبيعة البشرية والخلق البشري والشخصية الإنسانية التي أعدها وجهزها لتكون خليفة في الأرض

ومخالف لما جهزه اللّه سبحانه وتعالى وهيأه للإنسان من تسخير السماوات والأرض له وتكريمه وتفضيله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٧٠]

الفصل الثاني

- الحلال والحرام والشبهات في التشريع الإسلامي .
- العقوبات وآثارها في التشريع الإسلامي .
- الشورى ونظام التشريع الإسلامي .
- منهج التشريع الإسلامي الشامل في درء النزاعات .
- كيف تعامل التشريع الإسلامي مع الحرية الشخصية .
- التكافل الاجتماعي في التشريع الإسلامي .
- التشريع الإسلامي أعطى المرأة حقها فماذا يريد المشرعون في مؤتمر المرأة العالمي في بكين .

الحلال والحرام والشبهات في التشريع الإسلامي

عن النعمان بن بشير رضي اللّه عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (**إن الحلال بيّن وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى اللّه محارمه**) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه بألفاظ متقاربة.

أقول: إن العلماء قالوا عن هذا الحديث إنه أصل عظيم من أصول الشريعة، وذكر بعضهم أن الإسلام يدور على أربعة أحاديث أحدها هذا الحديث، وفي بدء الكلام لابد من تحديد المحاور التي دارت عليها معاني هذا الحديث إذ إن قضية الحلال والحرام اتخذت لها أبعاداً قريبة وبعيدة خاضت في لجتها أمم سابقة ولاحقة تأرخت ذكرياتها في بطون المراجع المختلفة وفي كتاب اللّه عز وجل.

فما هو الحلال وما هي الأمور المشتبهات فلابد أن نتعرف إلى المراد من هذه المصطلحات، **فالحلال البيّن** هو ما لم يرد بتحريمه دليل من الشرع وهذا كثير جداً إذا ما قيس إلى جانب الحرام، فالمباحات إلى جانب المحرمات تكاد تكون أكثر من ثلاثة أرباع ما خلق اللّه تعالى لعباده. فهل ضيق اللّه عز وجل على خلقه عندما استثنى محرمات معدودة هي داء وبلاء عليهم؟ ومع ذلك فإن الحرام يصبح حلالاً عند الضرورة وبشروط معلومة هي نقاط أمان له يلخص ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ١٧٢ ـ ١٧٣]

وقال أحد كبار المفسرين: (لما أباح اللّه تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب وكانت وجوه الحلال كثيرة بين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل وهذا مثل قوله ﷺ عما يلبس المحرم في الحج أو العمرة فقال: (لا يلبس القميص ولا السروال) فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور لكثرة المباح وقلة المحظور وهذا من الإيجاز البليغ.

المحرمات داء وبلاء.

أما **الحرام البيّن** فهو نوعان: **الأول**: حرام لعينه وهو تجاوز حقوق اللّه تعالى التي فرضها على عباده من حيث ترك الفرائض وإتيان المحرمات والمنهيات من مثل القتل والزنى والخمر والربا والسرقة وعقوق الوالدين والسحر أو إتيان السحرة والمنجمين والعرافين الذين يدعون الكشف ومعرفة الضوائع ومعرفة نوايا الناس وجلب الخير أو دفع الضر وما إلى ذلك وأيضاً قذف المحصنات وهو إشاعة السوء واتهام الآخرين من نساء أو رجال في أعراضهم وفي سيرتهم مع الغيبة والنميمة وكذلك الفرار من الزحف أي الهروب من قتال الأعداء، وشهادة الزور والأيمان الكاذبة على الآخرين إحياء للباطل وإضاعة للحق **والنوع الثاني**: الحرام لغيره وهو أكل حقوق الناس بعضهم من بعض، ولوكان بين الإخوة أو الأعمام أو الأخوال وغيرهم، ومن هذا الحرام اغتصاب حق الآخرين بالتحايل أو بغيره من مال أو أرض أو إرث وما أشبه من حقوق الآخرين فيما بينهم، وهذا النوع لا تكفره التوبة مهما كانت ولابد فيه من أحد أمرين، إما أداء الحق لصاحبه، أو الاستبراء منه أي أن يسامحه صاحب الحق عن رضى منه، وإلا فإن ذلك يلحق آكل الحقوق إلى يوم القيامة حيث يقف أمام محكمة مالك يوم الدين العادلة ليستوفي المظلوم حقه من حسناته وإن لم يبق له حسنات يطرح عليه من سيئاتهم.

المشتبهات ثلاثة:

وأما الأمور المشتبهات فهي أقسام ثلاثة، أن تكون الشبهة في شيء أصله حلال ثم يشك في تحريمه، فهذا يبقى حلالاً حتى يعلم تحريمه مثل من شك في الحدث بعد أن تيقن الطهارة، ومثل من له زوجة فشك في طلاقها فلا شيء في ذلك حتى يتيقن، وأن تكون الشبهة في شيء أصله حرام

وشك في زوال التحريم عنه كمن شك في شاة ذبحت لم يدر أنها ذبحت بشكل شرعي أم لا فإنها تبقى على الحرمة حتى يتيقن، وهناك قسم من الشبهة يحتمل الأمرين معاً ولا دلالة على أحدهما فالأحسن التنزه عنه كما فعل النبي ﷺعندما رأى في بيته تمرة فقال لولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها، ومعرفة الشبهات وإلحاقها بأحد طرفي الحلال أو الحرام أمر لا يدركه كثير من الناس وعليهم أن يسألوا أهل الذكر، وهذا معنى ما جاء في الحديث (**لا يعلمهن كثير من الناس**) وأما (**من وقع في الشبهات وقع في الحرام**) أن من لم يتورع عن الشبهات يحمله تساهله في أمرها على الجرأة على الحرام كما قيل: **الصغيرة تجر الكبيرة والكبيرة تجر الكفر**.. وقد شبه النبي ﷺ الشبهات بالحمى أي بالحدود التي تحيط بالمحرم، أو بحمى الملك أي حدود ملكه وهو اليوم مثل مسافة الأمان التي تكون بين السيارات أو بين الأبنية وغيرها وبناء عليه فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي ابتعدوا عما يوصلكم إليه ومثله قوله تعالى عن الخمر والميسر ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي ابتعدوا ولا تقتربوا مما يوصل إليه وقوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وقوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾. وليس للإنسان أن يسوغ لنفسه اقترافه للحرام بدعوى جهله بالحكم الشرعي ودعوى أن المؤاخذة تقع على من يعرف الحكم، فهذا الكلام مرفوض بالإجماع حيث قال العلماء (**لا عذر بالجهل في الأحكام في دار الإسلام**) وبخاصة أننا في بلاد مسلمة ينتشر فيها العلم والعلماء ولا مشقة ولا حرج في السؤال والتفقه، فهذا واجب العلماء تجاه الناس كما أن من واجب الناس أن يتفقهوا ويتعلموا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، وإنه نتيجة للجهل أو التجاهل أصاب الأمة الإسلامية ما أصابها وفي ذلك يقول اللّه عز وجل ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٣٠]

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١١]

فلا بد إذاً أن يتجرع الإنسان ثماراً شائكة لما ارتكب من محرمات، ومهما حاول أن يغلق مسامات عذابه النفسي ووخز ضميره فلابد أن يأتي

يوم يحس فيه بآثاره التي تجلده إن لم يتعظ ويتب. ومرتكب الحرام ذكراً كان أو أنثى هو عضو ملوث بالآثام، على كل من يعلم به واجب حتمي وهو أن يداويه كالطبيب الشفوق يرجوالشفاء لمرضاه، وأن لا ييأس من ذلك وأن لا يشاركه فيه.

العقوبات وآثارها في التشريع الإسلامي

نود أن نذكر بين يدي البحث أن الإسلام لم يشرع الحدود والعقوبات لأنها هي الهدف بل لأنها علاج أخير ولم يرد الإسلام زيادة رصيده في بيت المال من هذا المصدر.

نظام العقوبات في الإسلام حلقة من ضمن حلقات النظام التشريعي الإسلامي الشامل لجميع نواحي الحياة. ورغم أن العقوبة في حد ذاتها أذى يلحق بالجاني لزجره إلا أنها من الناحية الذاتية رادع وزاجر لمن هو على شاكلته من المفسدين يمنعهم من الإقدام على ما أقدم عليه.

ونظام العقوبات يتصل بسلوك الإنسان والاقتصاد سلوكاً إنسانياً لذا حاولت البحث في الجوانب الاقتصادية لنظام العقوبات تاركاً العقاب الأخروي وتفصيلات نظام العقوبات وحاصراً البحث في الجوانب والمظاهر الاقتصادية لجانب العقاب الدنيوي فقط.

ولتسهيل الموضوع نقسم الحديث إلى ثلاثة أقسام حسب أنواع العقوبات:

- **الحدود**
- **القصاص**
- **التعزير**



أولاً

الحدود

هي العقوبات التي فرضها اللّه سبحانه وقدرها حقاً له على عباده ولا

مجال للشفاعة فيها بسبب ارتكابهم جرائم معينة وتشمل كل الجرائم التي يرجع فسادها إلى العامة وتعود منفعة عقوبتها عليهم وحصرت الشريعة الإسلامية الحدود في سبع جرائم هي: الزنا، قذف المحصنات، شرب الخمر، السرقة، الحرابة، البغي، والردة.

والذي له علاقة بالاقتصاد وله مظاهر اقتصادية من هذه الحدود هو:

أ ـ السـرقـة:

وهي لغة أخذ الشيء خفية واصطلاحا أخذ مال الغير على جهة الاختفاء والاستتار شريطة أن يكون هذا المال محرزاً للغير، وحد السرقة قطع اليد من مفصل الكف استناداً لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٨]

الجوانب الاقتصادية

ومن الجوانب الاقتصادية للسرقة ما يلي:

١ ـ أن السرقة من وسائل الكسب والتملك المحرمة شرعاً.

٢ ـ أن الحكمة من فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر أن يزيد كسبه بكسب غيره وهو لا يكتفي بثمرة عمله فيطمع في ثمر عمل غيره ويفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور أو ليرتاح من عناء الكد والعمل أو ليؤمن مستقبله ومستقبل أولاده بالحرام.

٣ ـ الدافع إلى السرقة يرجع إلى اعتبارات منها زيادة الكسب أو زيادة الثراء وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في النفس الإنسانية بتحديد عقوبة قطع يد السارق مما يؤدي إلى نقص الكسب ويؤدي بالتالي إلى نقص الثراء ونقص القدرة على الإنفاق والظهور ويدعوإلى شدة الكدح وكثرة العمل والخوف الشديد على المستقبل.

٤ ـ شرعت عقوبة القطع ليد السارق انطلاقاً من احترام الإسلام للمال حيث أنه عصب الحياة واحترام ملكية الفرد وقدسية هذه الملكية.

٥ ـ كانت من حكمة التشديد في عقوبة السارق أن اللَّه سبحانه وتعالى لم

يجعل ذلك في غير السرقة مثل الاختلاس والنهب والغصب لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة وأنه يمكن استرجاع هذه الأنواع بالشكوى إلى ولاة الأمر ويسهل إقامة البينة بخلاف السرقة التي يندر إقامة البينة عليها.

٦ ـ اشترط في المال المسروق أن يكون مما يتمول ويملك ويحل بيعه شرعاً فلا قطع فيمن سرق الخمر أو لحم الخنزير وهذا له بعد اقتصادي إذ إنه لا يحمي السلعة المحرمة شرعاً مما يؤدي إلى تناقصها لعدم توفر الحماية لها وبالتالي انعدامها.

ب ـ الحـــرابـــة:

وتسمى قطع الطريق ويدخل في مفهومها العصابات المختلفة كعصابات اللصوص أو عصابات الاغتيال وتكون عقوبتها:

ـ إذا قتل ولم يأخذ المال عقوبته القتل لأن القاتل يقتل.

ـ إذا قتل وأخذ المال يقتل ويصلب.

ـ إذا أخذ المال ولم يقتل يقطع من خلاف أي تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى.

ـ إذا أخاف الناس ولم يأخذ مالاً فينفى.

وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٣]

وتظهر الجوانب الاقتصادية في هذه النقطة فيما يلي:

١ ـ الحرابة تؤدي إلى إرباك البلد والمستثمرين مما يؤدي إلى التأثير على الوضع الاقتصادي للناس نتيجة لانعدام الأمن والاستقرار.

٢ ـ الحرابة تؤدي إلى إهلاك الحرث والنسل أي قطع الشجر وإتلاف الزرع وقتل الدواب وهذه جميعها مظاهر اقتصادية وعليها اعتماد اقتصادي كبير وأساس الإنتاج الزراعي والحيواني.

٣ ـ تأثُّر التجارة ذلك العنصر الاقتصادي الفعال بأعمال الحرابة وقطاع الطرق

فإما أن تنهب البضائع أو يخاف التجار فلا يتجرون مما يقلل عرض البضائع وبالتالي ارتفاع اسعارها وحدوث الأزمات الاقتصادية.

٤ ـ عمل الحرابة طريق كسب غير مشروع والحصول على المال بطريق محرم شرعاً.

ثانياً

القصــاص

وهو معاقبة الجاني بمثل ما فعل وينحصر في الاعتداء على النفس بالقتل أو ما دون النفس من قطع عضوأو جرح أو إيذاء وعقوبتها القتل والدية.

ودية القتيل مقدار معين من المال يدفع لذوي المقتول تعويضاً، وهي الجانب المادي والمالي من عقوبة القتل لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٩٢]

وقد كان نظام الديات موجوداً قبل الإسلام فأبقاه الإسلام ومقدارها مائة من الإبل أو٢٠٠ بقرة أو٢٠٠٠ شاة أو ألف دينار ذهب أو١٢٠٠٠ درهم فضة.

الديــة الاقتصــــادية

ومن مظاهر الدية الاقتصادية:

١ ـ أنها جزء من عقوبة القتل الذي أدى إلى إنقاص القوى العاملة والتي هي جزء من عوامل الإنتاج.

٢ ـ الدية من طرق التملك المشروعة والتي لا حرج فيها.

٣ ـ يظهر فيها التكافل الاجتماعي والتضامن عندما تشترك العائلة وهم الأقارب في جمع الدية مما لا يسبب إرهاقاً للشخص وإنما يساعد بعضهم بعضاً.

٤ ـ سد الاحتياجات ومعالجة الوضع الاقتصادي لعائلة المقتول بعد أن فقدوا المعيل لهم وكاسب العيش والمنفق عليهم.

٥ ـ الدية في الأعضاء تعوض الإنسان الذي فقد أحد أعضائه مما يجعله عضواً غير منتج في المجتمع وربما يعجز عن الكسب.

٦ ـ كفارة القتل هي إما عتق رقبة أو إطعام المساكين أو كسوتهم أو الصيام. وإطعام المساكين أو كسوتهم له آثار اقتصادية بإزالة الحاجة عن بعض الناس المعدمين أو الفقراء والمساكين.

٧ ـ القتل يؤدي إلى الحرمان من الميراث ـ وهو أحد طرق التملك ـ حتى لا يلجأ الورثة إلى القتل لاستعجال الميراث.

٨ ـ وكذلك القتل يؤدي إلى الحرمان من الوصية ـ التي هي من طرق التملك وتساعد في سد حاجة المحتاجين ـ فحرمان القاتل من الوصية أيضاً يمنعه من الاستعجال وقتل الموصي.

ثالثاً

التعـزيـر

وهو التأديب على ذنب لا حد فيه ولا قصاص يترك أمر تقديره للحاكم حسب خطورة الجريمة وتأثيرها على المجتمع وطبيعة الجاني وبما يحقق المصلحة العامة وقد تكون بالتوبيخ أو النفي أو الغرامة أو المصادرة أو القتل، مثل التجسس لصالح الأعداء، ومن جوانب التعزير الاقتصادية:

١ ـ قد يكون التعزير بالغرامة أي إلزام الشخص بدفع مقدار من المال وهذا يكون لخزينة الدولة مما يساعد في تغطية نفقات الدولة وقد عزر رسول اللّه ﷺ مانع الزكاة بأخذ شطر ماله.

٢ ـ التعزير بالمصادرة وذلك إذا ما تاجر شخص مثلاً بلحم الخنزير أو الخمور فإن العقوبة مصادرة البضاعة وإتلافها، وهذا يؤدي إلى وجود السلع المشروعة وطرد السلع المحرمة من السوق.

٣ ـ هناك العديد من الجرائم الاقتصادية عقوبتها تعزيرية مثل الربا والاحتكار والغش والتدليس والتلاعب في أسعار الناس.

الشورى ونظام التشريع الإسلامي

يؤخذ معنى الشورى لغة من أصلها اللغوي الثلاثي «شار» فشار العسل شوراً وشيارة، استخراجه من موضعه، والمشار هو الخلية فكأن عملية الشورى عملية استخراج لأطيب نتيجة من عملية تفاعل عقلي، يشبه تفاعل خلية النحل مع الزهور وغيرها، حتى تخرج أفضل شيء للناس.

وتأتي شار في سياق آخر، فيقال شارها ويشورها بمعنى، اختبار الدابة وتقليبها عند العرض على مشتريها.

وشرت الدابة، عرضتها على البيع فأقبلت وأدبرت بها ليعرف مدى قوتها.

وتأتي (أشار) حاملة ظلال الأمر في قوله: أشار عليه بكذا، أي أمره به.

أما استشاره فهي طلب المشورة ومن خلال هذه الاستعمالات المختلفة للشورى، نستطيع القول:

إن كلمة الشورى ومشتقاتها وما يدل عليها من ألفاظ أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ٦]

و﴿ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾.

[سورة النمل، الآية: ٣٢]

تدل على التعاون في تبادل الرأي ومداولته على نهج وأسلوب وأسس وقواعد، تحقق أهدافاً وغايات تجتمع كلها، لتبحث عن الحق أو ما هو أقرب إليه طاعة للَّه وعبادة له.

الشورى ـ بهذا التعريف ـ نظام متكامل متناسق يرتبط ـ في الإسلام ـ بمنهج اللَّه ارتباط عقيدة وإيمان.

الشورى نظام متكامل يرتبط في الإسلام بمنهج اللّه.

ارتباط عقيدة وإيمان:

ومن مهمات الإنسان المسلم أن يمارس هذا النظام بمنهجه وقواعده وأهدافه الربانية، ممارسة إيمانية في واقعه البشري لتمثل هذه الممارسة الإيمانية عملاً صالحاً ينمومع متابعة الممارسة.

وهو يستكمل قواعده حسب تطور العصور وتحدياتها من خلال الجهد البشري المؤمن الواعي، الفقيه بنظام الإسلام السياسي من جانب وبالأوضاع العصرية ومقتضياتها من جانب آخر.

الشورى نظام شامل:

والشورى ـ في الإسلام ـ تبتدئ من حياة المؤمن الفرد الخاصة إلى شؤون الأسرة ـ فقضايا الجماعة إلى حياة الأمة كلها.

ومع أن الامتداد الذي يجعل من الشورى نظاماً شاملاً متناسقاً متكاملاً، هو أحد الميزات لنظام الشورى في الإسلام ـ إلا أن الشورى في مراحلها الفردية أو التعليمية أو الأسرية، ليست مقصدنا في هذا المقام، فهذه الشورى ـ في هذا المستوى الفردي والأسري ـ جزء من التربية الاجتماعية أو الأخلاقية والأعراف وليست جزءاً من النظام السياسي أو ركناً أساسياً من أركانه.

لقد عرفت القبائل العربية في الجاهلية صوراً من الشورى، ولهذا دلالته البالغة في أن العرب ربما كانوا في جاهليتهم الأولى أفضل حالاً منهم في جاهليتهم الثانية، لكن ذلك لا يعني أن هذه الشورى العرفية تصلح بديلاً لمؤسسة الشورى التي بناها الإسلام.

لقد بنى قصي عبد مناف ـ في الجاهلية دار الندوة يجتمع فيها برؤساء القبائل والبطون العربية، يتشاورون في أمورهم، ولا يصدرون عن رأي يتصل بالسياسة العليا لقريش ومكة إلا في هذه الدار، فهي مجلس عربي منتظم يمضي وفق الأعراف العربية لا تضبطه قواعد ثابتة ولا أهداف محدودة ولقصي فيه اليد العليا. . . !!

وبعض الدول العربية المعاصرة عادت إلى هذا اللون الجاهلي من

الشورى، ومضت على نهجه أحقاباً طويلة، وتأبت على الشورى الإسلامية المنظمة التي تحكم الحاكم ولا يحكمها الحاكم، وتضبطها قواعد محددة وأهداف ثابتة، ولا تحركها المزاجية الفردية والتقلبات المصلحية العاجلة التي قد تكون على حساب ثوابت الأمة وأهدافها البعيدة.

ولقد آن لهذه النظم أن تخلع ربقة الشورى المزاجية، وأن تعود إلى الإسلام التي تخضع لنظام وضوابط، وتمثل أحد الركنين الأساسين في النظام السياسي الإسلامي: (الشورى والعدل)، كما تمثل ـ بحق التعبير الصحيح عن خبرة الأمة ووعيها الحضاري، لا مجرد تعبير عن فرد واحد تذوب في عقله بعض العقول الدائرة في فلكه، الباحثة عن وجودها من خلال وجوده.. فهو يخدعها، إذ يوحي إليها أنها مستقلة، وهي تخدعه إذ تقدم له ما يريده، أو ما تجتهد في معرفة أنه يريده..

إن الشورى الجاهلية هي شورى كبار القبيلة ورئيسها، أو شورى كبير القوم مع رؤساء القبائل.. وهي شورى تدل على تواضع الكبير وتنازله عن بعض حقوقه، وهي محمدة له، يذكر بها في التاريخ، متفضلاً متعطفاً عارفاً لأقدار قومه، بل قد تكون الشورى منه خوفاً من انفراط العقد، ووقوع الخلاف، وليس إيماناً بأهمية الشورى، على أساس أنها الطريق للحفاظ على حياة الأمة وحقوقها.. والعاجز ـ في عرفهم ـ من لا يستبد!!

شورى الإسلام:

أما الشورى الإسلامية، فهي غير ذلك تماماً.. إنها عبادة إيمانية وحق للأمة، وواجب على الحاكم، ونظام سياسي واجتماعي، ينتظم الحاكم ورجاله، كما ينتظم جموع الأمة على قدر الإمكانات المتاحة لكل منهم!!

فالأمة الإسلامية أيام كانت خير أمة، كانت تقوم على هذا النسيج المحكم: «وأمرهم شورى بينهم» وهي لن تصبح ممثلة للإسلام جديرة بالانتساب إليه، إلا إذا عادت إلى هذا الركن الأساسي من أركان النظام السياسي الإسلامي..!!

وقد كان شأن الأمم الأخرى ـ حين ظهر الإسلام ـ ولقرون طويلة بعد

ظهوره على العكس من ذلك فقد كان المسلمون يصفونها بأنها أمم قيصرية وكسروية وفرعونية وهرقلية، يستعبد فيها الحاكم الأمة وينظر إليها على أنها مملوكة له، مثلما نظر فرعون إلى المصريين، وهو يحاور نبي اللّه موسى عليه السلام ويقول: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾.

[سورة الزخرف، الآية: ٥١]

باب جديد في التاريخ:

لكن الإسلام ـ (قرآناً وسنة) ـ يفتح باباً جديداً في التاريخ لأننا في المرحلة القرآنية التي تفتتح عصر العلم والعقل: (اقرأ باسم ربك الذي خلق).. في هذه المرحلة القرآنية التي بلغ فيها الإنسان ـ سن الرشد ـ يطوي الإسلام صفحة الكسروية والفرعونية، ويفضح أبطالها.. وفي الوقت نفسه يؤصل للشورى الإسلامية بادئاً بمعلم البشرية محمد ـ ﷺ.. إنه يقول له ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]

وإذا كان الرسول عليه السلام.. وهو المعصوم الرحيم الحريص ـ يوصف، ويمدح، ويؤمر بنبذ الغلظة والعفووالاستغفار لأصحابه ومشاورتهم فكيف بغيره؟، ولنلاحظ هنا الترتيب والتعقيب، الذي تفيده الفاء في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ ﴾.. فكأنه لا عزم ولا قرار، إلا إذا ترتب على الشورى التي يحميها سياج الحب والرحمة والعفووالاستغفار.!!

لكن بعض الجبابرة، يلغون هذه الخيوط كلها ويقفزون إلى «فإذا عزمت» ويجعلون «توكل على اللّه»، بمعنى: «انطلق واتخذ قرارك الانفرادي، ولا تأبه بالآخرين»!!

وهكذا يقلبون الأمور المترتبة على بعضها ويفككون هذا النسيج القرآني العظيم المحكم. يقول الحق سبحانه:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

[سورة الشورى، الآيات: ٣٦ ـ ٣٩]

وإن أية قراءة مرتبطة واعية لهذه الآيات القرآنية كفيلة بأن تبين لنا الموقع الذي تحتله الشورى في النظام العام للإسلام. . . إن الحديث يتجه إلى خصائص الذين آمنوا. . إنه تقرير بواقعهم الذي يجب أن يكونوا عليه، وبغيره سيختل إيمانهم. . والحديث لا يأتي بصيغة الأمر، بل يأتي بصيغة التقرير، بل لتأكيد الماضي، فكأنه أمر مسلم به لا إيمان بدونه.

وطبيعة الخصائص الواردة تحتم هذه المكانة الأساسية لهذه الخصائص، فهي لا يمكن أن تكون نوافل أو كماليات، أو شعباً متأخرة من شعب الإيمان.

فالإيمان. . يرتبط به التوكل، وهو من أسس الإيمان، فالتوكل على غير اللَّه شرك. . . وهؤلاء المؤمنون المتوكلون، الذين تستطرد الآيات في سرد صفاتهم، هم الذين يستحقون ما عند اللَّه الذي هو خير وأبقى. . إنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. . والفواحش كما يقول المفسرون: هي ما عظم قبحه من الذنوب. . فليس الأمر هنا أمر صغائر أو نوافل. وهم الذين استجابوا لربهم. . وهم الذين أقاموا الصلاة. . . وهم الذين يتشاورون ويتراجعون في الأمور. . . وهم الذين يؤدون الزكاة. .

ـ **فالشورى واقعة بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام الخمسة. .** والصلاة والزكاة واقعان بعد الاستجابة للَّه. .

ـ وفي النسيج العضوي للآيات، ترد صفتان متصلتان بالقضايا الواردة فيها. . فالمؤمنون الذين تتحدث عنهم الآيات، يدورون بين العفو، الذي هو أيضاً ـ من خصائص الإيمان القوي، ومن الوقوف ضد البغي، حيث تأتي ظروف يكون العفوفيها ـ وبخاصة إذا كان الأمر يتصل بالأساسيات كحق الشورى ـ تنازلاً عن حقوق أساسية يؤدي التنازل فيها إلى إهدار آدمية الإنسان وكرامته. . . فإذا كانت البداية عفواً وغفراناً، فيجب أن تنتهي الأمور ـ إذا لم يؤد العفوإلى النتيجة المرجوة ـ الانتصار ضد البغاة الجبابرة المغتصبين للحقوق الأساسية للإنسان المسلم!! ومع هذا البيان القرآني الواضح في تقرير

فريضة الشورى تلتقي السنة النبوية الشريفة مفصلة ومؤكدة.. وكان سلوك الرسول ﷺ في سلمه وحربه، وهو ما يسمى بالسنة العملية أو الفعلية، أقوى تأكيد وتفصيل للقواعد القرآنية في الشورى... أما السنة القولية، فقد ورد منها في مجال الشورى جملة من الأحاديث الصحيحة، من أبلغها في الدلالة، قول الرسول ﷺ مع عصمته وتقواه اللذين لا يرتقي إليهما أحد ـ وهو يخاطب أبابكر وعمر: (**لواتفقتما على أمر ما خالفتكما فيه**) وبلفظ آخر: (**لواتفقتما في مشورة ما خالفتكما**) رواه أحمد بن حنبل.. ومن هذه الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: (**المستشار مؤتمن**) رواه الترمذي وقوله (**إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه**) رواه ابن ماجه وقوله (**من استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه**).

رواه أحمد بن حنبل

وعلى ذات الدرب، درب منهج النبوة في الشورى، سار الخلفاء الراشدون، فدولة الخلافة تأسست بالشورى وعليها، والبيعة الشورية والاختيار كانا سبيل تمييز الخليفة والعقد له والخليفة الأول هو الذي التزم تعميم الشورى في مجتمع المدينة، كلما عرض عارض لم تقض ولم تفصل فيه حاكمية اللّه. وعمر بن الخطاب، هو الذي طور جهاز الدولة ـ عندما دون الدواوين ـ بالشورى، واجتهد اجتهاداته ـ كثمرات للشورى ـ حتى لقد ازدانت صفحات مصادر التاريخ بمشاوراته ووصاياه الداعية إلى التزام الشورى كفريضة إلٰهية كالسبيل الآمن لسياسة الفرد والأسرة والأمة في مجتمع الإسلام، فهو القائل: من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه. فلا مشروعية ولا مبايعة، إلا إذا تمت عن طريق «شورى المسلمين»، يشمل ذلك الولايات والإمارات الفرعية. كما يشمل الإمارة الكبرى والإمامة العظمى ولقد خطب عمر، أواخر عهده، فقال: «إن قوماً يأمرونني أن استخلف، وإن اللّه لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته، والذي بعث به نبيه ﷺ ـ فإن عجل بي أمر فالخلافة شورى في هؤلاء الستة».

فإذا نظرنا ـ على ضوء أوامر الوحي الكريم ـ بسنة اللّه في الطبيعة البشرية وطبيعة الاجتماع البشري ـ تبين لنا أن الطبيعة الاجتماعية البشرية تحتاج إلى الشورى في كل مستويات الاجتماع البشري، بدءاً من البيت وحتى

المدرسة، ومؤسسة الدولة بكل أركانها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعسكرية. فتباين الآراء واختلاف أنصبة البشر من العقل والعلم والفقه، وضغوط الأهواء والنزعات. . . كل ذلك يجعل الوصول إلى الحق في حاجة ماسة إلى الرأي الجماعي. . .

كما أن الاختلاف بين الناس سنة من سنن اللّه في الاجتماع البشري، حتى في مجال الأطعمة والملبوسات والمشروبات، وشتى صور الممارسات البشرية. . إن الذاتية جزء من كينونتهم الإنسانية، وتعبيرهم عن الذات ليس حقاً من حقوقهم فحسب، بل هو فطرة فطرهم اللّه عليها!!

الوظيفة العظمى للشورى:

والوظيفة العظمى للشورى الإسلامية، أنها تمنهج الخلافات البشرية وتردها إلى أصول موضوعية عادلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٥٩]

ثم هناك أصول عقلية مقررة لدى أصحاب الفطرة السليمة، والعقول الخيرة والقلوب النقية، وهي إضافات تلتقي مع الوحي الكريم، كما تلتقي الأغصان مع الجذور.

وعلى المسلم أن يستوعب الجذور والأغصان في رحلة الحياة!!

وهو حين يستوعب هذه القواعد ويمارسها، يحتاج إلى قدرة على الموازنة بينها فهنالك بيعة وسمع وطاعة، وهنالك نصح ورأي، ومشورة كيف يوازن المؤمن بين نصحه ورأيه، وبين عهده وبيعته وسمعه وطاعته حتى لا يكون رأيه تفلتاً من عهد، أو إشاعة لفتنة! كيف يوازن المؤمن بين ذلك كله، حتى لا يكون نصحه تتبعاً للعورات؟ كيف ينصح ويشير على موازنة أمينة، حتى لا يبالغ فيملّ منه الناس، ولا يقصر فلا يبلغ مقصده؟

كيف يوازن بين الحب والبغض، حتى تستقيم مشورته ولا يضطرب رأيه؟

ومن هذا كله، تصبح دراسة (الموازنة) أمراً هاماً تساعد المؤمن في اختيار

هذه القاعدة الإيمانية أو تلك حين يشير برأي أو يدلي بنصيحة وللأسف الشديد، فكم يندفع بعض الناس حين يشيرون برأي، فيحسبون أن رأيهم هو الأصوب؟ وكم من الناس يعجبون برأيهم إعجاباً يدفعهم إلى ضلالة أو فتنة؟

وكم هلك أفراد، وسقطت دول، وآلت حضارات للسقوط، من جراء سلوكيات جبار مغرور سيطر الشيطان على عقله، وسول له أنه الأعلى والأذكى والأقدر والمعصوم... فأسقط الشورى وصادر العقول، وأرهب المفكرين.. فكانت عاقبة أمره خسراً، ولحرص الإسلام على إنقاذ الأفراد والدول والحضارات من هذا المصير، شرعت فريضة الشورى منذ نزل القرآن الكريم على محمد بن عبد اللَّه عليه الصلاة والسلام في عصور كانت عبادة الملوك فيها نهجاً سائداً مسيطراً على البشرية كلها نصرانية كانت أو وثنية.. ولم تكن هناك غير الشورى الجاهلية، التي تمثل التعبير عن الفطرة في أدنى مستوياتها..

فلما جاء الإسلام، جعل الشورى جزءاً من الدين وطاعة للَّه، وقدوة صالحة يؤمر بها الأنبياء قبل غيرهم، حتى لا يتعاظم على الشورى جبار مدع للنزاهة والأهلية والفقه، فليس بعد الأنبياء في الصلاح والفقه والعصمة أحد..!!

وحين ترتبط الشورى بالعقيدة ارتباط إيمان ونهج وغاية لا تعود مجرد نظام له قواعده كأي نظام آخر، في فكر آخر، أو عقيدة أخرى، ولكنه يصبح نظاماً يحمل معه سائر خصائص العقيدة الإسلامية، إيماناً ونهجاً وغاية فالشورى نهج خلقي يحمل الأسس الأخلاقية في الإسلام.

كيف نطبق الشورى؟

وقد ترك الإسلام تفصيلات كثيرة في مجالات تطبيق الشورى حتى تتفاعل مع تطور العصور في إطار البناء الإسلامي العام.. لكن نظام الشورى الإسلامي ـ مع ذلك يجب أن يقوم على أخوة المسلمين وتراحمهم، وأنهم أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنوط بها نشر الإيمان باللَّه على أساس التطابق الكريم بين الوسائل والغايات، وعلى الثوابت والنصوص الإسلامية الصحيحة.

فلا شورى تبيح سرقة الأقوياء ولا شورى تبيح الاستئثار بالمال وترك مئات الملايين يتضورون جوعاً.. ولا شورى تبيح الخمور، أو تجيز اللواط والزنى المباشرين، أو غير المباشرين، تحت تسميات عصرية أو فنية أو أدبية!!

ولا شورى تبيح تعذيب الإنسان، بل هناك عقوبات مقررة يجب أن تطبق بعيداً عن صور إذلال الإنسان وامتهان كرامته!!

ولا شورى تبيح سرقة شعوب بأكملها واغتيال حرياتها!!

ولئن كانت الشورى عبادة وبحثاً عن الصواب والحق، فإنها كذلك وسيلة كشف للمواهب والقدرات، واختبار لمعادن الرجال، وجمع للقلوب وتأليف لها على علم وإيمان وخير وبركة وهي كذلك تربية للأمة، وبناء لقواها الفكرية.. وتنسيق لجهودها وإفادة من كل عناصرها وإغلاق لأبواب العمل السري وللشائعات الكاذبة وللأحقاد الشخصية والطائفية وهي - في النهاية - ربط لجميع مستويات الأمة برباط من نور، وفي جلاء ووضوح، فيرتبط الرأي العام بالدولة وترتبط الدولة بالرأي العام وتظل الأمة صفاً متراصاً واحداً لا يجد العدو له ثغرة للنفاذ إلى فتنة، أو الوصول إلى «السماعين» فالشورى حماية للرأي العام، وهي حماية لكل مستوى تدور فيه حماية للدولة وحماية للأسرة.. وحماية للأمة كلها.

منهج التشريع الإسلامي الشامل في درء النزاعات

الإسلام دين سلام وليس دين عنف وحرب ـ كما يريد أعداؤه أن يصوروه، فهو يرى أن الأصل في حياة الناس السلام وأن الحرب هي استثناء لدفع العدوان والتمكين لظهور الدعوة الإسلامية بين الناس ولذلك يدعوالقرآن للدخول في السلم الذي هو الإسلام نفسه كما يقول اللّه تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ .

[سورة البقرة، الآية: ٢٠٨]

وحتى في حال الحرب يأمر القرآن الكريم المسلمين بالتوقف عن القتال فوراً والركون إلى السلم إذا دعا العدوإلى السلام يقول اللّه تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

[سورة الأنفال، الآية: ٦١]

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ .

[سورة النساء، الآية: ٩٠]

وتحقيق العبودية الكاملة للّه تعالى ـ التي هي مقصد خلق الإنسان لا يتحقق إلا في ظلال الأمن والطمأنينة الكاملة ولذلك ربط القرآن بين الأمن والعبادة مثلما في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ * فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ .

[سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨ ـ ٢٣٩]

وقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ .

[سورة النساء، الآية: ١٠٣]

وقول الحق عز وجل: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾.

[سورة قريش، الآيتان: ٣ ـ ٤]

كما يربط القرآن الكريم بين أماكن العبادة والأمن ربطاً له دلالته الظاهرة مثل قول اللّه تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٢٥]

نظم الإسلام لدرء النزاعات:

الإسلام له نظمه وإجراءاته العملية لدرء النزاعات التي تنشأ في الحياة البشرية ومواجهة ما يقع فيها من خلافات وفتن وقلاقل وتقاتل: لأن الإسلام حريص على أن يحفظ الحياة في سلام وأمن ويمكننا أن نفهم ذلك من خلال المؤشرات التالية:

١ ـ الإقرار بالاختلافات بين البشر ورفض الإكراه ويظهر ذلك من قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾.

[سورة هود، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩]

وقوله سبحانه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٩٩]

٢ ـ مقصد الشريعة درء النزاعات التي تعرض الحياة البشرية للخطر ويظهر ذلك من تحديد الفقهاء لمقاصد الشريعة في الحفاظ على الدين والعرض والمال والنفس والعقل ومن الجلي أن الخلافات إنما تنشأ بسبب الدين والأموال والأعراض والدماء، والشريعة عدل كلها ورحمة كلها ومصلحة كلها.

٣ ـ الدين عبادات وآداب وأخلاق ومعاملات وتشريعات يرمي إلى خلق الإنسان الصالح وذلك بتزكية النفس وإصلاح الباطن وحسن الخلق وأداء الحقوق.

٤ ـ دعوة الإسلام لتوقي النزاعات وذلك بالابتعاد عن مواطن الخلاف وأسبابه

والنهي عن التشدد والغلووالتنطع ونبذ العنف وترويع الآمنين والتحذير من التنابذ والشقاق والصراع كما في قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٥٩]

وورد عن النبي ﷺ أنه قال «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا» وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال «سمعت رجلاً قرأ آية من كتاب اللّه أقرأني رسول اللّهﷺ خلافها فأخذت بيده فأتيت به رسول اللّه فقال: (كلاكما محسن) قال راوي الحديث (شعبة) أظنه قال: «لا تختلفوا فإن من قبلكم اختلفوا فهلكوا».

٥ ـ تقديم درء النزاع وتوحيد الصف على غيره فالتنازع بين المؤمنين هو أكبر المنكرات لأنه يذهب بالجماعة المسلمة فلا تلتئم بعد ذلك إلا قليلاً وغير ذلك من المنكرات يمكن إصلاحها ولأن الشقاق والفرقة في الأمة يؤديان إلى ضغائن لا تموت بسهولة وإلى دماء تهدر وحقوق تضيع وتفتح الباب لعدومتربص يتدخل منتهزاً الفرصة لينال من عزتها وكرامتها وليس معنى هذا أن يكون الاجتماع على الباطل ولكن النظر في المصلحة العامة والبقاء على قوة الأمة وعدم تعريضها للفتن المهلكة التي تفل الصف وتشقق القلوب وحتى إن صاحب ذلك السكوت إلى حين عن بعض الأخطاء وتأخير بيان الحق إلى وقت لاحق كما فعل نبي اللّه هارون (عليه السلام) مع بني إسرائيل حين عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري من حليهم وقال لهم السامري كما في الكتاب العزيز.

﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾.

[سورة طه، الآية: ٨٨]

فلما رجع موسى من ميقات ربه غضب ولام هارون ولكن هارون اعتذر: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

[سورة طه، الآية: ٩٤]

ومن أحداث التاريخ الإسلامي العجيبة أنه أخر دفن رسول اللّه ﷺ حيث

اشتغل كبراء الصحابة الكرام بما وقع بين المهاجرين والأنصار من اختلاف على الخلافة فنظروا في الأمر حتى انتظم الشمل وقتلت الفتنة واستقرت الخلافة بمبايعة أبي بكر، فكشف اللّه به الكربة من أهل الردة، وقام به الدين.

٦ ـ تحديد المرجعية في حال النزاع من قول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٥٩]

والرد إلى اللّه والرسول يعني الرجوع إلى الكتاب والسنة ولكن كيف تحصل على الحكم من واقع الكتاب والسنة وهما لا ينطقان بذاتهما؟ والجواب عن ذلك أنه لا محالة من أن يكون هناك عالم بالكتاب والسنة أو علماء ويجب ألا يكون هذا الحكم من الفريقين المتنازعين ويعني هذا ضرورة وجود هيئة محايدة للفصل بين طرفي النزاع.

والنزاعات كانت ترفع في عصر الخلافة الراشدة عن طريق إحدى **ثلاث هيئات هي عامة أهل العلم الشرعي والقضاء وأولو الأمر** وكل منها كان يعالج نزاعات تختلف عن الأخرى فأهل الفقه والفتوى هم ضمانة لعدم انحراف الأفراد والمؤسسات عن الشرع ويتم عملهم من خلال الإفتاء والحسبة وتقويم الأمراء والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقضاة كانوا يمارسون الفصل في المنازعات من خلال مجالس القضاء والمحاكم التي تفصل بين الأفراد والجماعات والسلطة الحكومية.

أما أولو الأمر ويعني بهم الخليفة وعماله ومجلس الشورى من أهل الحل والعقد فيعالجون مشكلات المجتمع والدولة والسياسة والاقتصاد بالكتاب والسنة والاجتهاد.

ومن هذا نرى أن النزاعات كانت أقساماً يختص بكل منها طائفة من المسلمين للفصل فيها فهناك منازعات يمكن لكل ذي علم أن يفصل فيها ومنازعات لابد أن ترفع إلى المحكمة ومنازعات لا يفصل فيها سوى أولي الأمر وكل مصدره الكتاب والسنة. ويمكننا أن نحدد ثلاث قواعد قرآنية لدرء النزاعات من خلال الكتاب والسنة كالتالي:

ـ سؤال أهل الذكر وهم علماء الكتاب والسنة، قال الله تعالى:

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٤٣]

ـ الرد إلى أولي الأمر، ولا ضير أن يستعين أولو الأمر بأهل الذكر وهذا مطلوب شرعاً حتى يكون استنباطهم من الكتاب والسنة استباطاً علمياً صائباً ولديهم فقه الواقع أيضاً، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٨٣]

ـ الشورى: وهي ضمانة للوصول إلى الرأي الرشيد وتأليف القلوب واجتماعها لقول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ٣٨]

ويبين العلامة أبو الأعلى المودودي أنه بالنظر إلى هذه القواعد الثلاث مجتمعة، يتضح أن الصورة العملية لتنفيذ معنى قوله تعالى: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٥٩]

في كل المنازعات هي أن يرجع الناس فيما يختلفون فيه من أمور في سائر ميادين حياتهم إلى أهل الذكر فيما بينهم ويستفسروا منهم عن حكم الله تعالى والرسول ﷺ في هذه الأمور. أما المسائل ذات الأهمية بالنسبة لمصير البلد والمجتمع فيجب أن يرفعوها إلى أولي الأمر، ويحاولوا عن طريق تشاورهم فيما بينهم الوصول إلى أصوب الآراء والحلول طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٧ ـ المدد الإلٰهي لدرء النزاع بين المؤمنين ومثاله ما بينه القرآن الكريم عن غزوة بدر بقوله: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

[سورة الأنفال، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦]

فأخبر الحق جل وعلا أنه قلل الكافرين في أعين المؤمنين حتى لا يرهبوهم وأنه كثر المؤمنين في أعين الكافرين حتى يخافوهم، وبذلك حفظ المؤمنين من الاختلاف والتنازع في ساحة القتال وثبت قلوبهم، وهزم عدوهم.

أقسام النزاعات:

يمكن للدارس للفقه الإسلامي والسياسة الشرعية أن يقسم النزاعات من عدة أوجه، ومن هذا الشكل يمكننا أن نرى شمول المنهج الإسلامي لدرء جميع النزاعات التي تنشأ في الحياة على جميع الأصعدة ونخص بالذكر منها ما يلي:

أولاً: **درء النزاعات بين المسلمين وغير المسلمين** وهم أصناف: الكافرون والمنافقون وأهل الكتاب وكل له أحكامه فمما ورد في ذلك عن أهل الكتاب قول القرآن الكريم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٦٤]

وعن المنافقين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۞ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

[سورة النساء، الآيات: ٨٨ ـ ٩١]

وعن الكافرين يقول الله عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

[سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ ـ ٩]

ثانياً: **نزاعات داخل الأسرة** يدرأها الإسلام بتحديد الحقوق والواجبات

بين الأبناء والآباء والإخوة والأخوات والزوجين، ومن ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٢٨]

وقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

[سورة النساء، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥]

ثالثاً: **نزاعات بين المتقاضين** وهي الخصومات التي تنشأ بين الأفراد أو الهيئات وترفع إلى المحاكم فيتولى الفصل فيها القضاء بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية.

رابعاً: **نزاعات بين المتخاصمين** وهي الخصومات التي يتولى علاجها أهل العلم والفتوى والحسبة بمقتضى العرف الصحيح والحكم الشرعي الصريح.

خامساً: **نزاعات قطرية بين الحكومات** وبعض الجماعات والفئات والنزاعات بين التيارات الفكرية والسياسية المختلفة في الإسلام فيه العلاج للقضاء على هذه النزاعات[١].

(١) محمود النجيري مجلة منار الإسلام العدد ٢٠٤.

كيف تَعاملَ التشريع الإسلامي مع الحرية الشخصية

أولاً

حرية الذات

ـ الأسس الموضوعية للقضاء على الرق في الإسلام: وفوق هذا فإن هناك من الأسس الموضوعية في الإسلام ما يجعل أمر القضاء على هذا الشكل من أشكال الرق ضرورة إسلامية إنسانية، وقد وضع الإسلام للقضاء عليه أساليب كثيرة بعضها آخذ شكل الأمر الحاسم.

١ ـ **المكاتبة**: إذا أراد الرقيق أن يتخلص من مالكه فله أن يشتري حريته وهذا التشريع العجيب الذي يخول للمملوك حريته ولا يجوز للمالك أن يمنعه ذلك أبداً يسمى في التشريع الإسلامي بالمكاتبة ويقول القرآن الكريم:
﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾.

[سورة النور، الآية: ٣٣]

٢ ـ **كفارة اليمين**: حيث أن اللّه تعالى جعل منها عتق الرقاب، قال تعالى:
﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٨٩]

٣ ـ **الظهار**: فقد جعل المولى عزّ وجلّ كفارة الظهار عتق رقبة، قال تعالى:
﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ٣]

٤ ـ **في أمر الفطر عمداً** وجماع الزوجة أو الأجنبية عمداً في نهار رمضان.

٥ ـ **كفارة القتل الخطأ**: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٩٢]

٦ ـ **حث الرسول ﷺ على تحرير الرقاب**: ويطمع المسلم في ثواب ربه آملاً أن يخفف عنه معاصيه بأن يتقدم إليه بإطلاق سراح عبد ويهبه الحرية الكاملة وكل فرص الحياة ففيما يرويه البخاري عن رسول اللّه ﷺ قال: «من أعتق رقبة اعتق اللّه بكل عضومنها عضواً من النار».

٧ ـ **حث القرآن الكريم على عتق الرقاب**: والقرآن يرغب المسلمين في الإقبال على إطلاق سراح من في أيديهم بهذا البيان الذي يملأ النفس إيماناً وثقة بهذا الدين حيث لم يعمد إلى إزالة أي شكل من أشكال التناقص وإنما نفذ إلى أعماق النفس البشرية فهزها لتعطي كل ما عندها من حنان وولاء للإنسانية كلها في ألا تكون لواحد من الناس على الآخر يد أو جبروت يقع بهما أو يحجر على وجوده وحريته بقول القرآن الكريم: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

[سورة البلد، الآية: ١١ ـ ١٣]

٨ ـ **المصرف الخامس من مصارف الزكاة**: وبرغم كل المناهج الإنسانية التي يلجأ إليها الإسلام في الحرص على أن لا تكون هناك طبقات رقيقة وأخرى سيدة فإنه يوجد في تاريخ الإسلام من التشريع الإسلامي ما يعتبره قمة فكر تقدمي وأسلوب تطبيقي للقضاء على الرق وهو المصرف الخامس من مصارف الزكاة. فمن مصارف الزكاة باب خصص لتحرير الرقاب والعمل على إشاعة الحرية أينما وجد المسلمون فكانت لهم ديناً وسواء كان تحرير رقاب المسلمين أم غيرهم فإن الحرية مطلب إسلامي يسعى إليه الإسلام ويرفع قيمته مهما كان نوع هذه القيمة.

ـ **الحرية في العصر الحاضر**: في البداية أود أن أقرر أن حرية الذات تعني حرية الإنسان وقدرته على التصرف في أموره الشخصية.. ولا يفهم من ذلك أنها مطلقة بل إنها مقيدة حتى لا تطغى على حريات الآخرين لا سيّما وأن لهم الحق في التمتع بحريتهم فحرية الإنسان تنتهي حيث تبدأ حرية

الآخرين، كما أن الحرية والمسؤولية توأمان، وإن اقتران الحرية بالمسؤولية يرمي إلى غاية نبيلة وهي المحافظة على الصالح العام. والتحكم في رغبات الإنسان ونزواته.. وحرية الذات هي المعيار الذي يقوم عليه الشخص وهي التي تحدد ثقله في البنية الاجتماعية ومن ثم فإننا نرى الرقيق لا وزن لهم ولا قيمة في المجتمع إلا في مجال الخدمات فقط ولا عجب في ذلك لأنهم لا يملكون حرية التصرف فهم تابعون لغيرهم.. لهذه الاعتبارات ولغيرها.. كان تكريم المولى عز وجل لذات الإنسان. ولقد قرر الإسلام العقوبات من أجل حماية وصيانة ذات الإنسان يقول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآيتان: ١٧٨ ـ ١٧٩]

وفي تفسير الآيتين السابقتين «إن اللّه يناديكم لينبئهم أنه فرض عليهم شريعة القصاص في القتل» بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة ويوقظ فيهم العقل والتدبر لهذه الحكمة كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى وهو صمام الأمن في مجال القتل والقصاص.. ويقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية السابقة: «وفي شرع القصاص لكم ـ وهو قتل القاتل ـ حكمة عظيمة لكم وهي بقاء المنهج وصونه لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل كفَّ عن صنعه فكان في ذلك حياة للنفوس..».

والخلاصة أن تكريم الإنسان في الإسلام منة ومنحة له من اللّه تعالى وأن الحرية والكرامة الموفورة لذاته تقوم على أساس العقيدة الخالصة، ودرجة التقوى والخشية للّه قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

[سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦]

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات.. هذا هو المقسم عليه هو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي إلى النار. قال مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم ـ ثم بعد الحسن

والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع اللّه ويتبع الرسل ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

فالحقوق التي ينعم بها الإنسان تستغرق الجنس البشري كله ومن ثم يستطيع أي فرد من خلال الحرية المقررة له أن يختار ما يشاء من العقائد حتى وإن اختار عقيدة غير الإسلام فإنه ينعم بحريته في ظل الشريعة الإسلامية التي تكفل له حرية ممارسة شعائره الدينية وتضمن له أن يعيش موفور الكرامة ما دام لا يتعدى على حريات الآخرين. هذا في شأن غير المسلم أما بالنسبة للمسلم فإنه في ظل الحرية والتكريم الذي منح له يستطيع أن يرتاد مدارج الرفعة والسموبالقرب من اللّه تعالى، فبتقواه وخشيته وكفايته يكون أهلاً لتولي أمور المسلمين فيحرز الفوز والأجر الذي ينتظر أهل العدل، إن ذلك ليؤكد أن الحرية التي منحت للفرد في الإسلام تعني المسؤولية فهو متحمل لنتيجة اختياره وإذا كان الإسلام قد احترم ذات الإنسان وصان كرامته وفرض القصاص حماية لحياة أفراد المجتمع فينبغي للفرد أن يحسن استخدام الحرية صيانة لذاته وحياته وألا يسيء استخدامها..

وخلاصة القول في ذلك: أن الإسلام دعا الفرد إلى ممارسة حريته والتمس الضمانات التي تكفل سلامته في الحياة من أن يمس بأي سوء وله الحق في التمتع بالحرية المقررة له ولكن شريطة عدم التعدي على حريات الآخرين وأيضاً ينبغي على الفرد المسلم ألا يسيء استخدام الحرية لأنها تعتبر سلاحاً ذا حدين.

ثانياً

حرية المسكن وحرمته

لا شك أن حرية المسكن من الأمور الضرورية التي ينشدها الجميع لما فيها من صيانة لحرماتهم وأسرارهم الخاصة التي لا يودون أن يطلع عليها أحد غيرهم ـ وقد سبر الإسلام أغوار النفس البشرية فأدرك هذه الرغبة الملحة داخلها، فلباها وأحاطها بسياج منيع يضمن به صيانة حرماتهم، لأن

اللَّه عز وجل جعل البيوت للسكن والاطمئنان يفيء الناس إليها فيتحللون من أعبائهم في جو يسوده الأمن والطمأنينة.

وتأتي حرية المسكن بعد تقرير حرية الذات فبعد أن كفل الإسلام حرية الذات للفرد ومنع أي اعتداء يمكن أن يقع عليها من أجل ضمان التمتع بها كان لابد من ضمان حرمة المسكن الذي يسكنه هذا الإنسان الذي كرمه اللَّه تعالى، وحباه بفضله ومن ثم فإن الإسلام جعل للمسكن حرمة لا ينبغي لأي فرد مهما كانت سطوته أن ينتهكها، كل ذلك من أجل أن ينعم الفرد بالأمن والاستقرار والطمأنينة في مسكنه ولقد سلك الإسلام السبل التي تكفل حرمة المسكن ففرض آداب الاستئذان عند الدخول كما عمد إلى التجسس فنهى عنه كل ذلك من أجل صيانة حرمة المسكن والمحافظة على الحياة الخاصة.

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

[سورة النور، الآية: ٢٧]

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين «النور / ٢٧، ٢٨».

هذه آداب شرعية أدب اللَّه بها عباده المؤمنين. أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا قبل الدخول ويسلموا بعده وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيحين أن أبا موسى حين استأذن على عمر (رضي اللَّه عنه) ثلاثاً فلما لم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر ألم أسمع صوت عبد اللَّه بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك ـ قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف» فقال عمر لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قاله عمر ـ فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبوسعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال عمر: ألهانا عنه الصفق في الأسواق..

إن الإسلام ـ من أجل كفالة حرية المسكن ـ جعل الاستئذان أدباً من

الآداب الشرعية حتى يصبح خلقاً يتحلى به الجميع ومتى صار كذلك نعم الناس في بيوتهم آمنين مطمئنين فما أجمل هذا الأدب الإسلامي في الاستئذان وحكمته في العدد وحصره في ثلاث وإنه لدليل على عمق النظرة الإسلامية التي تنسجم مع طبيعة الإنسان فبالأولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون وفي ذلك حكمة لتهيئة المناخ داخل البيت إن رغب أهله في الاستقبال «فلقد جعل اللّه البيوت سكناً يفيء إليها الناس فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم . .» والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم وفي الوقت الذي يريدون وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس ذلك أنَّ استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة، ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوماً فيدخل الزائر البيت ويكون صاحب الدار في حالة لا يحب أن يراه أحد عليها أحد فمن أجل ذلك أدب اللّه تعالى المسلمين بهذا الأدب العالي «أدب الاستئذان».

حرمة التجسس:

ولما كان التجسس من الأمور التي تؤدي إلى انتهاك حرية وحرمة البيوت فإن الإسلام نهى عنه من أجل حماية الفرد سواء من النظام العام أم من الأفراد بعضهم على بعض وأود أن أذكر أنه إذا كان من شأن التجسس انتهاك حرمة البيوت فإن الإسلام عمد إلى كل هذه الذرائع فحرمها وجرمها . . فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٢]

وللإسلام في التجسس حكمان:

ـ الأول: جائز وذلك عند الحاجة إليه وهذا إذا أردنا معرفة أخبار الأعداء بغية النفع للإسلام والحديث عن هذا اللون من التجسس له مقام آخر غير هذا البحث.

ـ الثاني: ويهدف إلى معرفة أسرار الأفراد وهتك أستارهم دون علمهم بذلك وهو ما حظره الإسلام قال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب

الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا.... وقال ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع اللَّه عورته ومن يتبع اللَّه عورته يفضحه في بيته**» رواه أبو داود

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له**».

ومن خلال العرض السابق للأدلة القرآنية والنبوية التي تظاهرت على حرمة دخول البيوت بغير إذن أصحابها يتبين لنا تحريم الإسلام للتجسس والنهي الصريح عن ذلك ولم يستثن المستأذن من ذلك فإن استأذن وقيل له ارجع فليرجع وإن ما حدث مع عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أثناء تجواله وتعسسه بالليل وذلك حين شعر بجماعة يجتمعون على مجون فتسور عليهم منزلهم وفاجأهم في لهوهم ومجونهم ففزعوا ولكن كان لديهم ـ على ما هم فيه ـ قدر من الشجاعة وقدر من العلم بالإسلام جعلهم يحاكمون عمر أمير المؤمنين حتى جعلوه في موقف المدافع لا موقف المهاجم: قالوا يا أمير المؤمنين: لئن كنا قد ارتكبنا خطأ لقد ارتكبت ثلاثة قال وما هي؟؟ قالوا: قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسست.. وقال تعالى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وقد تسورت وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

[سورة النور، الآية: ٢٧]

ولم تفعل.. فعجب عمر (رضي اللَّه عنه) من فقههم واعتذر لهم كما اعتذروا إليه وعاهدوه أن يتوبوا.

فهذه هي الحرية الشخصية حقاً ألا يتجسس أحد عليك ولوكان أمير المؤمنين نفسه وأن يكون لمسكنك حرمته ولومارست فيه المعصية وحسابك على اللَّه تعالى، أما أن تطل المعصية برأسها ويخرج المنكر إلى ظاهر المجتمع يقترفه من يشاء فهذا باب واسع لفساد عريض وانحلال كبير، لا يقره دين من قواعده «سد الذرائع إلى كل شر»، وخلاصة القول فيما سبق ـ أن الإسلام فرض الاستئذان من أجل صيانة حرمة البيوت ومن ثم فلا يجوز

دخول البيوت بغير إذن أهلها. ثم إن الإسلام حرم التجسس بين الناس ـ على نحوما تقدم ـ وجعله وسيلة من الوسائل غير المشروعة وذلك من أجل صيانة الحرية الشخصية والتأكيد على حرمة المسكن!!

ثالثاً

حرية التنقل والسفر

وإذا كان الإسلام قد منح للفرد الحرية الداخلية (حرية الذات ـ حرمة المسكن وحق الأمن) وأردف ذلك بالحرية الخارجية ليحدث الانسجام في حياة الفرد، بيد أن الإسلام لم يكتف بالتقدير والمنح بل تكفل بالضمان والكفالة التي تحمي تلك الحريات، وحرية التنقل والسفر لا تقل شأناً عن غيرها من الحريات وإلا فما معنى حرية الفرد إذا فرض عليه حظر تجوال؟.. ومن ثم فقد منح الإسلام تلك الحرية للفرد فله حق السفر إلى خارج البلاد والعودة إليها لأن الإسلام أمر الإنسان بالسعي في الأرض، من أجل التمتع بحريته ونعى على الذين يخاذلون ويخلدون إلى الظلم والاستبداد مؤثرين السلامة مما يدفع بهم في مغبات الفقر فقال تعالى متوعدهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٩٧]

وحث على الهجرة ورغب فيها توسعة في الرزق فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾.

[سورة النساء، الآية: ١٠٠]

وأود أن أقول إن هذه الأهمية البالغة لحرية الغدووالرواح ومكانتها في الإسلام لم تأت من فراغ بل أتت من حاجة الأفراد إلى الحركة والتنقل والتي تعد من أهم عوامل استمرار الحياة ولنا أن نتخيل لوحدث حظر تجول في جميع بقاع الأرض ترى ما النتيجة المتوقعة؟

فمن أجل استمرارية الحياة وتبادل المنافع والخبرات قرر الإسلام حرية التنقل والسفر والتمس من الضمانات ما يكفل حمايتها فأنزل عقوبة قاسية

ورادعة لكل من تسول له نفسه ترويع أمن الطريق ومن أجل المحافظة على المصالح العامة وإقرار الأمن في الطرق قرر حد الحرابة وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٣٣]

التكافل الاجتماعي في التشريع الإسلامي

عندما نتحدث عن التكافل الاجتماعي في الإسلام يجب أن نعلم أننا نعالج عضواً في جسد، وجزءاً من كل، فالتشريع الإسلامي بينما يعالج قضايا الحياة المختلفة اجتماعية كانت أواقتصادية ـ فإنه يبقى دائماً نسيجاً مكتملاً لا ينفصل فيه جانب عن الجوانب الأخرى، بل إن التشريعات الإسلامية كلها لا تنفصل عن الإسلام (كله) وبالتالي لابد للتشريعات أن تقوم فوق عقيدة نقية، وأن ترتبط بالجوانب الأخلاقية والعبادية. ولعل هذا الارتباط بين الجزء والكل أهم الفروق بين الإسلام والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية الوضعية التي تعالج قضايا الإنسان بطريقة تمزيقية، وقد يدفع هذا إلى تضخيم الجانب الذي تعالجه على حساب الجوانب الأخرى كما أنه يدفعها بالتأكيد إلى التعامل مع الإنسان في إطاره الشامل ـ بطريقة خاطئة. والتكافل الاجتماعي نوع من التقعيد النظري الرحيم للأسس الصالحة لقيام المجتمع البشري المتماسك الذي لا تقوم العلاقة فيه على أساس القواعد التشريعية فحسب ـ حتى مع شمولية هذه القواعد وسموّها ـ بل قد توجب بعض حالات الارتفاع فوق هذه القواعد، وذلك مثلما فعل الأنصار مع المهاجرين عندما شاركوهم في دورهم وأموالهم بل قد عرض الأنصار على إخوانهم المهاجرين أن يقتسموا معهم هذه الأموال والعقارات مناصفة.. فهذا نوع من الإيثار (والتكافل) لم يجعله الشرع فرضاً وتركه للمستوى الأخلاقي للمسلمين في ظل معاني الرحمة والأخوة الإسلامية.

نوع غريب من الحب!!

ومن العجيب أن الأنصار لم يعطوا ما أعطوا استشعاراً منهم بواجب شرعي تمليه عليهم قواعد تشريعية وإنما فعلوه بنوع غريب من الحب ودرجة كبيرة من الإيثار خالية تماماً من مشاعر الأثرة والشح.. قال تعالى في تصوير

هذه الحالة الفريدة في التاريخ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

[سورة الحشر، الآية: ٩]

ومن السياق السابق نعلم أن التعامل مع الجوانب الاجتماعية في الإسلام يقف فوق أرضية عقيدية وفكرية ونفسية وأخلاقية معينة وأن المسلم يعالج هذه القضايا في إطار مفاهيمه الإيمانية الكلية فهو لا يقوم بها لأنها أوامر قانونية ولا قضايا مصلحية عامة يتبادل فيها الفرد والمجتمع الخدمات بطريقة جدلية تبادلية.. وقد تنتهي هذه العلاقة بمجرد الشعور بانقضاء المصلحة أو بالتحايل على القانون فالأصل العقدي والعبادي للقضايا الاجتماعية في الإسلام والمنهج الذي يجعلها جزءاً من كل لا تنفصل عنه.. هذا الأصل وهذا المنهج يجعلان للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم قسمات خاصة ينفرد بها عن كل النظريات الاجتماعية التي ظهرت في القديم وفي الحديث!!

ويؤكد لنا هذا أن هذه النظريات كانت تنظر إلى التكافل الاجتماعي على أنه مجرد تنظيم للعلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع وتمنع طغيان أحدهما على الآخر، وتضع الأسس التي تضمن تساند المجتمع أفراداً وطبقات وتتيح للجميع قدراً متكافئاً من الفرص والحقوق وتلزم الجميع بقدر عادل من الواجبات وهذه النظرة (كما نرى) تضع التكافل الاجتماعي ـ بعيداً عن الشعور الروحي ـ منحصراً في مستوى قانوني ومصلحي بحت!! بينما تؤكد لنا الحقائق الموضوعية والتجارب الإنسانية أن الإنسان ـ كفرد أو كأسرة أو كمجتمع صغير أو كبير ـ لا يمكن أن يحافظ على كيانه الروحي بالقانون.

الإسلام وخصوصيته:

إنَّ التجارب الاجتماعية الحديثة قد سقطت في هذا التصور حين غلبت النزعة المادية عليها فماتت فيها الروح الإنسانية وذبلت القيم الدينية وأصبحت الحياة حلبة سباق من أجل تحقيق مزيد من الترف والرفاهية والاستهلاك.. ولولا قوانين الضرائب الصارمة التي يفرضها القانون والشرطة لتعرضت هذه المجتمعات لانهيار كامل.

نكسات وعجـز:

وفي المقابل نجد الدول الإسلامية (عبر التاريخ الإسلامي) قد تعرضت لنكسات كبيرة وقد عجزت مؤسسات الدول في كثير من الظروف عن توفير الحاجات الأساسية للمجتمع ـ من غذاء وكساء ودواء وتعليم ـ فقامت الأمة المسلمة بدوافع الإيمان والعقيدة بسد الاحتياجات التي عجزت عنها مؤسسة الدولة.

إن التكافل الاجتماعي يعني تضامن أبناء المجتمع وتساندهم سواء أكانوا أفراداً أم طوائف أم حكاماً أم محكومين وذلك بدوافع إيمانية نبيلة تهدف إلى غايات كريمة تنتهي إلى تحقيق الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لجميع أبناء المجتمع وذلك بتوفير الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ودواء وكساء وتعليم.. بالإضافة إلى مقاومة كل من يحاول خرق سفينة المجتمع كالمترفين والمحتكرين والآكلين للأموال بالباطل بشتى الصور!!

وهذا التكافل الاجتماعي بهذا المفهوم الإسلامي تقرره الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التالية قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾.

[سورة المائدة، الآية: ٢]

وقال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

[سورة الحديد، الآية: ٧]

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٦٧]

ويقول الرسول ﷺ **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»** رواه البخاري ويقول ﷺ **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** رواه ابن حبان

ويقول ﷺ **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا**

على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لوأنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري.

ولعل الحديث التالي أقوم في الدلالة على التكافل الاجتماعي انطلاقاً من واقع عملي عايشه الرسول ﷺ مع المسلمين فقد روى مسلم وأبو داود أن الرسول ﷺ قال: وكان في حال سفر وشدة: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فيعد به على من لا زاد له..» قال أبوسعيد الخدري راوي الحديث فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

للتكافل شعبتان:

بيد أننا نؤكد ـ مرة أخرى ـ على حقيقة شمولية التكافل الاجتماعي في الإسلامي للجوانب المادية والروحية لأنه في النهاية يعني شعور الجميع بمسؤولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، يسأل عن نفسه ويسأل عن غيره. ولهذا كان للتكافل شعبتان شعبة مادية: وسبيلها مد يد المعونة في حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب وتأمين الخائف وإشباع الجائع والمساهمة العملية في إقامة المصالح العامة.. وقد أطلق الإسلام على هذا النوع من التعاون المادي عناوين مختلفة تشمل أنواعاً مختلفة من العلاج والتكافل مثل (الإحسان ـ الزكاة ـ الصدقة ـ الحق المعلوم ـ الإنفاق في سبيل اللّه ـ كفالة اليتيم ـ صلة الأرحام.. ألخ)

نسيج من التكافل المادي:

لكن هذه العناوين الدالة على أنواع من التكافل تتكامل كلها لتقدم نسيجياً من التكافل المادي في الحياة الاجتماعية.

ـ أما الشعبة الثانية فهي الشعبة الأدبية ونعني بها تكافل المسلمين جميعاً وتعاونهم المعنوي بالتعليم والنصح والإرشاد والتوجيه.. أو بإيجاز التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولاً وفعلاً.. والإسلام

يجعل هذا التكافل الأدبي فريضة لازمة على كل مسلم بل جاء على لسان الرسول ﷺأنه الدين كله بالنسبة لجميع الطبقات: «**الدين النصيحة**» قالوا لمن يا رسول اللّه قال: «**للّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**» رواه مسلم.

وهكذا يتضح لنا ـ بجلاء وتركيز شديد ـ أن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرد المساعدات المالية ـ أيا كانت صورتها ـ كما تعني كلمات مثل الضمان الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي.. بل يمتد المضمون الإسلامي للتكافل ليصبح نظاماً لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي ونظاماً لتكوين الأسرة وأساليب تكافلها ونظاماً للعلاقات الاجتماعية بما في ذلك العلاقات التي تربط الفرد بالدولة ـ وأن يكون في النهاية نظاماً للمعاملات المالية والعلاقات الاقتصادية التي تسود المجتمع الإسلامي [(١)].

ـ وقد يتصور بعضهم أن التكافل المعنوي والأدبي والأخلاقي والروحي أقل رتبة من التكافل المالي والاقتصادي.. بل قد يعتبرونه نوعاً من الهروب من الإطار الحقيقي للتكافل الاجتماعي المادي.

ـ ونحن لا نوافقهم على رأيهم هذا.. بل إننا نرى أن التكافل المادي لا تتحقق أهدافه إلا بالوقوف فوق الأرضية المعنوية والأدبية.

ـ ونرى أيضاً أن التكافل المعنوي هو الذي يضمن فعالية التكافل المادي.. فما معنى أن يتكافل المسلمون مادياً ـ في بلاد الاغتراب مثلاً ـ التي قد تقدم فيها الدولة ألواناً من الضمان الاجتماعي المادي بينما يترك بعضهم ينحدر في عقيدته وعبادته وأخلاقه، بحيث يكاد يذوب في القيم الانحلالية والمادية واللاأخلاقية التي تطرحها في الشارع والإعلام ـ المنظومة ذات القيمة اللادينية!!

وهكذا فإنه على الرغم من أن الإسلام قد قدم إطاراً قانونياً متكاملاً لتحقيق العدالة الاجتماعية المادية إلا أن الأساس المعنوي يقوم على مخاطبة

(١) كتاب الدورة الثالثة ـ حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ص ٧٠٧ـ ٧٠٨.

الإنسان من داخله وليس مجرد قيادته من ظاهره وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة إلى صراع كئيب، والحق أن الإسلام في تشريعه الاجتماعي قد اعتمد هذا الأساس المعنوي على نحولم تصل إليه أرقى النظم التي ظهرت في التاريخ وبغير هذا التكافل المعنوي تسود المادية الصراعية حتى ولونجح المتصارعون في تنظيم عمليات الصراع أو تهذيبها أو إلباسها أثواباً ناعمة!!

(دعوة القرآن الكريم في خصوصية بناء المجتمع المسلم دعوة إلى التضامن والتعاون والصف الواحد.. ومئات الآيات الكريمة في مضمونها هي التكافل والتكامل الاجتماعي الذي انطلق في بناء الفرد كلبنة أولى في تشييد هذا الهيكل الاجتماعي المتماسك المتعاضد المتكافل.. ولولا هذا البناء القرآني الشامخ في بناء الفرد وبناء الأسرة وبناء المجتمع.. لما كانت هذه النواة الأولى من جيش المسلمين المتكافل تنطلق سريعاً لتنتصر على أقوى أمبراطوريتين في ذلك العصر ليس بالعدد والسلاح ولكن بهذه التربية القرآنية للإنسان الفرد الذي منه يكون المجتمع القوي المنتصر).

التشريع الإسلامي أعطى المرأة حقها فماذا يريد المشرعون في مؤتمر المرأة العالمي في بكين

عندما انعقد مؤتمر المرأة العالمي الرابع في بكين في الشهر التاسع من عام ١٩٩٥م قامت الدنيا ولم تقعد. حيث ظهرت بعض الدعوات المنحرفة التي كادت أن تأخذ طريقها إلى قرارات المؤتمر وتحتل مكاناً فيه كالدعوة إلى احترام الميول الجنسية المطلقة وهوجم المؤتمر من أجل ذلك في الصحف والمجلات وعلى المنابر وفي الإذاعة والرائي، وانبرى بعض الخطباء للحديث عن موقف الإسلام من المرأة حيث رفع من شأنها وحررها من قيود الجاهلية القديمة والحديثة.

تمرير القرارات في الظلام:

أما في بكين فقد تصادم الفكر الإسلامي والفكر الإباحي والعلماني وحصلت مشادات كلامية بين ممثلي الفكرين يومذاك وجزى اللّه خيراً القلة الخيرة من المشاركات المسلمات الواعيات اللواتي كان لموقفهن ودفاعهن عن منهج الإسلام في رسم العلاقة المتوازنة العادلة بين المرأة والرجل أثر طيب في المؤتمر.

ولكن انقضى المؤتمر كما انقضى غيره ومرت الأيام ونسي الناس حديثه وأحداثه وغفل المسلمون ـ كعادتهم ـ عن التخطيط لما بعد مؤتمر بكين والاستعداد للمؤتمر القادم عام (٢٠٠٥)، وسرعان ما يمر الزمن وإذا نحن أمام المؤتمر الخامس ويومئذ سيعلوالضجيج والنقاش وسيبرز الرأي المرتجل، كما حصل في مؤتمر بكين الذي لم يفاجئ أحداً وإنما أعلن عنه منذ مدة طويلة وسبق بثلاثة مؤتمرات منها مؤتمر (نيروبي) عام ١٩٨٥ م ورغم أن كثيراً من المؤتمرات لها خطورتها وتأثيرها إلا أننا نتعامل دون إعداد مسبق كما حصل في مؤتمر (الطفل) في نيويورك عام ١٩٩٠ م، ومؤتمر

(البيئة والتنمية) في ريودي جانيروعام ١٩٩٢م، ومؤتمر (حقوق الإنسان) في فيينا عام ١٩٩٣م ومؤتمر (السكان والتنمية) في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر (التنمية الاجتماعية) في كوبنهاجن عام ١٩٩٥م وكل هذه المؤتمرات ـ وكثير غيرها ـ تنطلق من قاعدة فكرية وأسس فلسفية، تختلف في كثير منها مع المعالم العامة للإسلام.

كل ما نفعله من نشاط يرافق المؤتمر بعض الشعارات والخطب والمقالات، ثم تمضي الأيام وننسى ونغفل وتمر الأيام حتى يأتي مؤتمر آخر وأثناء ذلك تمرر قرارات المؤتمر السابق أو الكثير منها وتتبنى شريحة من أبناء المسلمين وبناتهم، ممن ضحلت ثقافتهم الإسلامية وضعفت عقيدتهم الدينية أفكار هذا المؤتمر أو ذاك لتوزع هذه الأفكار من خلال أندية المسلمين ومجلاتهم ووسائل إعلامهم على الناس، وتسري إلى العقول والأفئدة. فصياغة العقول وتهيئة النفوس تجري دون ضجيج، ويحصل الأثر السلبي لهذه الأطروحات وإذا بنا نعاني من مشكلة جديدة أو ملونة بألوان جديدة في مجتمعاتنا الإسلامية، وما أكثر ما تعاني هذه الأمة من مشكلات ومعضلات؟!

والغزوالعلماني للمجتمع الإسلامي من خلال المرأة كان من أكبر أدوات الهدم في بنياننا الداخلي وكانت الاستفادة من بعض مظاهر ظلم المرأة ـ عند من يجهل الإسلام من أبنائه ـ أحد أهم الوسائل في استغلال المرأة لتكون عدوة لدينها ومحاربة لقيمه وكان الجهل المستحكم في العالم الإسلامي وخاصة في عالم النساء وسيلة فعالة في إقناع المرأة المسلمة بأن دينها هو المسؤول عن تخلفها بل وتخلف المسلمين؟! وهو السبب فيما لحقها من ظلم وكانت هذه العمليات الإقناعية تجري في المدارس التي افتتحها المنصرون في العالم الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

كيف قاوم المسلمون هذه المدارس؟ أتدرون كيف قاوم المسلمون هذه المدارس؟ لقد جابه الناس هذه المدارس كما نجابه مؤتمر بكين اليوم ـ بأسلوب المقاومة السلبية ـ النقد اللاذع، والهجوم الشديد ثم بعد ذلك تنتهي المشكلة عند هذا الحد من المقاومة، نعم لقد منع كثير من المسلمين بناتهم وأخواتهم من الذهاب إلى هذه المدارس ـ ولكن لم يمنع الجميع ـ وما هي

إلا سنوات يسيرة حتى تخرجت من بنات المسلمين في هذه المدارس النخبة المثقفة من النساء اللاتي تسلمن قيادة المرأة في عالم العروبة والإسلام وكان كثير منهن من بنات الأعيان وهذا يعني أن التأثير في[1] الأجيال الصاعدة والمتلاحقة من بنات الأمة سيكون أكبر وأخطر، وطبيعي أن التكوين الثقافي لهذه النخبة كان يرفض الدين ويؤسس للتبعية الثقافية الخانعة للغرب؟!

ولوكانت المقاومة آنذاك إيجابية، وذلك بإنشاء المدارس التي تنهل من معين الإسلام العذب وتتأدب بآدابه، لكان أمر الناس وعياً وسلوكاً ـ مختلفاً عما نحن عليه اليوم رجالاً ونساء!

ولكن جرى الذي جرى، وما زلنا نعاني من غفلان أخرى ونحن نعارك الفكر الإلحادي والتنصيري والعلماني بالاتكالية المنهزمة والمقاومة السلبية غالباً.

نصف المشاركات إسلامياً علمانيات!

ولعل مما حدث في مؤتمر بكين مما أهمل إعلامنا كشفه وتوضيحه ثمرة لهذه المقاومة السلبية أن كان نصف المشاركات تقريباً من القادمات من الدول العربية والإسلامية يشتكين من أحكام ديننا الإسلامي؟ يدفعهن لذلك جهل بهذا الدين وهيام بالنمط الغربي!!

كشف عن ذلك بعض المشاركات العربيات عند عودتهن من المؤتمر وكانت هذه الشكاية تتم غالباً عند اللقاءات الخاصة، وإذا علمنا أن عدد من شارك في هذا المؤتمر من العالم العربي والإسلامي لا يقل عن سبعة آلاف أمرأة! أدركنا خطورة الأمر، وخاصة أن كثيراً منهن قائمات على توجيه الثقافة النسائية في عالمنا الإسلامي.

فإذا أضفنا إليهن طائفة من كتابنا الذين ينهجون النهج، وفيهم الأدباء والشعراء وكتاب المسلسلات والأفلام علمنا حجم التأثير الذي نتجاهله أو نجهله.

ولعل ما حدث في مؤتمر بكين مما أشرنا إليه آنفاً يؤكد دور الصياغة

---

(١) مجلة منار الإسلام أحمد عز الدين الويسي.

العلمانية لعقول مسلمات اليوم نتيجة المناهج الدراسية والإعلامية فهل نتعظ؟ وندرك خطورة الأمر، وضرورة السعي بالإعداد للمؤتمرات القادمة أو ما شابهها؟

اقتراحات:

أقول إن الدواء لا يحتاج إلا إلى جهود صادقة ونيات مخلصة وبعض البذل والتخطيط العاقل وأرى أن نبادر إلى:

١ ـ عقد مؤتمر إسلامي للمرأة دوري كل ثلاث سنوات أو خمس سنوات تتبناه منظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطة العالم الإسلامي أو مشيخة الأزهر ويدعى إليه كل دول العالم الإسلامي والجاليات الإسلامية، على أن تكون المشاركة فيه بالمقام الأول نسائية.

* ومن أولويات أعمال مثل هذا المؤتمر:

أ ـ توضيح موقف الإسلام من المرأة.

ب ـ دفع التهم الموجهة للإسلام في هذا الجانب.

ج ـ نقد الفكر الغربي علمياً وموضوعياً في نظرته للمرأة، وكشف زيفه نظرياً وتطبيقاً.

د ـ يطالب الإعلام بتغطية هذا المؤتمر تغطية شاملة وخاصة من خلال القنوات الفضائية والمحلية ليحقق أكبر قدر من الفائدة.

٢ ـ الدعوة إلى إنشاء مجلات إسلامية نسائية ـ والأحسن أن يتولى تحريرها النساء تتحرر من تقليد المجلات الهابطة ـ وما أكثر ـ التي تهتم بتثقيف قارئاتها بالأزياء وفنون التجمل وأخبار أهل الفن وأوهام البروج وآهات المحبين وأحداث الجن والسحر، ونحوذلك مما يرسخ الثقافات التائهة والسطحية بل والقيم الفاسدة

٣ ـ إقامة مسابقات إبداعية ـ خاصة بالنساء ـ (قصة قصيرة، رواية، قصيدة) تكشف عن معالم الإسلام عموماً وعن حقيقة الموقف الإسلامي من المرأة خصوصاً.

والمؤسسات الأدبية على اختلاف مسمياتها مطالبة بتبني مثل هذا

المشروع، وأعني بها من لا تتخذ من محاربة الإسلام عقيدة وشريعة، منهجاً ومسلكاً.

٤ ـ عندما تتهيأ الأرضية المناسبة، يدعى إلى مؤتمر عالمي يكشف للعالم كله ـ بل ويدعوالعالم كله إلى تبني ـ المنهج الإسلامي في إرساء حقوق المرأة المتفقة مع تكوينها الجسدي والنفسي فإذا ما وجد مؤتمر عالمي خامس أو سادس في العالم بعد ذلك تتبناه الأمم المتحدة، أو اليونسكو، أو أي جهة عالمية أخرى نكون على يقين آنذاك من أن مثل هذا المؤتمر لن يخترق مجتمعنا الإسلامي بل سيصغي للرؤية الإسلامية العظيمة في هذا الصدد.

ثم إننا من خلال هذه الأنشطة العاقلة نزيل المفاهيم الخاطئة التي علقت بأذهان بعض المسلمين تصوراً وممارسة مما يسيء إلى المرأة ويلصق بالإسلام، إذ إن محاربة هذه التوهمات تحتاج إلى جهود كبيرة تسهم في نشر الوعي الإسلامي الرشيد في هذا الجانب وفي غيره.

الفصل الثالث

آيات في الإعجاز الغيبي في ذاكرة العقول والألباب .

١ ـ عرش بلقيس ومعجزة الزمان والمكان .

٢ ـ مائدة السماء .

٣ ـ سورة المسد .

٤ ـ الطير الأبابيل .

٥ ـ انفلاق البحر على يد موسى عليه السلام .

٦ ـ النعاس والمطر في معركة بدر .

آيات في الإعجاز الغيبي في ذاكرة العقول والألباب



عرش بلقيس ومعجزة الزمان والمكان

يقول تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

[سورة النمل، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠]

آيات كريمة تستوجب الوقوف عندها والتأمل فيها وإعادتها مراراً وتكراراً.. وهذه الآيات تعيننا تماماً على فهم معنى السرعة واختراق جدار الزمن.

... كلنا يعلم أن النظرية النسبية بينت أن للضوء سرعة وهي أعلى سرعة كونية موجودة وهي سرعة ٣٠٠٫٠٠٠ ثلاثمائة ألف كم في الثانية.. ولم يكتشف العلم حتى الآن سرعة تتجاوز سرعة الضوء.. وسرعة الضوء عرفت من الضوء الذي يرسله النجم إلينا.. إذ إن أي نجم في السماء يولد مرسلاً ضوءاً، لأنه شمس عظيمة لها تفاعلات متنوعة، وهذا الضوء الذي يرسله النجم يسير بسرعة ٣٠٠ ألف كم في الثانية.. فإذا ما استيقظنا صباحاً ووجدنا نجماً جديداً ساطعاً في السماء فيجب أن نعلم أن ضوءه وصل إلى الأرض، وربما يكون النجم هذا خلق منذ آلاف السنين وضوؤه يسير في الفراغ بسرعة ٣٠٠ ألف كم في الثانية ولما وصل الأرض كشفنا وجوده وعلمنا به.. المهم أن أعظم سرعة كونية هي سرعة الضوء، ولكن هذه

السرعة لم يصلها الإنسان ولن يصلها ولا يمكن أن يصل إليها مطلقاً، **إذ إن أكبر سرعة وصل إليها الإنسان بواسطة المركبات الفضائية هي سرعة ٤٠ ألف كم في الساعة** وليس في الثانية فأنى له أن يصل إلى سرعة ٣٠٠ ثلاثمائة ألف كم ليس في الساعة وليس في الدقيقة وإنما في الثانية.. نعم السرعة موجودة في الكون ولكن يستحيل على الإنسان الوصول إليها.. هذا للعلم قبل أن نتكلم عن الآية الكريمة وقصة سيدنا سليمان عليه السلام الذي سخر اللّه سبحانه له الطير والجن والإنس، وأعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين وحتى الشياطين سخرها له بين يديه، ومن ينزع من الشياطين عن أمر سليمان فإن له من اللّه سبحانه عذاباً عظيماً.

... في يوم تفقد سليمان عليه السلام الطير فعلم أن طائر الهدهد غير موجود فسأل عنه فلم يعرف أحد أين هو، ولما جاء الهدهد وعلم أن سليمان عليه السلام سوف يعاقبه استأذنه بالكلام وأخبره عن سبب تأخره وروى له قصة الملكة بلقيس، وأخبره عن ملكها، وعظيم شأنها، وعظيم عرشها، الذي تجلس عليه، وأخبره أن هذه الملكة ورعيتها تعبد الشمس من دون اللّه سبحانه.. تعجب سيدنا سليمان من هذه الملكة ومن قومها وعفا عن الهدهد.. وسأل الحاضرين الذين هم في مجلسه من منهم قادر على أن يأتيه بعرش هذه الملكة الكافرة.. هذا العرش الذي وصفه له الهدهد بأنه عرش عظيم وكبير ومرصع بالجواهر واللآلئ، ولنأخذ تفسير هذه الآيات من المفسرين ثم ندخل فيها المدخل العلمي والإعجازي لأنه فعلاً تستحق هذه الآيات الكريمة الدراسة والتفسير والتحليل وخاصة لجيل هذا اليوم بما ملك من أدوات عظيمة أعانته على فهم المسافات والزمن وخوارق الأمور.

وملك سليمان كان في فلسطين وعرش الملكة بلقيس كان في اليمن والمسافة بينهما ما يزيد على ٣٠٠٠ آلاف كم.

يقول أصحاب الموسوعة القرآنية الميسرة:

قال سليمان حينما علم بقدوم بلقيس الملكة وقومها إليه: يا أيها القادة أيكم يأتيني بعرش بلقيس، قبل أن يأتني القوم خاضعين طائعين. أراد بذلك أن يريها بعض العجائب الدالة على النبوة.. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن

﴿تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال مارد قوي من الجن أنا آتيك بعرشها (من اليمن إلى فلسطين) قبل أن تقوم من مجلسك في القضاء بين الناس في ضحوة اليوم إلى نصف النهار (أي خلال الفترة التي تجلس فيها من الضحى إلى الظهيرة في مجلسك أي قرابة ٤ ساعات زمنية) وقال له: وإني لقوي على حمله أمين على ما فيه. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال أحد علماء الكتاب الإلٰهي وهو من الصلحاء (آصف بن برضيا) من بني إسرائيل أنا آتيك بالعرش قبل أن يرجع إليك بصرك في لمحة البصر، أي قبل أن تطبق جفن العين الأعلى على الأسفل وهو كناية عن السرعة الفائقة[١].

وفي تفسير السعدي:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترقة ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والعفريت هو القوي والنشيط جداً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام فيكون بينه وبين سبأ نحومسيرة أربعة أشهر شهران ذهاباً وشهران إياباً ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به، على كبره وثقله وبعده قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى نحوثلث يوم هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر وهذا ما كان من أحد رعيته من الجن وأبلغ من ذلك أن ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال المفسرون: هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له (آصف بن برضيا) كان يعرف اسم اللّٰه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وذلك بأن يدعواللّٰه بذاك الاسم فيحضر حالاً، وأنه دعا اللّٰه فحضر، فاللّٰه أعلم هل هذا المراد أم عنده علم من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد[٢]؟.

ونكتفي بهذا القدر من تفسير المفسرين فأكثرها تدور حول ما ذكر في هذين التفسيرين وفي التفسيرين نلاحظ ما يلي:

---

(١) الموسوعة القرآنية الميسرة صفحة ٣٨١ طبعة دار الفكر.
(٢) تفسير الكريم الرحمن ـ ناصر السعدي صفحة ٦٠٥.

١ ـ أن العفريت من الجن يملك قوة طيران يستطيع أن يقطع بها مسافة حوالي ٦٠٠٠ كم بحدود أربع ساعات أو خمس ساعات وهو يحمل هذا الحمل الشديد والذي يزيد وزنه ربما عن ١٠٠٠ ك غ وربما تكون سرعة العفريت هذا أكثر بكثير لوأنه يطير أو يسير بدون هذا الحمل يعني أنه من الممكن أن يقطع هذه المسافة بساعتين.. وربما هناك أنواع من الجن كتلك التي تطير بجناحيها سرعتها أكبر من ذلك ودليله أن أنواعاً من الجان تتصعد إلى السماء وإلى الملأ الأعلى لتسمع منهم خبر السماء قال تعالى في سورة الجن:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ .

[سورة الجن، الآيتان: ٨ ـ ٩]

٢ ـ أن الذي عنده علم من الكتاب.. علم من الكتاب جزء يسير أو بعض علم أو لأنه يعلم اسم اللَّه الأعظم استطاع أن يحضر هذا العرش بأقوى من سرعة الضوء أو بسرعة الضوء أو من دون زمن مطلقاً.. لأن قوله تعالى ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ هي للتعبير عن القدرة وليس عن الزمن الذي استغرق رد الجفن على العين أو رفع الجفن عن العين فهنا تعبير عن انعدام الزمن في إحضار هذا العرش الثقيل.. طبعاً القدرة ليست قدرة (آصف) الذي عنده علم من الكتاب إنما هي قدرة اللَّه سبحانه الذي جعل فيه هذه القدرة، أو أن القدرة والعلم يستجيب له بإذن اللَّه تعالى لصلاحه أو لحفظه وعلمه باسم اللَّه الأعظم.. تماماً كما كان يفعل عيسى ابن مريم عليه السلام بأمر اللَّه سبحانه في إحياء الميت أو خلق الطير أو برء الأكمه والأبرص يقول تعالى:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

[سورة آل عمران، الآية: ٤٩]

٣ ـ تصور أن كل هذا الملك العظيم بين يدي نبي اللَّه سليمان عليه السلام ما

كان ليستطيع أن يحضر هذا العرش بنفسه بل أراه اللّه سبحانه أن رجلاً من جلسائه وهو من الصالحين استطاع أن يأتيه بعرش بلقيس بسرعة البرق أو أقل، وهذا الرجل ليس مسخراً لسليمان وإنما من جلسائه فقد أعطاه اللّه سبحانه من العلم ما لم يعط سليمان عليه السلام.. تماماً كما حدث لموسى عليه السلام عندما سأله الناس من حوله من أعلم الناس يا موسى قال أنا.. فأوحى اللّه إليه أن يلتقي بالخضر عليه السلام ليعلمه اللّه أنه ليس هو أعلم الناس بل هناك من أعلم منه والقصة معروفة في سورة الكهف التي نقرأها على الدوام بفضل اللّه تعالى.

٤ ـ اللّه سبحانه يعلم أن سرعة الضوء هي أعلى سرعة كونية، ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف كم في الثانية وهو الذي خلقها وأوجدها واللّه سبحانه يعلم أن البشرية ستكتشف هذا العلم وهذه السرعة في يوم من عمر الأرض وعلى يد جيل من أجيالها.. فأراد سبحانه أن يبين بما أن القرآن الكريم لكل زمان ومكان وجيل حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها أن هناك سرعة أقوى بكثير من سرعة الضوء ولكنها عند اللّه سبحانه ومن قدرته على كل ما خلق.. فأعلمنا سبحانه وقبل أن تعرف الناس شيئاً عن سرعة الضوء أن السرعة عند اللّه سبحانه خالق الأشياء أقوى بكثير من سرعة الضوء وهذا الإعجاز في نقل العرش من اليمن إلى بلاد الشام جر ى على يد عبد صالح من عباده أعطاه بعض علم من كتابه فما رأيك بعلم اللّه وقدرة اللّه التي لا يحدها زمن ولا مسافة إنما يقول لأي شيء كن فيكون دون زمن ودون مسافة ودون مكان؟

يقول تعالى:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾.

[سورة القمر، الآية: ٥٠]

٥ ـ البشر على الأرض وبعد أن اكتشفت سرعة الضوء ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف كم في الثانية الواحدة راحت تبحث عن سرعة أعلى من هذه السرعة.. هم لم يجدوا أسرع من سرعة الضوء حاولوا كثيراً ولكن دون جدوى فافترض علماء النسبية جسيم تخيلي أطلقوا عليه (التاشيون) وافترضوا أن هذا الجسيم لا يسافر إلا بسرعة تفوق سرعة الضوء لأن

كتلة تخيلية بعكس جسيم الضوء (الفوتون) الذي كتلته صفر.. وجسم التاشيون جسم تخيلي وليس حقيقي وهو افتراضي رغم عدم وجوده[١].. ولكن لا بد لعلماء الفلك أو الفيزياء تخيل هذا من أجل شرح كثير من النظريات أو التوقعات المستقبلية.

٦ ـ فالملائكة عليهم السلام هم جند اللّه سبحانه عندهم سرعات هائلة تزيد من جماعة إلى جماعة حسب المهمة الموكلة إليهم وحسب موقعهم في السماوات يقول تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾.

[سورة فاطر، الآية: ١]

فسرعة الملائكة تزيد بقوة أجنحتها فمن له أربعة أجنحة غير من له اثنان وكذلك الملائكة المقربون... إذ ذكر في الحديث الشريف أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح، وعلى هذا تكون سرعة جبريل عليه السلام فوق التخيل وما سرعة الضوء عند جبريل عليه السلام إلا حبة رمل في شاطئ طويل، فسرعات الملائكة وأحجامهم خارج حدود الزمان والمكان والسرعات وكل هذا دليل على قدرة اللّه سبحانه فلنسمع ونقرأ هذا الحديث لرسول اللّه ﷺ وندرك بعدها ما هو المكان والزمان والسرعة.

(إن اللّه تعالى أذن لي أن أتحدث عن ملك من ملائكة اللّه تعالى من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه وعاتقه كما بين السماء والأرض وفي رواية إن ما بين شحمة أذنه وعانقه مسيرة سبعمائة عام)[٢].

فأي زمان ومكان ومسافة يحتاجها هذا الملك العظيم وأي زمان يحتاجه لقطع مسافة إذا أمره اللّه سبحانه بذلك؟ ألا يعني هذا الحديث لوأن اللّه سبحانه أمره أن يضع مجرة درب التبانة بمليارات نجومها وكواكبها في كفه لوضعها وضمها إليه.. فجميع هذه السرعات أرضية كونية لتعامل الناس وحاجة الناس وأما ما عند اللّه سبحانه فأعظم بكثير.

---

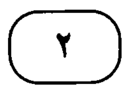
(١) الموسوعة البريطانية جزء ١٤ صفحة ٣٦٩.

(٢) رواه ابن ماجه.

وصدق اللّه سبحانه إذ يقول:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٧]



مائدة السماء

قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

[سورة المائدة، الآيات: ١١٢ ـ ١١٤]

هذه الآيات الكريمة يبين اللّه سبحانه فيها حدثاً قد تم وشاهده الحواريون وانتقلت المشاهدة إلى معرفة الناس جميعاً في زمن نبوة عيسى عليه السلام، ثم تناقلتها الأجيال حتى نزول القرآن الكريم فأكد الحدث وثبته وهذا الأمر معروف عند النصارى ولا خلاف عليه بينهم، فهو خبر متواتر ونزول هذه المائدة الملأى بالطعام من عند اللّه سبحانه سميت فيما بعد بما يعرف (**بالعشاء السري**) وله صور منشورة عند النصارى يزينون بها الأماكن وجدران الكنائس والمنازل، وهو خبر مؤكد عند المسلمين لأن اللّه سبحانه ذكره في القرآن الكريم فأصبح الخبر متواتراً، وأي خبر فيه تواتر عبر الأجيال فيكون خبراً صادقاً، ونزول المائدة يوم عيد عند النصارى، وهذه الآيات إثبات عظيم على وحدانية اللّه وقدرة اللّه، ووجود اللّه، وإلا من أنزل هذه المائدة من السماء وكان شاهداً عليها الحواريون تلامذة المسيح عليه السلام؟.

يقول أصحاب الموسوعة القرآنية الميسَّرة:

ـ واذكر حين قال الحواريون (تلاميذ عيسى) على سبيل طلب الطمأنينة مثلما طلب إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى: هل يعطيك ربك ويجيب طلبك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ (**وهي الخوان الذي يوضع عليه الطعام، وهو**

شيء مرتفع عن الأرض) والمراد هنا الطعام نفسه، قال لهم عيسى: خافوا اللَّه ودعوكم من هذا السؤال ونحوه، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

ـ قال الحواريون: نريد أن نأكل من هذه المائدة وتطمئن قلوبنا بكمال قدرة اللَّه ونعلم علماً يقيناً بأنك صدقتنا في نبوتك، ونكون على هذه الآية من الشاهدين على بني إسرائيل الذين لم يحضروها [١].

ـ قال عيسى داعياً، لما رأى إصرار الحواريين وقصدهم بإنزال المائدة: **اللَّهم** ربنا أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها يوم عيد وسرور لمن عاصرنا ولمن يأتي بعدنا، وتكون دليلاً واضحاً على قدرتك وصحة رسالة رسولك، وارزقنا رزقاً نستعين به على شكرك وعبادتك، وأنت أفضل الرازقين، وخير من أعطى، بل لا رازق في الحقيقة غيرك.

ـ قال اللَّه تعالى مجيباً سؤال عيسى عليه السلام: إني منزل عليكم هذه المائدة فمن يكفر منكم بعد نزولها، فإني أعذبه تعذيباً لا أعذب مثله أحداً من العالمين: **عالمي زمانهم، لأنه كفر بعد مشاهدة دليل حسي طلبوه.**

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير[٢]:

روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال **(اللَّهم أنزل علينا) فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها،** وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عليه السلام وقال: اللَّهم اجعلني من الشاكرين، اللَّهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مذلة وعقوبة، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم اللَّه ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل: وقال: بسم اللَّه خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح اللَّه: أمِن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه

---

(١) الموسوعة القرآنية الميسرة صفحة ١٢٧.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي مجلد ٦ صفحة ١٤١.

شيء اخترعه اللّه بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم اللّه ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح اللّه لوأريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال يا سمكة أحيي بإذن اللّه فاضطربت، ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا من بعدها، فمسخوا قردة وخنازير[1].

ويقول الصابوني في صفوة التفاسير:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي واذكر حين قال الحواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا؟ قال القرطبي: وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم باللّه عز وجل ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وقال أبوحيان: وهذا اللفظ يقتضي ظاهرة الشك في قدرة اللّه تعالى على أن ينزل مائدة من السماء، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري، وأما غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكوا في ذلك. حتى في ذلك قال الحسن: لم يشكوا في قدرة اللّه وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ فإن كان ينزل فاسأله لنا فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا اللّه في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

أي قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي ونعلم علماً يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوة النبوة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة، وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعوربه ويبكي قال أبو السعود: نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي مجلد ٦ صفحة ١٤١.

يأتي بعدنا ﴿ وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا اللّه فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ أي أجاب اللّه دعاءه فقال أني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث **(أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يدخروا لغد ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير)** قال في التسهيل: جرت عادة اللّه عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيها ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم اللّه خنازير(١).

فكيف نزلت هذه المائدة من السماء؟ ومن أنزلها.. طعام طازج جاهز للأكل هبط على مائدة من السماء شاهدها الحواريون بأم أعينهم وتواتر أمرها وحقيقتها الآلاف فيما بعد.. ورب قائل يقول هذه المائدة أمرها هين وهي صغيرة الحجم وليست معجزة كبرى!! ونقول بل هي معجزة كبرى ولولا أنها معجزة كبرى لما أنزلها اللّه سبحانه حتى تكون شاهداً عليهم إلى يوم القيامة... فتصور أنك في بلدك وهبطت إليك مائدة من السماء من بين الغيوم رأيتها بأم عينيك فوقها طعام مطبوخ وجاهز للأكل تحملها الملائكة ولكن لا ترى الملائكة فالملائكة غيب حجب اللّه سبحانه رؤيتهم عن البشر إلى يوم القيامة.. فكيف تفكر عند ذلك؟ ألا تفكر عند ذلك أنها معجزة عظيمة.



سورة المسد

يقول تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾.

[سورة المسد، الآيات: ١ ـ ٥]

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني صفحة ٣٤٩.

معاني الكلمات:

ـ **تبت**: هلكت أو خسرت أو خابت.

ـ **وتب**: وقد هلك أو خسر أو خاب.

ـ **ما أغنى عنه**: ما دفع التباب عنه.

ـ **وما كسب**: الذي كسبه بنفسه.

ـ **في جيدها**: في عنقها.

من مسد: حبل قوي من الحبال من النار.

هذه السورة القصيرة مكية نزلت في مكة المكرمة يتوعد اللّه سبحانه فيها أبا لهب وامرأته بأشد العذاب يوم القيامة.. بل يحكم اللّه عليه بالعذاب هو وزوجته يوم القيامة، حيث لن يغني عنه ماله وما كسب من مال يوم القيامة، بل سيصلى ناراً شديدة ذات لهب شديد وعذاب شديد هو وامرأته التي كانت تعينه على الكفر وتساعده على إيذاء محمد (ﷺ) والمؤمنين حيث لها من العذاب مثل ماله فتضع في رقبتها وعلى الدوام حبلاً شديداً من النار.

ولنستمع لقول المفسرين في هذه السورة ذات الآيات الخمس ثم نتبين بعدها وجه الإعجاز الإلهي العظيم في السورة حيث لا يمكن أن يكون هذا الكلام إلا من اللّه سبحانه.

يقول ابن كثير في تفسيره:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

روى البخاري، عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش فقال (**أرأيتم إن حدثتكم أن العدومصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟** قالوا نعم قال «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبولهب: ألهذا جمعتنا؟ تبا لك فأنزل اللّه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل اللّه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه، فأبولهب هذا أحد أعمام رسول اللّه ﷺ واسمه

(عبد العزى بن عبد المطلب) وكان كثير الأذية لرسول اللّه ﷺ والبغض له والتنقص له ولدينه فقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد تب تحقق خسارته وهلاكه.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ قال ابن عباس (وما كسب) يعني ولده، يروى أن رسول اللّه ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبولهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل اللّه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ وقوله تعالى ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي (أم جميل) واسمها (أروى بنت حرب بن أمية) وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي به على زوجها ليزداد على ما هو فيه، هي مهيأة لذلك مستعدة له، ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال مجاهد: من مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانت تمشي بالنميمة. **وقال ابن عباس والضحاك**: كانت تضع الشوك في طريق رسول اللّه ﷺ، **وقال سعيد بن المسيب**: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقها في عداوة محمد (ﷺ)، فأعقبها اللّه منها حبلاً في جيدها من مسد النار، والمسد الليف وقيل: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، قال الجوهري المسد الليف والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص، وقال مجاهد: **(حبل من مسد)** أي طوق من حديد، **أخرج ابن أبي حاتم** عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة وفي يديها فهر وهي تقول: مذمماً أبينا ـ ودينه قلينا ـ وأمره عصينا.

ورسول اللّه ﷺ، جالس في المسجد ومعه أبوبكر، فلما رآها قال: يا رسول اللّه قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول اللّه ﷺ «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول اللّه ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا

ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم. وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم ترمى إلى أسفلها ثم لا تزال كذلك دائماً.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً لا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة [(١)].

وقال محمد بن صالح العثيمين في تفسير جزء عم:

أما الثالث: الذي عاند وعارض فهو أبولهب. أنزل اللّه فيه سورة كاملة تتلى في الصلوات فرضها ونفلها في السر والعلن، يثاب المرء على تلاوتها، على كل حرف عشر حسنات. يقول اللّه عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وهذا رد على أبي لهب حين جمعهم النبي ﷺ ليدعوهم إلى اللّه فبشر وأنذر، قال أبولهب: تبالك ألهذا جمعتنا؟ قوله: ألهذا جمعتنا «إشارة للتحقير، يعني هذا الأمر حقير لا يحتاج أن يجمع له زعماء قريش وهذا كقوله ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٦]

والمعنى تحقيره، فليس بشيء ولا يهتم به كما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

[سورة الزخرف، الآية: ٣١]

فالحاصل أن أبا لهب قال: تبالك ألهذا جمعتنا؟ فرد اللّه عليه بهذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ والتباب الخسار. كما قال تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٣٧]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير مجلد صفحة ٦٨٩.

أي: خسار. وبدأ بيديه قبل ذاته، لأن اليدين هما آلتا العمل والحركة، والأخذ والعطاء وما أشبه ذلك. وهذا اللقب، أبولهب، لقب مناسب تماماً لحاله وماله، ووجه المناسبة أن هذا الرجل سوف يكون في نار تلظى، تتلظى لهباً عظيماً مطابقة لحاله وماله. يقول الشاعر:

قل إن أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

ولما أقبل سهيل بن عمروفي قصة غزوة الحديبية قال الرسول ﷺ «هذا سهيل بن عمرو، وما أراه إلا سهل لكم من أمركم»، لأن الاسم مطابق للفعل.

يقول اللّه عز وجل: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ «ما» هذه يحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء أغنى عنه ماله وما كسب؟ والجواب: لا شيء، ويحتمل تكون (ما) نافية أي ما أغنى عنه، أي لم يغن عنه ماله وما كسب شيئاً، وكلا المعنيين متلازمان، ومعناهما: أن ماله وما كسب لم يغن عنه شيئاً، مع أن العادة أن المال ينفع، فالمال يفدي به الإنسان نفسه لوتسلط عليه عدووقال: أنا أعطيك كذا وكذا من المال وأطلقني، يطلقه، لكن قد يطلب مالاً كثيراً أو قليلاً، ولومرض انتفع بماله، ولوجاع انتفع بماله، لكن النفع الذي لا ينجي صاحبه من النار، ليس بنفع. ولهذا قال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ يعني من اللّه شيئاً. قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قيل المعنى: وما كسب من الولد. كأنه قال: ما أغنى عنه ماله وولده. كقول نوح: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

[سورة نوح، الآية: ٢١]

فجعلوا قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني بذلك الولد. وأيدوا هذا القول بقول النبي ﷺ: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

والصواب أن الآية أعم من هذا، وأن الآية تشمل الأولاد وتشمل المال المكتسب الذي ليس في يده الآن، وتشمل ما كسبه من شرف وجاه. كل ما كسبه مما يزيده شرفاً وعزاً فإنه لا يغني عنه شيئاً ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ السين في قوله: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ للتنفيس المفيد للحقيقة والقرب. يعني أن اللّه تعالى توعده بأنه سيصلى ناراً ذات لهب عن قريب، لأن متاع الدنيا والبقاء في الدنيا مهما طال فإن الآخرة قريبة، حتى

الناس في البرزخ وإن مرت عليهم السنين الطوال فكأنها ساعة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

[سورة الأحقاف، الآية: ٣٥]

وشيء مقدر بساعة من نهار فإنه قريب. ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ يعني كذلك امرأته معه، وهي من أشراف قريش لكن لم يغن عنها شرفها شيئاً لكونها شاركت زوجها في العداء والإثم والبقاء على الكفر. وقوله: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قرأت بالنصب والرفع، أما النصب فإنها تكون حالاً لامرأة، يعني وامرأته حال كونها حمالة الحطب. أو تكون منصوبة على الذم لأن النعت المقطوع يجوز نصبه على الذم.

أي أذم حمالة الحطب. وأما على قراءة الرفع فهي صفة لامرأة (**حمالة الحطب**) (**حمالة**) صيغة مبالغة أي تحمله بكثرة، وذكروا أنها تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ من أجل أذى الرسول ﷺ (**في جيدها حبل من مسد**)

الجيد: العنق، والحبل معروف، والمسد الليف. يعني أنها متقلدة حبلاً من الليف تخرج به إلى الصحراء لتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ نعوذ بالله من ذلك، وهو إشارة إلى دنونظرتها وأنها أهانت نفسها، امرأة من قريش من أكابر قبائل قريش تخرج إلى الصحراء وتضع هذا الحبل في عنقها وهو من الليف مع ما فيه من المهانة، لكن من أجل أذية الرسول عليه الصلاة والسلام. نسأل الله العافية. وبهذا ينتهي الكلام بما يسر الله عز وجل على هذه السورة(١).

وفي تفسير الكريم الرحمن للسعدي:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: خسرت يداه وشقي (وتب) فلم يربح، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ .

(١) تفسير القرآن الكريم (جزء عم أ محمد بن صالح العثيمين صفحة ٣٥٣).

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول اللّه ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً (من مسد) أي: من ليف. أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد، وعلى كل، ففي هذه السورة آية باهرة من آيات اللّه، فإن اللّه أنزل هذه السورة، وأبولهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

. . . **عرضنا هذه التفسيرات الثلاث لأهمية تلك السورة** وقد بينت تلك التفسيرات شرحاً كاملاً حول هذه السورة الكريمة. . .

ويبقى السؤال أين وجه الإعجاز في هذه السورة المباركة؟

. . . هذه السورة مكية ونزلت في بداية الدعوة الإسلامية عندما كان العذاب شديداً من الكافرين المشركين على رسول اللّه ﷺ وأصحابه المؤمنين.

وهذه السورة تخبر أن أبا لهب سيصلى ناراً يوم القيامة وأن زوجته حمالة الحطب سيكون في جيدها حبل من مسد. . . أي أن اللّه سبحانه حكم على أبي لهب بأنه سيلقى عذاباً يوم القيامة شديداً وهذا يعني أن أبا لهب لن يسلم ولن يؤمن لا هو ولا زوجته حكماً قطعياً لا رجعة فيه أبداً. فكيف لمحمد ﷺ إذا كان القرآن الكريم من عند نفسه أن يحكم على رجل بأنه سيصلى ناراً يوم القيامة وأنه لن يؤمن ولن يسلم. . . فماذا لوجاء أبولهب وقال يا محمد إني أسلمت وأشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. . أو جاءه بالاتفاق مع المشركين أن يؤمن نفاقاً أمام الناس كي يكذب محمداً ﷺ والقرآن. . . فهو أي أبولهب لم يفعلها لا صادقاً ولا منافقاً. . فكيف لبشر أن يحكم هذا الحكم ويكون عنده علم الغيب فيحكم على إنسان أنه لن يؤمن لا نفاقاً ولا صادقاً وأنه سيصلى ناراً يوم القيامة؟

فماذا لوجاء أبولهب وآمن صادقاً أو منافقاً؟ ألا ينقض دعوة الإسلام برمتها؟ ألا يكذب القرآن؟ ألا تدخل الريبة والشك في قلوب المؤمنين

والإسلام في أوله ولم يتمكن الإيمان في قلوب المؤمنين بعد.. وماذا لوطال العمر بأبي لهب وأسلم بعد وفاة محمد ﷺ ألا تكون النتيجة قاسية... فلوكان محمد ﷺ يدّعي النبوة فهل يجرؤ على مثل هذا القول الذي إذا ثبت عكسه ينقض ما يدعوإليه.. وطالما أنه عاقل فإنه لا يمكن أن يقول مثل هذا القول.. وهذا القول وهذا الحكم لا يمكن إلا أن يكون من علام الغيوب اللَّه رب العالمين الذي يعلم السر في السماء والأرض ويعلم ما توسوس به نفس أبي لهب ونفس زوجته ويعلم أنه لن يؤمن لا هو ولا زوجته ويعلم أنه لن يقولها لا هزاراً ولا نفاقاً ولا صادقاً.. **أليست هذه السورة معجزة عظيمة دالة على صدق القرآن العظيم وصدق رسول اللَّه ﷺ وصدق دين اللَّه وأنه الحق من رب العالمين؟**. وصدق اللَّه تعالى إذ يقول:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٦]

وصدق اللَّه إذ يقول:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

[سورة فصلت، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢]

٤
الطـير الأبـابيل

يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾.

[سورة الفيل، الآيات: ١ ـ ٥]

معاني الكلمات [(١)]

ـ **بأصحاب الفيل**: وقعت القصة أول عام مولد الرسول ﷺ.

ـ **يجعل كيدهم**: سعيهم لتخريب الكعبة.

(١) معاني كلمات القرآن الكريم للشيخ حسنين محمد مخلوف صفحة ٣٨٢.

ـ **تضليل**: تضييع وإبطال وخسار.

ـ **طيراً أبابيل**: طيراً لجماعات متفرقة متتابعة.

ـ **سجيل**: طبق متحجر محرق (آجر).

كعصف مأكول: كتِبن أكلته الدواب فراثَتْه.

يقول ابن عثيمين في تفسير القرآن الكريم (جزء عم) عن هذه السورة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يخاطب اللَّه تعالى النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون خطاب النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم خطاب له وللأمة، لأن أمته تابعة له، وعلى الثاني يكون الخطاب عاماً له ولأمته ابتداء، وعليه فإن اللَّه تعالى يقرر ما فعل سبحانه وتعالى بأصحاب الفيل، وأصحاب الفيل هم أهل اليمن الذين جاؤوا لهدم الكعبة بفيل عظيم أرسله إليهم ملك الحبشة، وسبب ذلك أن ملك اليمن أراد أن يصد الناس عن الحج إلى الكعبة، بيت اللَّه عز وجل فبنى بيتاً يشبه الكعبة، ودعى الناس إلى حجه ليصدهم عن حج بيت اللَّه فغضب لذلك العرب، وذهب رجل منهم إلى هذا البيت الذي جعله ملك اليمن بدلاً عن الكعبة وتغوط فيه، ولطخ جدرانه بالقذر، فغضب ملك اليمن غضباً شديداً، وأخبر ملك الحبشة بذلك فأرسل إليه هذا الفيل العظيم. قيل: وكان معه ستة فيلة لتساعده فجاء ملك اليمن بجنوده ليهدم الكعبة على زعمه، ولكن اللَّه سبحانه حافظ بيته فلما وصلوا إلى مكان يسمى المغمس وقف الفيل وحرن، وأبى أن يتجه إلى الكعبة فزجره سايسه ولكنه أبى، فإذا وجهوه إلى اليمن انطلق يهرول، وإن وجهوه إلى مكة وقف، وهذه آية من آيات اللَّه عز وجل، ثم بقوا حتى أرسل اللَّه عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قال العلماء: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يعني: جماعات متفرقة كل طير في منقاره حجر صلب ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو الطين المشوي، لأنه يكون أصلب، وهذا الحجر ليس كبيراً، بل هو صغير يضرب الواحد من هؤلاء في رأسه ويخرج

من دبره ـ والعياذ باللّه ـ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي: كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت. هذا مجمل هذه السورة العظيمة التي بين اللّه سبحانه وتعالى فيها ما فعل بأصحاب الفيل وأن كيدهم صار في نحورهم، وهكذا كل من أراد الحق بسوء فإن اللّه تعالى يجعل كيده في نحره، وقد حمى اللّه عز وجل الكعبة عن هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يسلط عليهم رجل من الحبشة جاء ليهدمها حجراً حجراً حتى تتساوى بالأرض لأن قصة أصحاب الفيل مقدمة لبعثة الرسول محمد صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم التي يكون فيها تعظيم البيت. أما في آخر الزمان فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره حينئذ يسلط اللّه عليهم من يهدمه حتى لا يبقى على وجه الأرض، ولهذا يجب على أهل مكة خاصة أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر، لئلا يهينوا الكعبة فيذلهم اللّه عز وجل. نسأل اللّه تعالى أن يحمي ديننا وبيته الحرام من كيد كل كائد، إنه على كل شيء قدير [(١)].

يقول الصابوني في صفوة التفاسير:

التفسير: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علماً يقيناً كأنه مشاهد بالعين، ماذا صنع اللّه العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روي أن (أبرهة الأشرم) ملك اليمن، بنى كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجل من كنانة وتغوط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب (أبرهة) وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال، خوفاً من جنده وجبروته، وأرسل اللّه تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره وحجران في رجليه، فرمتهم الطيور بالحجارة فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم اللّه ودمرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين، قال أبو السعود: وتعليق الرؤية بكيفية فعله جل

---

(١) تفسير القرآن الكريم محمد صالح العثيمين جزء عم صفحة ٣٢٣.

وعلا ﴿ كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة اللَّه تعالى وقد روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات، متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحد إلا قتلته ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح وأكلته الدواب ثم راثَتْه فأهلكهم عن بكرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة اللَّه للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدوعنهم فكان يجب عليهم أن يعبدوا اللَّه ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة اللَّه على الانتقام من أعدائه **قال في البحر**: كان صرف ذلك العدوالعظيم عام مولده السعيد عليه الصلاة والسلام، وإرهاصاً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم اللَّه تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليس من عادتها أنها تقتل [(١)].

ويقول أصحاب الموسوعة القرآنية الميسَّرة

١، ٢ ألم تعلم أيها النبي كيف فعل ربك بأصحاب الفيل العظيم: قوم من الجيش النصارى حكموا اليمن، جاؤوا بقيادة أبرهة لهدم الكعبة المشرفة، بقصد تحويل العرب إلى تعظيم كنيسة بنوها في صنعاء، حدث ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بأربعين عاماً والاستفهام للتقرير ألم يجعل اللَّه تدبيرهم السيىء بتخريب الكعبة وفكرهم الخبيث في إبطال وتضييع. . . . والضلال في الأصل ضياع العمل عبثاً.

٣، ٤ وأرسل اللَّه عليهم مجموعات كثيرة متفرقة من الطيور والطير كل ما طار في الهواء صغيراً أو كبيراً فيشمل الذباب والبعوض ترميهم بحجارة من

---

(١) تفسير محمد علي الصابوني صفوة التفاسير صفحة ١٧٢٣.

طين متحجر فتهلكهم وعبر بالمضارع (ترميهم) عن الماضي لاستحضار الصورة العجيبة. أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثته فأهلكهم جميعاً [١].

. . . **قدمنا الحديث** بهذه التفسيرات الثلاثة لبيان شرحها وتفصيلها وبيانها ورأي وتحليل المفسرين عن هذه السورة العظيمة.

فأين وجه الإعجاز في هذه السورة الكريمة؟

. . . القصة والحدث الذي جرى في عام مولد رسول اللّه ﷺ والذي سمي لحدوث هذه الحادثة بعام الفيل.. قصة واقعية مرئية ومشاهدة من كثير من الناس وآثارها مرئية لآلاف الناس وموت الجنود وملكهم أبرهة الحبشي وجميع الفيلة واحتراقهم من تلك الحجارة من السجيل مشاهد ومرئي من آلاف الناس في ذلك اليوم.. فهو خبر متواتر بين الناس وعندما نزلت سورة الفيل لم ينكر الحدث ألد أعداء المسلمين وهم المشركون وكذلك لم ينكره اليهود في المدينة ولا النصارى ولا أي فئة من الناس.. وهذا دليل على صحة القصة ووقوع الحدث.

ويبقى السؤال من أرسل هذه الطير الأبابيل؟ ومن جعلها تختص برمي الحجارة على جنود أبرهة وخيولهم التي أرادوا بها أن يهدموا الكعبة.. وهل الطير تعقل فتختص أبرهة وجنوده.. ولماذا أبرهة وجنوده؟ وليس أهل مكة؟ أو غيرهم ألا يدل أن هذه الكعبة المشرفة هي بيت اللّه التي أراد أن يحميها من يد أبرهة وجنوده الذين لا قبل لأهل مكة بهم وقوتهم وجندهم وعدتهم.. ألا تدل أن اللّه سبحانه يعلم أنه لا قبل لأهل مكة بحماية بيته فأرسل على من أراد هدمه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، ألا يدل ذلك على قدرة اللّه وحماية بيته لعلمه أن ليس هناك من يحميه.. ألا تدل هذه الآيات على وجود رب هذا البيت وهذه الكعبة.. فلوكان أبرهة الحبشي النصراني على حق لما أرسل اللّه سبحانه له الطير الأبابيل بل تركه يهدم تلك الكعبة وصدق اللّه إذ يقول:

(١) الموسوعة القرآنية الميسرة صفحة ٦٠٣.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٢٥]

فسبحان اللَّه تعالى، فمن أين جاءت هذه الطير ومن أين جاءت هذه الطير في مناقيرها بتلك الحجارة.. ومن علَّم الطير رمي تلك الحجارة فوق رأس الجنود وكأن كل طير مخصص لواحد من هؤلاء الجنود يعرفه الطير، فلم يخطئ الطير الذي رمى الجنود، ولم يخطئ الطير الذي رمى الفيلة، ولم يخطئ الطير الذي اختص برمي أبرهة الحبشي، فحرقتهم وجعلتهم عبرة لمن يعتبر.. وعبد المطلب جد رسول اللَّه ﷺ عندما أخبر بأبرهة وجنوده وفيله وبأنهم قادمون لهدم البيت أجاب إن للبيت رباً يحميه.. فحماه اللَّه سبحانه وبين معجزة لم يشاهدها أحد من قبل، وبين لأهل مكة قدرته وإعجازه وذلك قبل بعثة الرسول ﷺ وليكون هذا الحدث شاهداً لرسول اللَّه ﷺ على صدق نبوته وصدق كتاب اللَّه تعالى.

٥

انفلاق البحر على يد موسى عليه السلام

يقول تعالى:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

[سورة الشعراء، الآية: ٦٣]

معاني الكلمات:

فرق: قطعة من البحر مرتفعة.

كالطود العظيم: كالجبل المنطاد في السماء.

... عندما نقرأ في قصص الأنبياء كما وردت في القرآن الكريم نجد أن اللَّه سبحانه يجري بإذنه المعجزات على يد أنبيائه.. ذلك لإعطاء النبي على مرأى من أهله وقومه قوة وآية وقدرة وفاعلية لتجري على يده المعجزة بحيث لا يمكن أن تكون هذه القدرة والقوة في أحد من معاصريه، فتؤمن به الناس، وبرسالته التي أرسله اللَّه بها، وهذا واقع في كل الأنبياء تماماً كما

أحيا عيسى عليه السلام الموتى وابرأ الأكمه والأبرص، وموسى عليه السلام من الرسل الذين أجرى اللَّه سبحانه على يديه معجزات كثيرة. منها قوله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٦٠]

ومنها قوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۞ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۞ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

[سورة طه، الآيات: ١٧ ـ ٢٢]

.. وكذلك عندما أخذ موسى بني إسرائيل متوجهاً إلى فلسطين فلحق بهم فرعون وجنوده للقضاء عليهم وعندما أدركهم الخطر أوحى اللَّه إلى موسى بعد أن وصل مع قومه إلى البحر أن يضرب بعصاه البحر كي ينفلق عن طريق يبس يمر عليه بنوإسرائيل ويغرق فيه فرعون وجنوده بعد أن يطبق الماء عليهم.....

في الآية الكريمة ٦٣ من سورة الشعراء معجزة عظيمة شاهدها ورآها بنوإسرائيل جميعاً، وكذلك شاهدها الآلاف من جنود فرعون فهي معجزة متواترة رآها عشرات الآلاف من الناس فهي حقيقة واقعة لا تكون إلا من إلٰه قادر خالق.

ولأهمية هذه الآية الكريمة لنستمع ونقرأ ما قاله المفسرون عن هذه الآية الكريمة ثم نقدم إعجازها العلمي العظيم.

يقول الأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلي في التفسير الوسيط.

وأوحى اللَّه بأمره إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه بها، فانفلق بقدرة اللَّه تعالى فكان اثني عشر طريقاً وصارت كل قطعة من الماء المحجوز المتجمد عن الحركة كالجبل الشامخ، وجفف اللَّه الطرق والممرات البحرية بالشمس والهواء، بعدد أسباط بني إسرائيل وفرقهم، لكل

سبط منهم طريق وأزلفنا، أي قربنا من البحر هنالك للقوم الآخرين، وهم فرعون وجنوده فتبعوهم.

ونجى اللّه سبحانه موسى وبني إسرائيل أجمعين بخروجهم إلى الضفة الأخرى من البحر في يوم عاشوراء ثم أهلك فرعون وجنوده في الماء بإطباق البحر عليهم. ونبه اللّه على موضع العبرة بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي إن في هذا الحدث العجيب لعظة دالة على قدرة اللّه تعالى وتوفيقه، وصدق موسى عليه السلام، بإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين (١).

ويقول أبوبكر الجزائري في أيسر التفاسير:

هذا آخر قصة موسى عليه السلام مع فرعون قال تعالى في بيان نهاية الظالمين وفوز المؤمنين ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ جمع موسى وجمع فرعون وتقاربا بحيث رأى بعضهما بعضا ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي خافوا لما رأوا جيوش فرعون تتقدم نحوهم صاحوا (إنا لمدركون) فطمأنهم موسى بقوله ﴿ كَلَّآ ﴾ أي لن تدركوا، وعلل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ إلى طريق نجاتي قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب ﴾ أي لن يدركونا ولن يلحقوا بنا فانفلق أي انشق البحر فكان كل فرق كالطود: أي شق، أي الجزء المنفرق، والطود الجبل، وأزلفنا ثم الآخرين: أي قربنا هنالك الآخرين أي فرعون وجنده. إن في ذلك لآية: أي عظة وعبرة توجب الإيمان برب العالمين برب موسى وهارون. اضرب بعصاك الحجر فضرب امتثالاً لأمر ربه فانفلق البحر فرقتين كل فرقة منه كالجبل العظيم (٢).

يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير:

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ

(١) التفسير الوسيط جزء ٢ صفحة ١٨٣١.
(٢) أيسر التفاسير الجزائري صفحة ٨٨٤.

فَٱنفَلَقَ﴾ ولا شبهة في أن المراد (فضرب فانفلق) لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لأنه كالبعث ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام، واختلفوا في البحر، روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلا **يوشع بن نون** فإنه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر افرق لي فقال ما أمرت بذلك ولا يعبر عليّ العصاة، فقال موسى يا رب قد أبى البحر أن ينفرق، فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة، **وعن عطاء بن السائب** أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم، وروي أن موسى عليه السلام قال عند ذلك (**يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء**) فأما قوله ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه، وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه: (**أحدهما**) أن تفرق ذلك الماء معجز (**وثانيها**) أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضاً لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده اللّه تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكداً لهذا الإعجاز (**وثالثاً**) إنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتسبوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث (**ورابعها**) أن جعل اللّه في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع (**وخامسها**) أن أبقى اللّه تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون

وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس[١].

. . . . **هذه التفاسير بينت لنا المعنى ولكن المعجزة الكبيرة في إنشقاق البحر** إلى فرقين عظيمين كل فرق كالطود العظيم. . . فقد أمر اللَّه سبحانه المياه أن تنكمش وتتباعد عن بعضها وترتفع إلى الأعلى ليكون طريق يبس يمر منه موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل. . فأي قانون أو قوة توقف الماء على جنب دون أن ينساب ومن أمر ذرات المياه أن ترتفع إلى الأعلى وتنكمش وتقف كأنها جدار عظيم أو سد حجز الماء من كلا الطرفين ليمر بنوإسرائيل حتى لوجاء موج عظيم فرفع الماء ولكنه لا يستطيع أن يصنع الموج طريقاً يبساً تسير عليه الناس ومهما علا هذا الموج العظيم كما لا تستطيعه قوى بشرية ومهما عظم أمرها وعلمها ومهما فعلت، إلا أن تبني جداراً أو سداً عظيماً على كلا الطرفين وهذا يستغرق سنوات طويلة. . . أما الأمر الإلٰهي فقد جاء بأجزاء من الثانية فاستجاب البحر لإرادة اللَّه سبحانه وانكمش الماء وارتفع إلى الأعلى والعجيب في قاع البحر حيث تحول في ثوان إلى طريق يابس يستطيع الناس والدواب وما تحمل من العبور، فلا يكفي ارتفاع الماء وشق الطريق، ولكن لا بد من أن ينشق قاع البحر ويتحول إلى طريق يابس. . . هذه الآية الكريمة معجزة المعجزات وقدرة عظيمة من خالق البحر، والماء، والأرض، والناس، وتصوروا ما قاله تعالى لموسى في آية آخرى في ذات الموضوع يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۞ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾.

[سورة طه، الآيتان: ٧٧ ـ ٧٨]

وهذه المعجزة شاهدها عشرات الآلاف وهي متواترة ومذكورة في كل الكتب السماوية ولا خلاف عليها. . . فمن مثل هذا؟ من شق البحر؟ ومن جعل الطريق يبساً؟ ومن أوقف الماء على جنبه ليكون كالطود العظيم. . أليس هو اللَّه سبحانه؟ وهل غير اللَّه تعالى يفعل هذا؟ سبحانك ما قدرناك حق قدرك فأنت القوي العزيز.

---

(١) تفسير الفخر الرازي أ التفسير جزء ١٢ صفحة ١٣٩.

٦

النعاس والمطر في معركة بـدر

يقول تعالى:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ١١]

معاني الكلمات

يغشيكم: يأتيكم النعاس فيغشاكم.

أمنة منه: أمناً من اللَّه وتقوية لكم.

رجز الشيطان: وسوسته وتخويفه إياكم من العطش.

وليربط: يشد ويقوى باليقين والصبر.

ويثبت به الأقدام: بهذا المطر الذي ينزل بصورة زخات خفيفة يثبت اللَّه به الأقدام.

... وربما يتساءل القارئ لهذه الآية الكريمة ما هو وجه الإعجاز فقد لا يتراءى وجه إعجازي فيها فاللَّه سبحانه يتحدث عن نعاس يأتي المسلمين في معركة بدر وينزل اللَّه مطراً قبل الحرب ليغتسلوا به ويتطهروا فيذهب رجز الشيطان فيربط على قلوب المؤمنين ويثبت به الأقدام، وهذا شأن الآيات في سورة الأنفال إذ يتحدث اللَّه سبحانه عما قدمه للمسلمين من قدرته ومساعدتهم كي ينتصروا على المشركين.

.. فلوأننا أمعنَّا في كلمات الآية ثم رددناها مرات لوجدنا فيها إعجازاً إلٰهياً عظيماً... فما علاقة أن يغشيهم نعاس قبل الحرب وهل يفيد النعاس المسلمين في شيء وما علاقة زخات الماء في تثبيت المسلمين قبل الحرب، وربما الماء يحدث طيناً فتسيخ أرجلهم وأقدامهم فتساعد على هزيمتهم... ولكن اللَّه سبحانه يتحدث أن هذا كان من أسباب النصر... فكيف هذا؟ لنستمع ونقرأ في تفسير المفسرين لنتبين حقائق الآية أولاً ثم نتحدث عن إعجازها.

يقول أصحاب الموسوعة القرآنية الميسَّرة:

واذكروا حين يلقي اللَّه النعاس عليكم في الليلة السابقة ليوم القتال، أمناً منه تعالى ليذهب عنكم الاضطراب والخوف، وينزل عليكم من السحاب مطراً ليطهركم بالماء من الحدث والجنابة فقد أنزل اللَّه سبحانه على جيش المسلمين مطراً حتى سال الوادي، ومن أجل إذهاب وسوسة الشيطان عنكم بالخوف، ولتقوية قلوبكم بجعلها صابرة قوية، وتثبيت الأقدام في مواطن الحرب بالمطر الذي اشتد به رخوالأرض [١].

يقول الصابوني في صفوة التفاسير:

(إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى، وهذه معجزة لرسول اللَّه ﷺ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف قال علي رضي اللَّه عنه: **(ما كان فينا يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول اللَّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح)** قال ابن كثير: وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون، قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر اللَّه ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديد لنعمة أخرى، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل اللَّه عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر(ليطهركم به) أي من الأحداث والجنابات ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، **قال البيضاوي**: روي أنهم نزلوا في كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء، وانتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء اللَّه وفيكم رسوله؟ فأنزل اللَّه المطر لتثبت عليه الأقدام وزالت الوسوسة ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يقويها بالثقة بنصر اللَّه ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي يثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال الطبري: ثبت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها [٢].

(١) الموسوعة القرآنية الميسرة صفحة ١٧٩ تفسير سورة الأنفال الآية ١١.

(٢) صفوة التفاسير الشيخ محمد علي الصابوني صفحة ٤٦٦ تفسير سورة الأنفال الآية ١١.

ويقول ابن كثير في تفسيره:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ * وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾.

يذكرهم اللّه تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ الآية قال أبوطلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الجحف. وقال الحافظ أبويعلى عن علي رضي اللّه عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر **غير المقداد**، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول اللّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح، **وقال عبد اللّه بن مسعود**: النعاس في القتال أمنة من اللّه، وفي الصلاة من الشيطان **وقال قتادة**: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر اللّه، وهذا من فضل اللّه ورحمته بهم ونعمته عليهم، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول اللّه ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي اللّه عنه وهما يدعوان أخذت رسول اللّه ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال: **(أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع)** ثم خرج من باب العريش وهو يتلوقوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل اللّه من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل اللّه في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث اللّه المطر عليها، والمعروف أن رسول اللّه ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده، فتقدم إليه **الحباب بن المنذر فقال**: يا رسول اللّه هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك اللّه إياه فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال **(بل**

منزل نزلته للحرب والمكيدة) فقال: يا رسول اللّه إنَّ هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول اللّه ﷺ ففعل ذلك **وقال مجاهد**: أنزل اللّه عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وقوله: ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر، ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ ﴾ فهذا زينة الظاهر، ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي مطهراً كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ وهو شجاعة الظاهر واللّه أعلم[١].

... لا شك أن ابن كثير توسع في شرح وتفسير الآية الكريمة، وحدث غزوة بدر وما حدث فيها للمؤمنين متواتر حتى يومنا هذا ولا خلاف فيه بين الصحابة والتابعين والمفسرين لأن ما جرى للمؤمنين في هذا اليوم (يوم غزوة بدر) حسَّ به وشاهده وشعر به كل المسلمين المشاركين في الغزوة وحتى المشركين رأوا بأم أعينهم المطر الذي نزل بجوار المسلمين، وعلى المسلمين، ولم ينزل عليهم، مع أنهم جيشان متقاربان في المكان وهذه هي المعجزة الأولى أن ينزل المطر على المسلمين ولم ينزل على المشركين مع تقارب المكان وما كان حول المسلمين كان المطر غزيراً حتى سالت منه الأودية وما كان فوق المسلمين فجاء بصورة رخات ورذاذ فينعش المسلمين ويطهرهم من الجنابة ويثبت أقدامهم وأقدام خيولهم وكذلك لتثبت بهذا المطر (الرملة)، وهي أرض رملية تسيخ تحت أقدامهم فلولا المطر الذي أرسله اللّه سبحانه ربما تكون هذه الرملة التي تسيخ تحت أقدامهم عاملاً بهزيمتهم.

... وكذلك ألقى اللّه سبحانه عليهم النوم والسهاد ليزيح من صدورهم الخوف من المعركة والخوف من لقاء المشركين لأن المسلمين لم

(١) مختصر تفسير ابن كثير مجلد ٢ صفحة ٩١ تفسير سورة الأنفال آية ١١.

يكونوا يملكون العدة اللازمة لحرب المشركين، تلك العدة التي تسلح بها المشركون، غير أن المشركين ثلاثة أضعاف المسلمين جاؤوهم بعدتهم وسلاحهم وجمالهم وخيالتهم وفرسانهم ولا بد أن هذا يدخل الخوف إلى قلوبهم لذلك هيأ اللّه سبحانه لهم عدة النصر بتلك المعجزات التي بينتها الآية الكريمة.



الفصل الرابع

- من وجوه الإعجاز: مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه.
- الرد عل من ادَّعى أن وجه إعجاز القرآن اللغوي والبياني والتشريعي أن اللَّه سبحانه صرف العرب عن معارضته.

آيات أخرى في الإعجاز الغيبي

وأما غيب المستقبل، فنمثل له بأمثلة عشرة:



غلبت الروم

إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول اللّه فيه:

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾.

[سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٦]

وبيان ذلك أن دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية، في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين في شماتة العدو: إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، فنزلت الآيات الكريمة يبشر اللّه فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع. ولم يك مظنوناً وقت البشارة أن الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة. بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها؛ لأن الحرب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل النص الكريم: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولأن دولة الفرس كانت

قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة. حتى أنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوة، ولكن اللّه سبحانه وتعالى. أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى، وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذا الوقت الذي ينتصر فيه الروم؛ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾! ولقد صدق اللّه وعده في تلك وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعاً في الظرف الذي ظفر فيه الرومان. وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة؛ لأنهم كانوا أيامئذ في مكة في صدر الإسلام والمسلمون في قلة وذلة، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلّا ولا ذمة. ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقها في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات. وإن كنت في شك فأعد على سمعك هذه الكلمات:

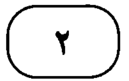
قال تعالى:

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٦]

ثم ألست ترى معي أن هذه العبارة الكريمة ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قد حاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند؛ لأن البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع. والناس يختلفون في حساب الأشهر والسنين: فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر. ثم إن منهم من يجبر الكسر ويكمله إذا عد وحسب، ومنهم من يلغيه. يضاف إلى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حبله، فتبتدئ بشائره في عام ولا تنتهي مواقعه الفاصلة إلا بعد عام أو أكثر. ونظر الحاسبين يختلف تبعاً لذلك في تعيين وقت الانتصار: فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر

ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما. لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته ﴿سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ مع الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالاً لطاعن ولا حاسب. وظهر أمر اللّه وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفي كل اصطلاح من الاصطلاحات. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؟!



عصمة رسول اللّه ﷺ

إنباء القرآن بأن اللّه سبحانه وتعالى عاصم رسوله ﷺ وحافظه من الناس، لا يصلون إليه بقتل، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله ﷺ، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً. فمن الذي يملك هذا الوعد وتنفيذه إذاً إلا اللّه الذي يغلب ولا يغلب، والذي لا يقف شيء في سبيل تنفيذ مراده ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؟. وإن لم تصدقني فسل التاريخ والمؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم!؟.

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان من كلام محمد رسول اللّه ﷺ وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه. وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلا: **(أيها الناس انصرفوا فقد عصمني اللّه)** كما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري. وكذلك روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: (كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول اللّه ﷺ. فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي اللّه ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها. فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ﷺ: أتخافني؟ قال:

لا، قال من يمنعك مني؟ قال: **(اللّه يمنعني منك. ضع السيف)** فوضعه. ومما يجدر التنبيه له أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف!

ومن شواهد حماية اللّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علي رضي اللّه عنه قال: كنا إذا احمر البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول اللّه ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدومنه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضاً ما ثبت أن رسول اللّه ﷺ في يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدبهم اللّه بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل اللّه سبحانه وتعالى سكينته على رسوله ﷺ، حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذها بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول اللّه ﷺ. فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: **(أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)** كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه. فواللّه ما نالوا منه نيلا، بل أيده اللّه بجنده، وكف أيديهم عنه بيده. رواه الشيخان.

٣

عجز قدرة الإنس والجن على الإتيان بمثل القرآن

ما جاء في معرض التحدي بالقرآن، من قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فإن ما تراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجان على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل (والمستقبل غيب) لا يملكه رسول اللّه محمد ﷺ ولا مخلوق غيره ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجام، وكلهم قد باؤوا بالعجز ولم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم، مع وجود أعداء

للإسلام في هذه العصور المتأخرة، أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين.

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التحدي الطويل العريض الجريء، من الحمية الأدبية التي تبعث روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم. ثم لاحظ أن المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين، إما نقصاً يعالجونه بالكمال، أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه. وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة. وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة. وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل. وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال فكيف يصدر إذاً مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول، فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن رسول كريم، فضلاً عن رسول اللّه محمد أفضل المرسلين؟!. وهل يمكن أن يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض إلا بأنه استمداد من وحي السماء، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟!

٤

التنبؤ بمستقبل الإسلام

ما جاء من التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً فقد أخبر القرآن ـ والمسلمون في مكة قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ـ بأن الإسلام سيظهر ويبقى، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب اللّه. اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الرعد:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٧]

وفي سورة إبراهيم:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ

أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

[سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥]

وفي سورة الحجر:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية: ٩]

أجل في هذه السور الثلاث المكية، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة، والإسلام يومئذ في مكة مدفوع مضطهد، والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وليس هناك من بواسم الآمال ما يلقي ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد، ولئن التمست هذه الآمال في نفس الداعي من طبيعة دعوته، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد. ولئن وصلت إلى هذا الحد مادام صاحبها حياً يتعهدها بنفسه ويغذيها بنشاطه، فليس لديه من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح بعد موته، مع ما هو معروف بأن المستقبل مليء بشتيت المفاجآت، والليالي من الزمان حبالى مثقلات، والتاريخ لا يزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء، وما ضاع أو حرف من كتب اللّه ووحي السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل.. كل ذلك قد كان ورسول اللّه محمد ﷺ لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذي يسير مع الأوهام، أو يطير مع الخيال، أو يطلب المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة. بل كان معروفاً منذ نشأته، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته، حتى لقد كان يتثبت في كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنه الصادق الأمين، وجاء القرآن نفسه يشهد بأن رسول اللّه ﷺ كان قبل نبوته لا يطمع في نبوة ولا يأمل في وحي؛ قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

[سورة القصص، الآية: ٨٦]

وكذلك لم يكن رسول اللّه ﷺ بعد نبوته بالذي يضمن بقاء هذا الوحي وحفظه؛ قال تعالى:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ .

[سورة الإسراء، الآيتان: ٨٦، ٨٧]

فلا مناص إذاً من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة، صادرة من أفق غير أفقه، آتية من ملك قاهر لا راد لحكمه، معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه في ماضيه وحاضره ومستقبله!

ومما يؤكد صدق هذه التنبؤات، أن الإسلام لقي من ضروب العنت مراراً وتكراراً، في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافياً في محوه وزواله، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتاً يسامي الجبال، شامخاً يطاول السماء. وكذلك لقي كتابه العزيز ولا يزال يلقى من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة، ما لا يتصوره إنسان في أي زمان، وما لم يلقَ كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان، ومع ذلك كله فالقرآن هو القرآن، لا يزال جالساً على عرشه في سمائه، يمد العالم كله بحرارته وضيائه، ولم تنل منه هذه المحاولات إلا كما ينال نباح الكلاب من عاليات السحاب.

٥

التنبؤ بالمستقبل السعيد للإسلام

تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر به القرآن، في أقصر ما يكون من الزمان! أجل، إننا لنقرأ في سورة الصافات المكية: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وفي سورة غافر المكية أيضاً ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من

ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول وأتباعه في مكة والمدينة، على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة. حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلاً، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي بن كعب قال: (لما قدم رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: (أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّٰه؟) فنزلت الآية وكذلك روى ابن أبي حاتم عن البراء قال: (نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد (أي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.. هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم اللّٰه ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدانت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً. يا لها من نبوءه تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها، ومن يخرق ـ إن شاء ـ عادات الكون ونواميسه من أجلها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

٦

التنبؤ بدخول مكة

تنبأ القرآن بأن الرسول ﷺ وأصحابه، وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، إذ قال سبحانه وتعالى:

قال تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

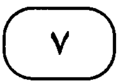
[سورة الفتح، الآية: ٢٧]

ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر، مع أن ظروفه لم تكن تسمح به في مجرى العادة فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام رسول اللّٰه محمد ﷺ ولا مخلوق سواه، بل هو كلام القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة.

ولزيادة البيان نذكر أن الرسول ﷺ رأى في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فقص رؤياه على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم. ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حرباً وإنما يقصدون عمرة ونسكاً بل ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت عليهم ما أرادوا. وكادت تكون حرب لولا أن الرسول ﷺ رضي بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسياً، إيثاراً منه للمسالمة وحباً للسلام العام. ثم قفل راجعاً على أن يؤدي نسكه في العام القابل نزولاً على مواد هذا الصلح القاسي وعز ذلك على أصحابه، واتخذ المنافقون منه حطباً لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم، فقال عبد اللّٰه بن أبي رأسهم: واللّٰه ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام. ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة، وهي دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة. وقد أنجز اللّٰه وعده فتم الأمر على أكمله في العام الذي بعد عام الحديبية. قال تعالى:

﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾!

[سورة التوبة، الآية: ٣٢]



٧

التنبؤ بانتصار المسلمين في معركة بدر

تنبأ القرآن بهزيمة جموع الأعداء في وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب، فضلاً عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهزام المشركين وذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة القمر المكية: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وأنت خبير بأن الجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية للهجرة. فأين ما يتنبأ به القرآن إذاً؟

إنه لا بد أن يكون كلاماً تنزل ممن يعلم الغيب في السماوات والأرض. أما رسول اللَّه محمد الرجل الأمي فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم؟.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه أن عمر رضي اللَّه عنه جعل يقول حين نزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللَّه ﷺ يقولها.

٨

التنبؤ بالمستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش

تنبؤ القرآن في مكة بهذا المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، ثم وقوع ذلك كما تنبأ. اقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ * ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ * يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

[سورة الدخان، الآيات: ١٠ ـ ١٦]

وسبب نزول هذه الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول اللَّه ﷺ واستعصوا، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، أي بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا باللَّه ورسوله. فأجابه اللَّه بهذه الآيات. وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات:

(أولها): الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان.

(ثانيها): الإخبار بأنهم سيضرعون إلى اللَّه حين تحل بهم هذه الأزمة: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾.

(ثالثها): الإخبار بأن اللَّه سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

(رابعها): الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم.

(خامسها): الإخبار بأن اللَّه سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر.

ولقد حقق اللَّه سبحانه وتعالى ذلك كله ما انحرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده. ثم قالوا متضرعين ذلك حكاه اللَّه عنهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾. ثم كشف اللَّه عنهم هذا العذاب قليلاً، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم. ثم انتقم اللَّه منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأديل للمسلمين منهم!.

أرأيت ذلك كله؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا بل هو اللَّه العزيز الحكيم.

٩

تحدي القرآن لليهود

تّحدي القرآن لأعداء اللَّه اليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط، وأنه كان في متناول قدرتهم وفي دائرة استطاعتهم، ومع ذلك انصرفوا عنه. وعجزوا. فدل هذا التحدي مع الانصراف والعجز، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسن، وهو اللَّه وحده. أما رسول اللَّه محمد ﷺ فمحال أن يغامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهر سهولته، وهو بشر لا يعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسن.

وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق، وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخاطب اللَّه رسوله ﷺ في سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأنت ترى هذا النظم الكريم يبطل مزاعم اليهود بطلب يبدولكل ناظر أنه هين، وهو أن يتمنوا الموت لوكانوا صادقين في ادعائهم أن نعيم الآخرة وقف عليهم. ولقد كان بمقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولوبألسنتهم: نحن نتمنى الموت، كي تنهض حجتهم على رسول اللَّه محمد ﷺ ويسكتوه. لكنهم صرفوا فلم يقولوا ولم

يستطع أحد أن يقول إني أتمنى الموت. وعلى ذلك قامت الحجة عليهم، وبأن كذبهم في كبريائهم وغرورهم. وبلغ من أمر القرآن أنه نفى عنهم هذا التمني نفياً يشمل آباد المستقبل فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾.

وها قد مضى على نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً، وما تمنى أحد منهم الموت لوكانوا صادقين. بل أعلن القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال:

قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٩٦]

فكان ذلك علماً جديداً من أعلام النبوة، لأنه تنويه بغيب حاضر، لم يعلم بعلمه إلا رسول اللّه محمد ﷺ ولا قومه.

خبرني ـ بربك ـ هل يتصور عاقل أن محمداً وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدي من عنده في لغة الواثق الذي لا يتردد، والآمن الذي لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول: إني أتمنى الموت؟ وهنا تكون القاضية فتنقطع ـ لا قدر اللّه ـ حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أحرصهم على إقحام الرسول وتعجيزه.

فصدور هذا التحدي من رجل عظيم كرسول اللّه محمد ﷺ، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم في الحال بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ وفي الاستقبال بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾: كل ذلك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب. وهي أيضاً براهين قاطعة على أن رسول اللّه محمداً ﷺ لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاراه أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم.

١٠

سَنَسِمُه على الخرطوم

وهو من عجائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية، تقع في المستقبل لشخص معين، ثم تحقق الأمر كما أخبر. هذا هو الوليد بن المغيرة المخزومي يقول اللّه فيه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان، ففي غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أي ضرب به أنفه، وبقي أثر تلك الضربة سمة فيه وعلامة له! ولعلك لم تنس أن الوليد هو الذي نزل فيه ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وما بعدها من الآيات التي ذكرنا قبلا. وهو أيضاً الذي نزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم:

قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

[سورة القلم، الآيات: ١٠ ـ ١٦]

نعوذ باللّه تعالى من الكفر والعناد وسوء الأخلاق، ونسأله الإيمان الكامل والعمل الصالح والخلق الفاضل آمين.

تعليق حول الإعجاز الغيبي

في هذا الوجه من الإعجاز على ما شرحنا ومثلنا، معجزات كثيرة لا معجزة واحدة، لأن كل نبأ من أنباء الغيب معجزة. فانظر ما عدد تلك الأنباء، يتبين لك عدد تلك المعجزات.

وإنه ليروعك هذا الإعجاز إذا لاحظت أن هذه الكثرة الغامرة لم تتخلف منها قط نبوءة واحدة، بل وقعت كما أنبأ على الحال الذي أنبأ. ولوتخلفت واحدة لقامت الدنيا وقعدت، وطبل أعداء رسول اللَّه ﷺ ورقصوا فرحاً بالعثور على سقطة لهذا الذي جاءهم من فوقهم، وتحداهم بما ليس في طوقهم. وسفه معبوداتهم ومعبودات آبائهم. ولوكان ذلك لنقل وتواتر ما دامت هذه الدواعي متوافرة على نقله وتواتره كما ترى.

ويزيد في أمر هذا الإعجاز أن المتحدث بهذه الأنباء الغيبية أمي نشأ في الأميين، وأن من هذه الأنباء ما كان تحدياً وإجابة لسؤال العلماء من أهل الكتاب، كما سألوه ﷺ عن أصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح ونحوها، وأجابهم عما سألوا وهم يعلمون أنه غيب بالنسبة إليه، ليست لديه وسيلة مادية للعلم به. ولم يؤثر عنهم أنهم كذبوه في شيء مما أخبر تكذيباً يستندون فيه إلى دليل، بل هو الذي كان يكذبهم فيما حرفوه، ويرشدهم إلى حقيقة ما بدلوه، ويتحداهم بما في أيديهم إذا جادلوه. وإليك شاهداً على ذلك:

قالت اليهود مرة للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل كل لحوم الإبل وألبانها. فقال عليه السلام: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله: فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام. فنزل تكذيباً لهم وتحدياً بالتوراة التي عندهم:

قال تعالى:

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ

أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥]

يضاف إلى ما ذكرنا أن النبي ﷺ كان يخفى عليه وجه الصواب في بعض ما يعنيه من الشؤون ويهمه من الأمور فكان يتوقف تارة كما توقف في حديث الإفك مدة حتى نزل الوحي ببراءة عائشة زوجه وبنت صديقه. وكان يجتهد ويخطئ تارة أخرى، كما حدث في أسرى بدر على ما سيأتي. فلوكانت هذه الأنباء الغيبية نابعة من نفسه ولم تكن من ربه، لكان الأحرى به أن يعرف وجه الصواب في أمثال تلك الشؤون والمهام، مع أن أسباب العلم فيها أقرب إلى اليسر والسهولة من تلك الغيبيات التي تقطعت أسبابها العادية جملة ومع أن الرسول قد آلمه ما أصابه من جراء عدم علمه بأمثال تلك الشؤون والمهام وإلى ذلك يشير القرآن في قوله:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٨٨]

معجزات يكشف عنها العلم الحديث

يتصل بما ذكرنا من أنباء الغيب، نوع طريف لم يكشف عنه إلا العلم في العصر الحديث. وكان قبل ذلك مخبوءاً في ضمير الزمن، خفياً على المعاصرين لنزول القرآن، حتى صاغ أعداء اللّه من هذا الخفاء شبهة. ولفقوا منه تهمة، وما علموا أن جهلهم لا يصح أن يكون حجة قال تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٣٩]

وإليك أمثلة ثلاثة من هذا النوع:



معجزة يكشف عنها التاريخ الحديث

قال العلامة صاحب مجلة الفتح الغراء: في سورة التوبة نقرأ هذه الآية الكريمة:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ٣٠]

فصدر هذه الآية هو جملة ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ يتضمن وقائع التاريخ وحقائق العلم، سراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن.

ذلك أن اسم عزير، لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واختلاطهم أهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها. واسم عزير هو(أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو(عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين، وقدماء

المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس، كانوا يعتقدون في عوزر أو أوزيرس أنه ابن اللَّه. وكذلك بنوإسرائيل في دور من أدوار حلولهم في مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدة أن أوزيرس ابن اللَّه وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين. وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفراً وضلالاً. فعاب اللَّه عليهم ذلك في القرآن الحكيم، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً.

إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا في وقت من الأوقات أن اسم عزير كان معروفاً عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين وهذا الاسم في لغتهم من مادة (عوزر) وهي تدل على الألوهية، ومعناه الإله المعين وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين في اسم عوزر أو أوزيرس الذي كان عندهم في الدهر الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن اللَّه عقب عبادتهم للشمس. واليهود أخذوا منهم هذا الاسم في الطور الثاني عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن اللَّه.

فهذا سر من أسرار القرآن، لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين في العصر الحديث. وما كان شيء من ذلك معروفاً في الدنيا عند نزول القرآن! حتى إن أعداء الإسلام كان يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الإسلام ويطعنون بها في القرآن، فقال اليهود منهم: إن القرآن يقوِّلنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا. وأتى دعاة النصرانية منهم بما شاء لهم أدبهم من السب والطعن والزراية بالقرآن ودين الإسلام ونبي الإسلام!.



معجزة يكشف عنها الطب الحديث

كتب العلامة المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل (باشا) في مجلة الأزهر الغراء يقول في مقال له تحت عنوان: (**الطب وصيام رمضان**): «من الناس من يتوهم أن صيام رمضان ـ وهو من أركان الإسلام ـ مضرة تلحق بالصائم، لما

يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة؛ ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب. وهذا خطأ؛ لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلوالمعدة النهار كله في وقت الإفطار، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بعض لقيمات لأنه ضرر من الجوع في حد ذاته.

وبما أن الصيام يستعمل طبياً في حالات كثيرة، ووقاية في حالات أكثر. وأن كثيراً من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم، رأيت من الواجب علي أن أكتب عما ظهر طبياً للآن من فوائد هذه الأوامر، وإيضاح آيات قرآنية لأبين معناها الذي لا يظهر إلا لمن بحث عنها في نور الطب الحديث. وسأبدأ بالصيام.

الصيام:

للصيام فوائد في ثلاث جهات: (أولاها) وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم (ثانيها): الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق. ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعوِّدُ الإنسان النظام والقناعة، وطاعة الرؤساء، والصبر وكبح شهوات النفس، وحب الخير والصدقة، وغير ذلك من الفضائل. (وثالثها): وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية، وهي محل بحثنا.

لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى.

فللعلاج يستعمل في:

١ ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية. وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر. وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء.

٢ ـ زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة فالصيام أنجع من كل علاج في تخفيف الوزن وتقليل الشحوم.

٣ ـ زيادة الضغط الذاتي. وهوآخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية. ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله.

٤ ـ البول السكري وهو منتشر انتشار الضغط. ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة الوزن. فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر في العادة بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف. وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير. ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي، ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام.

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم.

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم.

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين وقد شوهدت حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات كثيرة بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث.

ورب سائل يقول: ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء... وهذا صحيح، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض، وخصوصاً المراض التي مر ذكرها تحت رقم ١، ٢، ٣، ٧.

وهذه الأمراض كلها تبتدئ تدريجاً، بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام: بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح. وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل

الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول، السكري، وزيادة الضغط الذاتي للدم، والتهاب المفاصل المزمن، وغير ذلك. ومع قلة الوزن الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها. وهذا هو السر في أن شركات التأمين لا تقبل تأميناً على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن. والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض.

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف فقد انتشرت في أوروبا أكثر من الأول وفي مصر يكاد يكون البول السكري وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وهو قليل جداً في الفقراء.

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة لأن الإسلام ـ وهوآخر الشرائع السماوية ـ جاء في زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف.

٣

معجزة يكشف عنها علم الاجتماع

كتب العلامة مدير مجلة الأزهر الغراء تحت عنوان: (معجزات القرآن العلمية ـ القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة) مقالاً ضافياً نقتطف منه ما يلي:

(لما جاء الإسلام وشرع أهله في إحياء موات العلم ونقل كتبه القيمة إلى لغتهم، نظروا في كل شيء، مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ * وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ فأدركوا على وجه عام أن لكل شيء في هذا الوجود نظاماً يجري عليه كما فعل بعض المؤرخين، وخاصة ابن خلدون. ولكن المعارف التي كانت قد جمعت عن الأمم، لم تكن تكفي لتكوين علم خاص بها. وتلت هذا الدور نهضة أوروبا. فادخر الله هذا السبق للفيلسوف الفرنسي الكبير (أوجست كونت ١٧٩٨ ـ ١٨٥٣م. واضع أصول الفلسفة الوضعية فإنه أول من جعل للاجتماع علماً ووضعه في رأس جميع العلوم البشرية لشرف موضوعه من ناحية، ولأنه لا يتسنى إلا لمن يأخذ من كل علم

بطرف، لتشعب بحوثه، واستنادها على جملة المعارف البشرية.

فعلم الاجتماع البشري أحدث العلوم وضعاً، ولكنه أشرفها موضوعاً، إذ يعرفنا على أي الأصول تقوم الجماعات، وبأيها تحفظ وجودها وترتقي، وما هي عوامل التأليف التي تقوي وجودها؟ وعوامل التحليل التي تقصم عرى ألفتها؟ وهذه كلها معارف عالية ضرورية للمجتمع ضرورة علمي قوانين الصحة والطب لآحاده.

ثم ذكر من قواعد علم الاجتماع أن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر في المجتمع لمجرد رأي يبدوله في إصلاحه. ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة سداد هذا الرأي وعملوا به. عند ذاك يوجد في المجتمع ميل جديد للتحول عن الجهة التي يراد تحويله منها، إلى الوجهة التي يريده على أن يكون عليها. وهذا كله مصداق لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فمعنى الآية أن الأمة التي تريد أن يحول اللّه عنها حالاً لا ترضاه لمجتمعها، عليها أن تغير من نفسيتها أولاً فإن فعلت حول اللّه عنها ما تكره، ووجه إليها من نعمه ما تحب. وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يعقد لها فصل خاص، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة! فكشف هذا السر يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ـ وبعد أن ساق أدلة من الكتاب والسنة على ذلك قال:

القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلاً وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس والتحسس مما خفي هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع. فقال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٣٨]

وقال تعالى:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

[سورة فاطر، الآية: ٤٣]

ولم يكتف الكتاب بهذا وحده. ولكنه قرر أيضاً أن الجماعات كالآحاد، لها آجال لا تستطيع أن تتعداها. وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه الشبه بين الفرد والمجتمع واحدة فقال تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٣٤]

وقد تكرر مثلها في سور كثيرة من القرآن الكريم.

فالذي يتأمل في سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون في وضع أصول العلم الاجتماعي، ويكون من غير أهل هذا الدين، يدهش كل الدهش، ولا يكاد يصدق عينيه، وسندأب من جهتنا على تجلية الأصول العلمية مستخرجين إياها من الكتاب الكريم، ليتحقق العالم أنه على ما يقوله موحيه سبحانه وتعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٣٨]

وبذلك يتضح سر نهضة المسلمين التي حصلت لهم زعامة العلم والحكمة في العالم في سنين معدودة، فإنهم لوكانوا بدأوا حياتهم العلمية على النحوالذي تبدأها به كل أمة، ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التي تقدمتهم في هذا السبيل بقرون كثيرة. ولكنهم لبدئهم إياها مستنيرين بهذه الأصول القرآنية العالية، بلغوا منها أوجاً في مدى قصير لم تبلغه أمة في آماد طويلة. وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل، وأن يجعلوا كتابهم نبراساً لهم في اقتباسهم عن الأمم الغربية، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم في عهدهم الأول، ويزيدوا عليه ما هدى إليه البشر في العصور الأخيرة.

من وجوه الإعجاز

نزول القرآن بعد انتظار

ومعنى هذا أن القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار. فدل هذا على أن القرآن كلام اللّه لا كلام رسول اللّه محمد ﷺ، لأنه لوكان كلام رسول اللّه محمد ﷺ ما كان معنى لهذا الانتظار فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق، خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل يتحدى العالم كله!.

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة خمسة:

(أولها):

حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، نزل فيه قول اللّه ﷻ

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٤٤]

فأنت تفهم معي من هذه الآية أن رسول اللّه محمد ﷺ كان يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، ومن أجل ذلك كان يقلب وجهه في السماء تلهفاً إلى نزول الوحي بهذا التحويل. ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة وهو يستقبل بيت المقدس، فلوكان القرآن من وضعه لنفَّس عن نفسه وأسعفها بهذا الذي تهفوإليه نفسه ويصبوإليه قومه لأن الكعبة في نظرهم، هي مفخرتهم ومفخرة آبائهم من قبلهم.

(ثانيها):

حادث الإفك، وهو من أخطر الأحداث وأشنعها، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوماً. على حين أنه يتصل بعرض رسول اللّه ﷺ وعرض صديقه الأول أبي بكر. وقام على اتهام أم المؤمنين

عائشة بنت الصديق ورميها بأقذر العار وهو عار الزنى. فلوكان القرآن كلام رسول اللّه محمد ﷺ ما بخل على نفسه بتلك الآيات التي تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة؛ ولما انتظر يوماً واحداً في القضاء على هذه الوشايات الحقيرة التي تولى كبرها أعداء اللّه المنافقون. اقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ في سورة النور ثم حدثني بعد قراءتها: ألم يكن الواجب على رسول اللّه محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لوكان الأمر إليه، خصوصاً أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولوبالنفس. ثم أخبرني: ألا ترى فارقاً كبيراً بين هذه اللغة الجريئة القاطعة، المنذرة والمبشرة، التي صيغت بها آيات البراءة، وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التي رويت عنه في هذه الحادثة؟. إن كنت في شك فأمامك آيات البراءة وهاك كلمتين مما أثر عنه في هذا الأمر الجلل: ورد أنه حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر: (**إني لا أعلم إلا خيراً**) وورد أنه قال قبيل الساعة التي نزلت فيها آيات البراءة: (**يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك اللّه وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللّه**).

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟

دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتميزتين في الكلامين، تميز السيد من المسود، والعابد من المعبود!

(ثالثها):

ما ورد من أن النبي ﷺ سئل عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. فقال لسائليه: (ائتوني غداً أخبركم) ولم يقل: إن شاء اللّه فأبطأ عليه الوحي حتى شق ذلك عليه وكذبته قريش وقالوا: ودَّعه ربه وقلاه أي تركه ربه وأبغضه، فأنزل اللّه سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

[سورة الضحى، الآيات: ١ ـ ٣]

ثم نهاه مولاه أن يترك المشيئة مرة أخرى! إذ قال له في سورة الكهف:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

[سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤]

ولما نزل جبريل بعد هذا الإبطاء والتمهل قال له ما حكاه اللّه عنه في سورة مريم:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

[سورة مريم، الآية: ٦٤]

يعني أن عدم الإسراع بالنزول لم يكن سببه إعراض اللّه عنه كما يزعمون. بل كان لعدم الإذن له به لحكم بالغة، وحسبك أن يستدل المنصف بهذا الإبطاء والتراخي على أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم لا كلام النبي الكريم ﷺ.

(رابعها):

ما ورد من أنه لما نزل قوله سبحانه وتعالى:

قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٤]

انخلعت قلوب الصحابة وذعروا ذعراً شديداً؛ لأنهم فهموا من هذه الآية أن اللّه سبحانه وتعالى سيحاسبهم على كل ما يجول بخاطرهم، ولوكانت خواطر رديئة، ثم سألوا فقالوا: يا رسول اللّه، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي ﷺ: **(أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؛ بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصْيرُ)** فجعلوا يقولونها ويضرعون إلى اللّه بها حتى أنزل ـ تقدست أسماؤه ـ الآية الأخيرة من سورة البقرة وهي:

قال تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]

فسكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وفهموا أنهم لا يحاسبون إلا على ما يقع تحت اختيارهم وفي دائرة طاقتهم من نية وعزم وقول وعمل. أما خلجات الضمائر العابرة، وخطرات السوء ولوكانت كافرة. فلا يتعلق بها تكليف، لأنها ليست في مقدور العبد، والقرآن يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾.

فأنت ترى أن النبي ﷺ لم يبين لهم هذا البيان حين سألوه، لأنه لم يوحَ وقتئذ إليه. ولوكان وحي نفسه كما يقول الأفاكون لأسعف أصحابه بالآية الأخيرة، وأنقذهم من هول هذا الخوف الذي أكل قلوبهم لا سيما أنهم أصحابه وهو نبيهم، ومن خلقه الرحمة خصوصاً بهم ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. وأيضاً لوكان يملك هذا الكلام لعاجلهم بالبيان، وإلا كان كاتماً للعلم: (وكاتم العلم ملعون فأين يذهبون؟).

(خامسها):

ورد أن كبير المنافقين عبد اللّه بن أبي لما توفي، قام إليه النبي ﷺ فكفنه في ثوبه وأراد أن يستغفر له، فقال له عمر: أتستغفر له وتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيرني ربي فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ وسأزيده على السبعين، ثم صلى عليه. فأنزل اللّه سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فترك الصلاة عليهم.

اقرأ الرواية بتمامها في الصحيحين، ثم نبئني: هل يعقل أن يكون القرآن كلام محمد ﷺ مع ما ترى من أنه فهم في الآية الأولى غير ما فهم

عمر ثم جاءت الآية الثانية صارفة للرسول ﷺ عن فهمه ومؤيدة لعمر رضي اللّه عنه؟ أفما كان الأجدر به لوكان القرآن كلامه أن يكون هو أدرى الناس بمراده منه وأعرفهم بحقيقة المقصود من ألفاظه، وأن يجيء آخر الكلام مؤيداً لما فهمه هولا لما فهمه غيره؟ لكن الواقع غير ذلك، فقد سبق إلى فهمه ﷺ أن كلمة (أو) في الآية الأولى للتخيير، وفهم عمر أنها للمساواة وفهم الرسول ﷺ أن المراد بكلمة (سبعين) حقيقة العدد المعروف في العشرات بين الستين والثمانين وفهم عمر أنها للمبالغة لا للتحديد فلا مفهوم لها. ولما كان ما فهمه الرسول ﷺ جارياً على أصل الوضع في معنى (أو) وفي معنى (سبعين مرة) شك برأيه، خصوصاً أن فيه رحمة برجل من الناس وإن كان منافقاً، وكان ﷺ مطبوعاً على الرحمة قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧]

من وجوه الإعجاز

مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه

وبيان ذلك أن النبي ﷺ كان في أول عهده بالوحي، يتعجل في تلقفه، ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل. وكان ﷺ يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزول الوحي عليه، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره، وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط.

روى مسلم (أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه الشريف) فاقتضت رحمة اللّه بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة:

قال تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

[سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩]

وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن اللّه قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره، وأن يقرأه على الناس كاملاً لا ينقص كلمة ولا حرفاً، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه. وكذلك قال اللّه سبحانه وتعالى في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وقال له مرة ثالثة في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

ألا ترى في هذا كله نوراً يهدي إلى أن القرآن كلام اللّه وحده، ومحال أن يكون كلام محمد، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في

نزول القرآن عليه، ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه، ولما كان ثمة من داع إلى أن يطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه!.

شبهة القول بالصرفة

الرد على من ادَّعى أن وجه إعجاز القرآن اللغوي والبياني والتشريعي أن اللّه سبحانه صرف العرب عن معارضته ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة أي صرف اللّه العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية، وضربوا لذلك مثلاً فقالوا: إن الإنسان كثيراً ما يترك عملاً هو من جنس أفعاله الاختيارية ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته وثبط عزيمته وإما لأن حادثاً مفاجئاً لا قبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله وعاق قدرته قهراً عنه، على رغم انبعاث همته نحوه وتوجه إرادته إليه. فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسموإليه قدرة البشر عادة، بل لواحد من ثلاثة:

(أولها):

أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم.

(ثانيها):

أن صارفاً إلٰهياً زهدهم في المعارضة فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي.

(ثالثها):

أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها.

بهذا التوجيه ونحوه يعزى القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفراييني من أهل السنة والنظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة. وأنت إذا تأملت

هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها أو التمست لهم، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجئ من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم. بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولوأنهم حاولوها لنالوها. وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنها لم يكن بسبب خارجي عن القرآن، وهو وجود مانع منعهم منها قهراً. ذلك المانع هو رعاية اللّه لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين. ولوأن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله، لأنه لا يعلوعلى مستواهم في بلاغته ونظمه.

تفنيد هذا القول:

وهذا القول بفروضه التي افترضوها، أو بشبهاته التي تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع.

(أما الفرض الأول): فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت ماثلة متآخذة وذلك لأدلة كثيرة.

(منها): أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولوبمثل أقصر سورة منه؛ ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولوظاهرهم الإنس والجن. فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولوكانوا أجبن خلق اللّه؟.

(ومنها): أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم. فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز؟

(ومنها): أن القرآن أثار حفائظهم وسفه عقولهم وعقول آبائهم، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك. فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع؟

(ومنها): أن القرآن أقام حرباً شعواء على أعز شيء لديهم وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا؟ مادامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لواستطاعوا.

(وأما الفرض الثاني): فينقضه الواقع التاريخي أيضاً. ودليلنا على هذا

ما تواترت به الأنباء، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم، ونالت منالها من عزائمهم. فهبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف الوسائل؛ فلم يتركوا طريقاً إلا سلكوه، ولم يدعوا باباً إلا دخلوه.

لقد آذوه ﷺ وآذوا أصحابه، فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا.

ولقد طلبوا إلى عمه أبي طالب أن يكفه، وإلا نازلوه وإياه.

ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر.

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة وعرضوا عليه عروض سخية مغرية، منها أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالاً، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمراً دونه، وأن يتوجوه ملكاً عليهم إن كان يريد ملكاً، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن. كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به. ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم، فيعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلٰهه سنة. فأبى أيضاً.

ونزل قول اللّه:

﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٤]

كذلك نزلت سورة الكافرون:

قال تعالى:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾.

[سورة الكافرون، الآيات: ١ ـ ٦]

ولقد صادروه وصادروا أصحابه في عبادتهم، وانبعث شقي منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلي. وخنقه طاغية من طواغيتهم لولا أن جاء أبوبكر فدفعه وقال ـ كما حكى القرآن ذلك على لسانه ـ:

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾.

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر، وأخرى بالشعر، وثالثة بالجنون، ورابعة بالكهانة. وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم، فيبهتونه ويكذبونه أمام من لا يعرفونه. ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فراراً إلى اللّه بدينهم.

ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، لولا أن حفظه اللّه وحماه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم.

ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجره، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة، منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية.

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبي القرآن، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل زاهدين في النزول إلى هذا الميدان؟.

وهل يصح مع هذا كله أن يقال: إنهم كانوا في تشاغل عن القرآن غير معنيين به لا آبهين له؟.

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم، فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات؟ مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة، ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به! أليس ذلك دليلاً مادياً على أن قعودهم عن معارضة القرآن، ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن؟ وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف؟!

وقد يظن جاهل أن حماستهم في خصومتهم هذه، ليس مبعثها شعورهم بقوة القرآن وإعجازه، وإنما مبعثها بغضهم لرسول اللّه محمد ﷺ وأصحابه. ولكن هذا الظن يكذبه ما هو مقرر تاريخياً، وثابت ثبوتاً قطعياً،

من أن رسول اللَّه محمداً ﷺ وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء عداوة قبل نزول القرآن، بل كانوا أمة واحدة، وكان الرسول وأصحابه من أحب الناس إليهم لدماثة أخلاقهم. وللرحم الماسة التي بينهم.

وقد يظن آخر أن حماسة قريش في خصومتهم للنبي ﷺ وأتباعه، إنما كان مبعثها مجرد المخالفة في الدين، بقطع النظر عن إعجاز هذا القرآن الكريم. وهذا ظن خاطئ أيضاً لأمرين: أحدهما أنه كان بين المشركين في جزيرة العرب يهود وأهل كتاب يخالفونهم في الدين، فما أرّث ذلك بينهم حرباً ولا أوقد لخصومهم ناراً، على مثل ما كان بينهم وبين رسول اللَّه محمد ﷺ. والآخر أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء وفحول الشعراء، كأمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، فما كان هذا ليثير حفائظهم ولا ليوقفهم موقف الخصومة منهم. بل رضوا بتحنفهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم، وزادوا على ذلك أن سجلوا كلامهم في التوحيد وشعرهم في التنزيه والتمجيد، لأنهم لم يجدوا في هذا المنظوم والمنثور مثل ما وجدوا في القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع. ذلك الكتاب الذي جاءهم من فوقهم، وكان له شأن غير شأنهم ورأوا فيه من مسحة الألوهية ما جعله روحاً من أمر اللَّه يتحرك به كل من سمع صوته، ويهتز له كل من شام برقه، ولا سبيل إلى وقف تياره وأثره، إلا بالوقوف في وجهه والحيلولة بين الناس وبينه. روى أبوداود والترمذي أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي)

فتأمل كلمة **(أن أبلغ كلام ربي)** ولم يقل منعوني أن أتلوأو أعمل في نفسي بكلام ربي، لأن التلاوة والعمل من غير استعلان بالقرآن ونشر له، كان لا يؤثر على قريش كثيراً إنما الذي كان يحز في نفوسهم ويقض عليهم مضاجعهم، هو نشر هذا النور الذي يكاد يخطف الأبصار، وإعلان هذا الكتاب الذي يجذب القلوب والأفكار. وكان من تأثيره وفتحه وغزوه للنفوس ما ألمحنا إليه في إسلام عمر وسعد وأسيد!

(وأما الفرض الثالث): فينقصه ما هو معروف أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعاً بإعجازه وعجزهم الفطري عن مساجلته.

ولوأن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها ففوجئوا بما ليس في حسبانهم؛ ولكان ذلك مثار إعجاب لهم. ولأعلنوا ذلك في الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن يغضون من مقام القرآن وإعجازهم، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يتبنوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن. وكل هذه اللوازم باطلة؟ فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة بناء على الشبهة الهازلة.

ثم ألم يكف هؤلاء شهادة أعداء القرآن أنفسهم في أوقات تخليهم من عنادهم، كتلك الشهادة التي خرجت من فم الوليد (والفضل ما شهدت به الأعداء)؟.

ثم ألم يكفهم ما في القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التي دللنا عليها فيما سبق؟ والتي لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تزيدها الأيام وما يجد في العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحاً وبياناً؟!.

إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن!.

على أنني أشك كثيراً في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ويبدولي أن الطعن في نسبتها إليهم، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم؛ أقرب إلى العقول، وأقوى في الدليل، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى، قرينتان مانعتان من صحة عزوهذا الرأي الآثم إليهم.

ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء، فلم لا يكون هذا منه؟

على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال. وها قد طاش هذا الرأي في الميزان، فلنرده على قائله أيا كان.

(وليس كل خلافٍ جاء معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظر)

وأحب أن نلتفت إلى أن هذه الشبهة قد أثارها أعداء الإسلام فيما أثاروا وصوبوا منها سهماً طائشاً إلى القرآن وإعجازه. فلنكتف بنقضنا لها هنا عن إعادتها بين ما سنذكره في دفع الشبهات هناك إن شاء اللّه.

دفع الشبهات الواردة في هذا المقام:

لقد كان ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الأربعة عشر، كافياً للقضاء على كل شبهة، ولرد كل فرية ومحوكل تهمة. لولا أن المخذولين من أعداء الإسلام وجدوا آذاناً صاغية من نفوس عزيزة علينا، وفئات متعلمة تعلماً مدنياً فتأثروا بدجلهم، ثم رضوا أن يكونوا أبواقاً لهم، يرددون شبهاتهم، على تلاميذنا في الجامعات والمدارس، ويطلقون بخورهم على جماهيرنا في المطبوعات والأندية والمجالس. لهذا كان واجبنا أن نحشد قوانا لتطهير الجوالإسلامي من هذه الجراثيم الفتاكة والمطاعن الجارحة الهدامة، وألا نكتفي عند المناسبة بذكر أحد المتلازمين عن الآخر، اللّهم إلا إذا كان الأمر ظاهراً لا يحتاج إلى تنبيه أما عند الحاجة فقد نكرر ما سبق لنا ذكره. ولكن بمقدار الحاجة من غير إكثار [١].

الشبهة الأولى ودفعها:

يقولون: إن رسول اللّه محمداً ﷺ لقي بحيرا الراهب فأخذ عنه وتعلم منه. وما تلك المعارف التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم.

وندفع هذا **(أولاً)**: بأنها دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه رسول اللّه محمد من بحيرا الراهب؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟.

(ثانياً): إن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في تجارة مرتين، مرة في طفولته ومرة في شبابه. ولم يسافر غير هاتين المرتين، ولم يجاوز سوق بصرى فيهما. ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئاً من الدين.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

ولم يك أمره سراً هناك بل كان معه شاهد في المرة الأولى وهو عمه أبوطالب، وشاهد في الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذ. وكل ما هنالك أن بحيرا الراهب رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس، فذكر لعمه أنه سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره عليه من اليهود. وقد رجع به عمه خوفاً عليه ولم يتم رحلته. كذلك روي هذا الحادث من طرق في بعض أسانيدها ضعف. ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحَيرا. وليس في شيء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه درساً واحداً أو كلمة واحدة، لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق. فأنى يؤفكون؟.

(ثالثاً): إن تلك الروايات التاريخية نفسها تحول أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لرسول اللّه ﷺ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذي سيأخذ عن اللّه، ويتلقى من جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين، وهادي الهداة والمرشدين! وإلا كان هذا الراهب متناقضاً مع نفسه.

(رابعاً): إن بحَيرا الراهب لوكان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز، لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم.

(خامساً): إنه يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقاً راهباً من الرهبان مرتين. على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلاً عن التعليم بالتجارة، وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وكان صغيراً تابعاً لعمه في المرة الأولى، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة عنيفة لا بد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية؛ وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارتها.

(سادساً): إن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرا، تأبى أن تكون مصدراً للقرآن وهداياته. خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف.

وحسبك أدلة على ذلك ما أقمناه من المقارنات السابقة بين تعاليم

القرآن وتعاليم غيره. وما قررناه من الوفاء في تعاليم القرآن دون غيره، وما أشرنا إليه من أن القرآن قد صور علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات التي تصدى لتصحيحها وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها. وصور أعمالهم بأنها المخازي والمنكرات ثم حض على تركها. ثم تذكر أن فاقد الشيء لا يعطيه وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدراً للصواب، وأن الظلام لا يمكن أن يكون مشرقاً للنور.

(سابعاً) إن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة: يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل. فإذا كانوا صادقين فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم أن يقرأوه ولومرة واحدة بتعقل ونصفة، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في عصره؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة، بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة! إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هذا الضلال والزيغ، ومن ذلك الخبط والخلط. هدانا اللّه وهداهم اللّه فإن الهدى هداه. قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

[سورة النور، الآية: ٤٠]

(ثامناً): إن هذه التهمة لوكان لها نصيب من الصحة لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول اللّه ﷺ، وكانوا أحرص على تبهيمه وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة لكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء الملاحدة فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره ولم يفكروا أن يقولوا أنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء، لأن العقل لا يصدق ذلك والهزل لا يسعه. بل لجأوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرفتها، فقالوا إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حداداً رومياً منهمكاً بين مطرقته وسندانه، ضالاً طول يومه في خبث الحديد وناره ودخانه، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد الاتصال الدائم الوثيق به، والتلقي عنه. والآخر. أنه غريب عنهم وليس منهم، ليخيلوا إلى قومه أن عند هذا الرجل

علم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد. وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعاً يدل عليه، لأن هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية، فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية. قال تعالى:

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٠٣]

الشبهة الثانية ودفعها:

يقولون: نحن لا نشك في صدق رسول اللّه محمد ﷺ في إخباره عما رأى وسمع. ولكنا نعتقد أن نفسه منبع هذه الأخبار، لأنه لم يثبت علمياً أن هناك غيباً وراء المادة يصح أن يتنزل منه قرآن أو يفيض عليه علم أو يأتي منه دين. ثم ضربوا لذلك مثلاً فقالوا: إن الفتاة الفرنسية (جان دارك) الناشئة في القرن الخامس عشر الميلادي، قد حدث التاريخ عنها أنها اعتقدت ـ وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية ـ أنها مرسلة من عند اللّه لإنقاذ وطنها ودفع العدوعنه، واعتقدت أنها تسمع صوت الوحي الإلٰهي يحضها على القتال والجهاد. وانطلقت تحت هذا التأثير فجردت حملة على أعداء وطنها وقادت الجيش بنفسها فقهرتهم ثم دارت الدائرة فوقعت أسيرة وماتت ميتة الأبطال في ميدان النزال ولا يزال ذكرها يتلألأ نوراً ويعبق أريجاً، حتى لقد قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن.

وندفع هذه الشبهة بأمور:

(أولها): تلك الأدلة العلمية التي أقمناها هناك على إثبات الوحي الإلٰهي الحقيقي لا الوحي النفسي الخيالي، مع دفع الشبهات الواردة عليه. (بالمبحث الثالث من الكتاب).

(ثانيها): هذه الأدلة الأربعة عشر التي أقمناها وجوهاً لإعجاز القرآن الكريم في هذا المبحث؛ ففي كل وجه منها دفع كاف لهذه الشبهة عند

التأمل والإنصاف، لأن الإنسان محدود القوى والمواهب، فلا يستطيع أن يخرق النواميس الكونية العادية. وما ذكرناه من وجوه إعجاز القرآن فيه أربعة عشر دليلاً على خرق القرآن للنواميس الكونية المعتادة. وخرقها لا يملكه إلا من قهر الكون ونواميسه، وكان له السلطان المطلق على العالم وما فيه، وهو اللّه وحده لا رسول اللّه محمد ﷺ ولا غير رسول اللّه محمد ﷺ لا بالعقل الباطن ولا الظاهر، لا بالوحي النفسي ولا الانفعال العصبي.

(ثالثها): إن الدارس لتاريخ هذه الفتاة يعلم أن أعصابها كانت ثائرة لتلك الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا، والتي كانت تراها وتسمعها كل يوم بين أهلها وفي بلدها (جوارد ورمى) مع ما شاع في عهدها من خرافات كان لها أثرها في نفسها وعقلها ومخها. من تلك الخرافات أن فتاة عذراء ستبعث في هذا الزمن تخلص فرنسا من عدوها. يضاف إلى هذا أن الفتاة كانت بعيدة الخيال تسبح فيه يقظة ومناماً، وتتوهم منذ حداثتها بأنها ترى وتسمع ما لم تر ولم تسمع حتى خيل إليها أنها دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها. ولما تعدى البرغنيور على قريتها التي ولدت فيها قوي عندها هذا الخيال حتى صار عقيدة إلى غير ذلك مما يدل على أن الفتاة كانت أعصابها متهيجة تهيجاً ناشئاً عن تألمها من الحال السياسية السيئة في بلادها، وعن تأثرها بالاعتقادات الخرافية التي سادت زمنها.

وليس هذا بدعاً، فكم رأينا وسمعنا أصحاب دعايات عريضة يعتمدون فيها على مثل هذه الخيالات الباطلة، كغلام أحمد القادياني والباب البهائي اللذين أقام كل منها نحلته الباطلة على أوهام فارغة.

لكن رسول اللّه محمد ﷺ لم يك عصبياً ثائراً مهتاجاً. بل كان وقوراً متزن العقل ثابت الفؤاد قوي الأعصاب. يثور الشجعان من حوله وهو لا يثور، ويشطح الناس ويسرفون في الخيال وهو واقف مع الحجة يكره الشطح والإسراف في الخيال؛ بل يحارب الإسراف في الخيال وما

يستلزمه، ويرد هؤلاء المسرفين إلى حظيرة الحقائق ويحاكمهم إلى العقل. ألم تر إلى القرآن كيف يذم الشعراء الذين يركبون مطايا الخيال إلى حد الغواية ويقول:

قال تعالى:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

[سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]

وانظر كيف ينفي القرآن أنه شعر وأن الرسول شاعر فيقول:

قال تعالى:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٦٩ ـ ٧٠]

وتأمل ما جاء في صحيح مسلم وغيره من أنه ﷺ أبى على عائشة أم المؤمنين أن تقول في شأن صبي من الأنصار جيء به ميتاً ليصلى عليه: طوبى لهذا لم يعمل شراً. فقال ﷺ:

(أو غير ذلك يا عائشة؟ إن اللَّه خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم. وخلق النار وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم)

رواه أبي داود

مع أن أطفال المسلمين يعلم أنهم في الجنة، لكن توقف الرسول وإباءه على عائشة أن تقول هذا، كان قبل أن يعلمه اللَّه ذلك. فلم يسمح لها أن تسير مع الوهم أو الظن ما دام الأمر غيباً ولا يعلم الغيب إلا اللَّه.

وتدبر ما رواه البخاري من أنه لما توفي عثمان بن مظغون رضي اللَّه عنه قالت أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ رحمة اللَّه عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه فقال ﷺ: **(وما يدريك أن اللَّه أكرمه)**؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول اللَّه فمن يكرمه اللَّه؟ قال **(أما هو فقد جاءه**

اليقين. والله إني لأرجوله الخير. والله ما أدري وأنا رسول ما يفعل بي).
قالت فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً وكذلك يقول القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٩]

فهل يعقل أن يقاس صاحب هذه الدقة البالغة والتثبت الدقيق بفتاة خفيفة سابحة في بحر أوهامها غريقة في أحلامها؟!

(رابعها): أن تلك الفتاة: جان دارك، لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التي تزعمها وحياً وحديثاً من الله إليها. لكن رسول الله محمد ﷺ له وعلى وحيه الذي يدعيه ألف دليل ودليل، كما سبق بيانه. فأين الثرى من الثريا؟ وأين الظلام من النور؟.

(خامسها): أن هذه الفتاة الهائجة الثائرة لم تكن صاحبة دعوة إلى إصلاح ولا ذات أثر في التاريخ. إنما كانت سيف ومسعرة حرب في فترة من الزمن، لغرض مشترك بين الإنسان والحيوان وهو الدفاع عن النفس والوطن بمقتضى غريزة حب البقاء؛ ثم لم تلبث جذوتها أن بردت، وحماستها أن خمدت.

(كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر)

فأين هذه الآنسة الثائرة من أفضل الخلق في دعوته الكبرى، وأثره الخالد في إصلاح الأديان البشرية وشرائعهم وأعمالهم وأخلاقهم، في إنقاذ الإنسانية العانية وتجديد دمها بدينه الجديد الذي قلب به أوضاع الدنيا، ونقل بسببه العالم إلى طور سعيد، بل إلى الطور السعيد الذي لولاه لدام يتخبط في الظلمات، ولبات في عداد الأموات!؟

قال تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى

ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ١٢٢]

الشبهة الثالثة ودفعها:

يقولون: إنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل فيأخذ عنه ويسمع منه، وورقة لا يبخل عليه لأنه قريب لخديجة زوج رسول اللَّه محمد ﷺ. يريدون بهذا أن يوهموا قراءهم وسامعيهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصراني الكبير الذي يجيد العبرية ويقرأ بها ما شاء اللَّه.

وندفع هذه الشبهة بمثل ما دفعنا به ما قبلها. ونقرر أنه لا دليل عندهم على هذا الذي يتوهمونه ويوهمون به الناس، بل الدليل قائم عليهم فإن الروايات الصحيحة تثبت أن خديجة ذهبت بالنبي ﷺ حين بدء الوحي إلى ورقة، ولما قص الرسول ﷺ قصصه قال: هذا هو الناموس الذي أنزل اللَّه على موسى. ثم تمنى أن يكون شاباً فيه حياة وقوة ينصر بهما الرسول ويؤازره حين يخرجه قومه. ولم تذكر هذه الروايات الصحيحة أنه ألقى إلى الرسول عظة أو درساً في العقائد أو التشريع ولا أن الرسول ﷺ كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون. فأنى لهم ما يقولون؟ وأي منصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذاً لرسول اللَّه محمد ﷺ، وجندياً مخلصاً في صفه ينصره ويدافع عنه في وقت المحنة؟ ولكن القوم ركبوا رؤوسهم على رغم ذلك، وحاولوا قلب الأوضاع وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصي الذي استقى منه رسول اللَّه محمد ﷺ دينه وقرآنه: ألا ساء ما يحكمون؟.

الشبهة الرابعة ودفعها:

يقولون: إن إعجاز القرآن للبشر أن يأتوا بمثله، لا يدل على قدسيته وأنه كلام اللَّه. وشاهد ذلك أن لكل متأدب أسلوباً خاصاً به يتبع استعداده الأدبي ومزاجه الشخصي. وهذا الأسلوب الخاص يستحيل على غيره أن يأتي بمثله بضرورة اختلاف مذاهب المتأدبين وأمزجتهم. ومع هذا فإعجاز كل أسلوب لغير صاحبه، وعجز كل متأدب عن الإتيان بأسلوب غيره، لم

يضف على الأساليب البشرية شيئاً من القدسية وأنها كلام اللّه. فكذلك القرآن يزعمون أنه كلام رسول اللّه محمد ﷺ ويعترفون بإعجازه على هذا النحو.

وندفع هذه الشبهة **(أولاً)** بوجوه الإعجاز التي بسطناها سابقاً غير وجه الإعجاز بالأسلوب.

(ثانياً): إن هذه الشبهة مغالطة، فإن التحدي بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بنفس صورته الكلامية ومنهاجه المعين الذي انفرد به أسلوبه، حتى تردَّ هذه الشبهة. بل معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بكلام من عندهم أيا كانت صورته ومزاجه، وأيا كان نمطه ومنهاجه، ولكن على شرط ألا يطيش في الميزان، إذا قيس هو والقرآن بمقياس واحد من البيان، بل يظهر أنه يماثله أو يقاربه في خصائصه، وإن كان على صورة بيانية غير صورته. هذا هو ما يتحداهم به الرسول، وهو القدر الذي يتنافس فيه البلغاء عادة فيتماثلون أو يتفاضلون، مع احتفاظ كل منهم بمنهاجه الخاص ونمطه المعين.

ومثال ذلك أن يتبارى قوم في العدووالجري إلى هدف واحد، ويُرسم لكل واحد من هؤلاء المتبارين طريق معين بحيث لا يمشي أحدهم من طريق صاحبه، ولا يضع قدمه في موضع قدم أخيه. بل يمشي في طريقه هو غير مزاحِم ولا مزاحَم، ويسير موازياً لقرنه في المبدأ وفي الاتجاه، ثم يمضون جميعاً إلى الهدف المشترك الذي إليه يتسابقون، وإذ هم بعد ذلك بين سابق مبرز، ولاحق متخلف، ومساومتكافىء. دون أن يكون اختلاف طرقهم قادحاً فيما يكون بينهم من هذا التفاضل أو التماثل. بل يعرف التناسب بينهم بمعرفة نسبة ما قطعه كل من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك. . . . كذلك المتنافسون في ميدان البيان، يختار كل منهم طريقته التي يستمدها من مزاجه الشخصي واستعداده الخاص للوصول إلى الغاية البيانية العامة. ثم هم بعد ذلك يتفاوتون أو يتعادلون، بمقدار وفائهم بخصائص البيان أو نقصهم منها، فالمدعوون إلى معارضة القرآن إن افترضتهم أكفاء لنبي القرآن فسيأتون بمثل ما جاء به، وإن افترضتهم أعلى منه كعباً فسيأتون بأحسن مما جاء به. وإن افترضتهم دونه فلن يشق عليهم أن يأتوا بقريب مما جاء به، مع احتفاظ كل منهم بنمطه في الكلام ومنهجه في البيان لكن شيئاً من هذه المراتب الثلاث لم يكن. فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن ولا بما

يعلوه ولا بما يقرب منه، لا بالنسبة إليه كله، ولا بالنسبة لعشر سور، ولا بالنسبة لسورة واحدة من مثله، لا منفردين ولا مجتمعين ولوكان معهم الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أئمة البيان ونقدة الكلام. وكانوا أهل إباء وضيم يحرصون على الغلبة في هذه الحلبة من معارضة القرآن.

أليس ذلك بدليل كاف على أن هذا الكتاب تنزيل العزيز الرحيم ولا يمكن أن يكون كلام رسول اللّه محمد ﷺ ولا غيره من المخلوقين؟!

الشبهة الخامسة ودفعها:

يقولون: إن عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن، ما هو إلا نظير عجزهم عن الإتيان بمثل الكلام النبوي **وإذاً فلا يتجه القول بقدسية القرآن وأنه كلام اللّه، كما لا يتجه القول بقدسية الحديث النبوي وأنه كلام اللّه!**.

وندفع هذه الشبهة (أولاً) بأن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد خاصتهم عن الإتيان ولوبمقدار سطر واحد منه. وإذا عجز أحد هؤلاء الممتازين عن مقدار سطر واحد منه نفسه، فلن يعجز عن مقدار سطر واحد من مماثلة القريب منه. وإن عجز أن يأتي بسطر من هذا المثل وهو وحده، فلن يعجز عنه إذا انضم إليه ظهير ومعين أيا كان ذلك الظهير والمعين. وإن عجز عن هذا مع الظهير والمعين أيا كان، فلن يعجز الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال القرآن.

ذلك شأن الحديث النبوي مع معارضيه. أما القرآن الكريم فله شأن آخر، لأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل أقصر سورة منه لا هو وحده ولا مع غيره ولواجتمع من بأطرافها من الثقلين.

وإنما قلنا إن الحديث النبوي لا يعجز بعض الخواص الممتازين أن يأتي بمثله، لأن التفاوت بين الرسول وبلغاء العرب مما يتفق مثله في مجاري العادة بين بعض الناس وبعض في حدود الطاقة البشرية، كالتفاوت بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح والحسن والأحسن. وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للنواميس العادية جملة، بحيث تنقطع الصلة بين الرسول وسائر البلغاء جميعاً، لاختصاصه من بينهم

بفطرة شاذة لا تمت إلى سائر الفطر بنسب كما ينتسب النقيض إلى النقيض والضد إلى الضد كلا بل إن هذا القول باطل من وجهين:

(أحدهما) أنه يخالف المعقول والمشاهد، لما هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة، ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه والتماثل، في شيء أو أشياء، في واحد أو أكثر، في زمن قريب أو أزمنة متطاولة، في كل فنون الكلام أو في بعض فنونه. **(والآخر)** أنه يخالف المنقول في الكتاب والسنة، من أن البشرية قدر مشترك بين الرسول ﷺ وجميع آحاد الأمة. ولا ريب أن هذه البشرية المشتركة وجه شبه يؤدي لا محالة إلى المماثلة بين كلامه وكلام من تجمعهم رابطة أو روابط خاصة على نحوما قررنا. أليس الله يقول:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٩٣]

ويقول:

﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ١١٠]

ثم أليس رسول الله ﷺ يقول في الحديث الآنف:

(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ) ألخ.

ويقول لرجل رآه فامتلأ منه فرقا ورعباً:

(هون عليك فإني لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)!

(ثانياً): إننا نجد تشابهاً بين كلام النبوة وكلام بعض الخواص من الصحابة والتابعين، حتى لقد نسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: أهو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ؟ أم موقوف عند الصحابي؟ أم مقطوع عند التابعي؟ إلى أن يرشدنا السند إلى عين قائله.

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيراً كلما كان صاحب البيان

المشابه تصله بالرسول ﷺ صلات قوية، كتلك الصلات أو العوامل المتآخذة التي توافرت في علي بن أبي طالب، حتى مسحت بيانه مسحة نبوية، وجعلت نفسه في الكلام من أشبه الأنفاس بكلام رسول اللّه ﷺ إن لم يكن أشبهها.

أما القرآن الكريم وما أدراك ما القرآن، فلن تستطيعَ أن تجد له شبيهاً أو نداً، لأن الذي أنزله هو اللّه سبحانه وقد أنزله بعلمه لذلك لن تستطيع أن تجد له شبيهاً أو نداًا فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث في هذا المقام؟ أم كيف يجمع بينهما في قران؟.

(ثالثاً): إن القرآن لوكان كلام رسول اللّه محمد ﷺ، كالحديث الشريف، لكان أسلوبهما واحداً؛ ضرورة أنهما على هذا الفرض ـ صادران عن شخص واحد، استعداده واحد ومزاجه واحد، لكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث النبوي ضرب آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة، بل هو محلق في جوالبيان يعلوأساليب الناس في جملته دون تفصيله؛ ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن. فإن افترضت أنه ﷺ كان له أسلوبان مختلفان: أحدهما يحضره ويتعمل له وهو ما سماه بالقرآن، والآخر يرسله ولا يحضره وهو ما سمي بالحديث: إن افترضت ذلك فانظر علاج الشبهة العاشرة في المبحث الثالث من هذا الكتاب (ص٧٨ ـ ٨٤ من الجزء الأول) فإن فيه شفاء ما في نفسك، واللّه يكتب العافية لي ولك.

الشبهة السادسة ودفعها:

يقولون: إن أنباء القرآن الغيبية، لا تستقيم أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز الدالة على أنه كلام اللّه بل هو كلام رسول اللّه محمد ﷺ استقى أنباءه من أهل الكتاب في الشام وغيرها، أو رمى فيه الكلام على عواهنه فصادف الحقيقة اتفاقاً، أواستنبط الأنباء برأيه استنباطاً ثم نسبها إلى اللّه سبحانه وتعالى.

وندفع هذه الشبهة **(أولاً)** بأن أكثر أنباء الغيب التي في القرآن لم يكن لأهل الكتاب علم بها على عهده.

(ثانياً): إنه صحح أغلاطهم في كثير من الأنباء فليس بمعقول أن يأخذها عنهم وهو الذي صححها لهم!.

(ثالثاً): إن أهل الكتاب في زمنه كانوا أبخل الناس بما في أيديهم من علم الكتاب.

(رابعاً): إنه لوكان لهذه الشبهة ظل من الحقيقة لطار بها أهل الكتاب فرحاً وطعنوا بها في رسول اللَّه محمد ﷺ وقرآنه، ولطبل لها المشركون ورقصوا. لكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل إن جلة من علماء أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن، ثم لم يمض زمن طويل حتى أعطت قريش مقادتها له عن إيمان وإذعان.

(خامساً): إن رسول اللَّه محمداً ﷺ كان رجلاً عظيماً بشهادة هؤلاء الطاعنين. وصاحب هذه العظمة البشرية يستحيل أن يكون مما يرمي الكلام على عواهنه خصوصاً أنه رجل مسؤول في موقف الخصومة بينه وبين أعداء ألداء فما يكون له أن يرجم بالغيب ويغامر بنفسه وبدعوته، وهو لا يضمن الأيام وما تأتي به مما ليس في الحسبان.

(سادساً): إنه على فرض رجمه بالغيب جزافاً من غير حجة، يستحيل في مجرى العادة أن يتحقق كل ما جاء به مع هذه الكثرة. بل كان يخطئ ولومرة واحدة، إما في غيوب الماضي أو الحاضر أو المستقبل. لكنه لم يخطئ في واحدة منها على كثرتها وتنوعها.

(سابعاً): إن هذه الأنباء الغيبية ليست في كثرتها مما يصلح أن يكون مجالاً للرأي، ثم إن ما يصلح أن يكون مجالاً للرأي أخبر رسول اللَّه محمد ﷺ في بعضه بغير ما يقضي به ظاهر الرأي والاجتهاد. أنظر ما ذكرناه تحت عنوان أنباء الغيب من هذا المبحث. وتأمل نبوءة انتصار الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين في وقت لم تتوافر فيه عوامل هذا الانتصار كما بينا سابقاً.

الشبهة السابعة ودفعها:

يقولون: إن ما تذكرونه من علوم القرآن ومعارفه وتشريعاته الكاملة،

لا يستقيم أن **يكون وجهاً** من وجوه الإعجاز. فهذا سولون اليوناني وضع وحده قانوناً وافياً **كان موضع** التقدير والإجلال والطاعة وما قال أحد إنه أتى بذلك معجزة **ولا إنه** صار بهذا التشريع نبياً.

وندفع هذه الشبهة **(أولاً)**: بأن البون شاسع بين ما جاء به القرآن وما جاء به هذا القانون السولوني اليوناني. ونحن نتحداهم أن يثبتوا لنا كماله ووفاءه بكافة ضروب الإصلاح البشري على نحوما شرحنا سابقاً بالنسبة إلى القرآن الكريم.

(ثانياً): إن الفرق بعيد بين ظروف رسول اللّه محمد ﷺ التي جاء فيها بالقرآن وظروف سولون التي وضع فيها القانون. وهذا الفرق البعيد له مدخل كبير في إثبات هذا الوجه من الإعجاز بالنسبة إلى رسول اللّه محمد ﷺ دون سولون: فرسول اللّه محمد ﷺ أميٌّ نشأ في الأميين، أما سولون فكان فيلسوفاً نشأ في فلاسفة ومتعلمين، بل هو أحد الفلاسفة السبعة الذين كان يشار إليهم بالبنان في القرن السابع قبل الميلاد المسيحي...

ورسول اللّه محمد ﷺ لم يتقلد قبل القرآن أعمالاً إدارية ولا عسكرية، بل جاءه القرآن بعد أن حببت إليه الخلوة والعزلة، أما سولون فقد تولى قبل وضعه القانون أعمالاً إدارية وعسكرية، وانتخب في عام ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجونا) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها، وقلدوه سلطة مطلقة ليغير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (زراكوت) من قبله. فوضع لهم نظاماً جديداً أقرته الأمة حكومة وشعباً وقررت اتباعه والعمل به عشر سنين.

فهل يجوز حتى في عقول المغفلين أن تقام موازنة ويصاغ قياس مع هذه المفارقات الهائلة بين رسول اللّه ﷺ محمد الأمي الناشئ في الأميين، وسولون الفيلسوف والحاكم والقائد والزعيم والناشئ في أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة !.

(ثالثاً): أين ذلك القانون الذي وضعه أو عدله سولون؟ وما أثره وما مبلغ نجاحه؟ بجانب القرآن الجامع ودستوره الخالد وأثره البارز ونجاحه المعجز! ثم ما قيمة قانون وضع تحت تأثير تلك الظروف وأصبح في خبر

كان، بجانب القرآن الذي جاء في ظروف مضادة جعلته معجزة بل معجزات، ثم حيا حياة دائمة لا مؤقتة، ولا يزال يزداد مع مرور العصور والقرون جدة وحياة وثباتاً واستقراراً، حتى أصبح كثير من الأمم المتحضرة تستمد منه، وقررت مؤتمرات دولية اعتباره مصدراً من مصادر القانون المقارن في هذا العصر، إلى غير ذلك مما أشرنا إليه قبلا؟!

خلاصة:

والخلاصة أن القرآن من أية ناحية أتيته، لا ترى فيه إلا أنواراً وأدلةً ساطعة على أنه كلام اللَّه. ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب، ولا وصمة من زور، ولا لطخة من جهل. وإني لأقضي العجب من هؤلاء الذين أغمضوا أعينهم عن هذه الأنوار، وطوعت لهم أنفسهم اتهام رسول محمد ﷺ بالكذب، وزعموا أن القرآن من تأليفه هو لا من تنزيل ربه، مع أن الكاذب لا بد أن تكشف عن خبيئته الأيام والمضلل لا مناص له من أن يفتضح أمره ويتهتك ستره.

فيا أيها اللاعبون بالنار، الهازئون بقوانين العقل والمنطق، العابثون بمقررات علم النفس وعلم الاجتماع. الغافلون عن نواميس الكون وأوضاع التاريخ، الساخرون بدين اللَّه وكتابه ورسوله. كلمة واحدة أقولها لكم فاعقلوها: معقول أن يكذب الكاذب ليجلب إلى نفسه أسباب العظمة والمجد، وليس بمعقول أبداً (حتى عند البهائم) أن يكذب الصادق الأمين ليبعد عن نفسه أعظم عظمة وأمجد مجد. ولا شيء أعظم من القرآن ولا أمجد، فكيف يتنصل رسول اللَّه محمد ﷺ منه ولا يتشرف بنسبته إليه لوكان من تأليفه ووضعه؟!

يميناً لا حنث فيها، لوأن رسول اللَّه محمد ﷺ كان كاذباً لكذب في أن ينسب هذا القرآن إلى نفسه، على حين أنه ليس من إنشائه ورصفه. كيما يحرز به الشرف الأعلى، ويدرك به المقام الأسمى، لوكان ينال شرف ويعلومقام بالافتراء والكذب! ولكن كيف يكذب الصادق الأمين ومولاه يتوعد ويقول:

قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

[سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٥٢]

ومن أعجب العجب أن نسمع أمثال تلك الشبهات الساقطة في محيطنا الإسلامي؛ على حين أن طوائف كثيرة من علماء الإفرنج في هذه العصور الأخيرة، قد أعلنوا بعد دراستهم للقرآن ونبي القرآن (**إن رسول اللَّه محمد ﷺ كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعاً بالقليل من الرزق، غير طموع في المال ولا جنوح إلى الملك. ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر والمباراة في تحبير الخطب وقرض الشعر. وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل. وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من عمره، ومن رؤية ملك الوحي، ومن إقرائه إياه هذا القرآن، ومن إنبائه بأنه رسول من اللَّه لهداية قومه وسائر الناس**).

ولقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين الأجانب، أن أعلن هذه الحقيقة: (لووجدت نسخة من القرآن في فلاة، ولم يخبرنا أحد عن اسمها ومصدرها، لعلمنا بمجرد دراستها أنها كلام اللَّه، ولا يمكن أن تكون من كلام سواه). إن الكلام في إعجاز القرآن طويل، وعلاج جميع الشبهات التي لفقها أعداء الإسلام أطول. ومنها رسالة خبيثة أسموها (كتاب حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) فقد حملت من الأكاذيب والأراجيف، ومن اللف والدوران، أشكالاً وألواناً في الصحيفة الواحدة. فحسبنا اللَّه تعالى في مثل هؤلاء ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه تعالى.

الخاتمة

هكذا كان لنا جولة في هذا الجزء في الإعجاز التشريعي والإعجاز الغيبي للقرآن الكريم ولقد تبين بعد القراءة بفضل اللّه عظمة هذا القرآن العظيم وعظمة هذا الشرع الذي له ما في السماوات وما في الأرض. . . لقد تم بفضل اللّه سبحانه هذا الجزء ولكن ما أردته أن يكون كتاباً في التشريع ولكن ما أردت أن أبين إعجاز هذا القرآن الكريم في تشريعه وبيانه لبعض الغيبيات ولذلك لم نختر كل التشريع وشواهده فهذا يحتاج إلى مجلدات. . . فموسوعتنا الكونية الكبرى والمؤلفة من عشرين جزءاً والجزء السابع عشر هذا المعنون ب ـ (آيات اللّه في الإعجاز التشريعي والغيبي) ليس إلا جزءاً واحداً منها الهدف منها جميعاً هوبيان آيات اللّه سبحانه وإعجازه في شتى العلوم وهذا الكون العظيم وبيان عظمته وإعجازه في خلقه للخلق من إنسان وحيوان وطير وحشرات وكذلك في خلقه للبحار والجبال والنبات ولقد حاولنا في هذا الجزء أن نقدم شواهد قيمة أوردها القرآن الكريم سواء على مستوى الإعجاز التشريعي والذي يعمل به المسلمون منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان فما أصابه النقص ولا العور ولا النقد ولا القدم بل هو متجدد دائماً يصلح لكل زمان ومكان ولكل الأقوام وشعوب هذه الأرض فأين النقد في النظام والتشريع في الإرث؟ وأين النقد في نظام وتشريع بناء الأسرة؟ وأين النقد في نظام الزكاة والصدقات؟ وأين النقد في النظام الاجتماعي والاقتصادي؟ وكل صالح العمل به ومهما تقدمت القرون وتطور الإنسان والمجتمعات. . ويجب دائماً أن لا ننسى الآية الكريمة التي يقول فيها اللّه سبحانه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

[سورة المائدة، الآية: ٣]

لهي دلالة حتمية أن هذا التشريع الرباني صالح إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها فاللَّه سبحانه الذي يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ هو أعلم بما هو كائن إلى يوم القيامة وبما ستصل إليه البشرية في قابل أيامها فكل تشريع وإعجاز وعلم وغيب وآية هو من صبغة اللَّه سبحانه وقد وصف اللَّه نظامه وتشريعه.

فقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٣٨]

وهنا يكمن سر الإعجاز في كل شيء، إذ كيف لبشر أن يضع نظاماً تشريعياً صالحاً للبشرية إلى يوم القيامة، وهل لهذا البشر قدرة على معرفة ما ستكون عليه البشرية عبر قرون كثيرة؟ ناهيك بأن زمن هذا التشريع (نزول القرآن الكريم) كان في زمان لا يوصف بزمن العلم وليس أهله مؤهلين أو أحد منهم أن يضع نظاماً تشريعياً يخدم البشرية على اختلاف مشاربها وعاداتها وتقاليدها وأقطارها وجنسها ولونها ويصلح للجميع للفرد والمجتمع والمرأة والرجل والصغير والكبير والشيخ وهذا هو سر الإعجاز، ولذا حق لنا أن نسميه (الإعجاز التشريعي) كونه صالحاً لكل زمان ومكان ولا يعتوره نقص ولا عيب ولا خلل، بل قال بصلاحه الأقدمون تماماً كما يقول المعاصرون وكما يقول من يأتي بعدهم وبعدنا إلى يوم الدين... فأرجواللَّه سبحانه أن نكون قد قدَّمنا في هذا الجزء ما يرضيه وما يرضي رسول اللَّه ﷺ وما يرضي الناس لأن صلاح العمل لا يكون إلا بشهادة الناس وكلنا أمل أن يجعل اللَّه سبحانه هذا العمل صدقة جارية وفي ميزان حسناتنا وحسنات كل من ساهم فيه وقرأه وانتفع به واللَّه من وراء القصد.

والحمد للَّه رب العالمين.

الباحث
د. ماهر أحمد الصوفي
أبو ظبي ص. ب ٢٩٢٢
موبايل ٠٠٩٧١٥٠٧٥٢٦٦٩١

أسماء العلماء والباحثين الـذين شاركـوا بـآرائـهـم في هذه الموسوعة جزء ١ ـ ٢٠

الرقم	الاسم	العمل
١	اندرولانج	خبير الفيزياء الفلكية في معهد كاليفورنيا
٢	باولو ديبيرنارويس	عالم فلكي
٣	جيمس دنلوب	عالم فلكي (المرصد الفلكي البريطاني بأدنبره)
٤	ريتشارد إيليس	مدير معهد علم الفلك بجامعة كمبردج بانكلترا
٥	د. فيليب لوكاس	أستاذ علم الفلك جامعة هيرتفورد انكلترا
٦	د. باتريك روتش	أستاذ علم الفلك جامعة اكسفورد انكلترا
٧	د. جاي ميلوش	أستاذ علم الفلك جامعة أريزونا الولايات المتحدة
٨	د. ترافيس متكالفي	عالم فلك مركز هارفارد سميبشويتان للفيزياء الفضائية
٩	ستيفن هاوكنغ	عالم فيزيائي
١٠	هوجيم هارتل	عالم فيزيائي
١١	شلايخ برغامان	مهندس فضائي. ألماني
١٢	جول فيرن	رائد الخيال العلمي
١٣	آرثر سي كلارك	كاتب الخيال العلمي
١٤	براد أدواردز	مهندس فضاء أمريكي
١٥	قسطنطين تسيولكر فسلكي	عالم روسي فلكي ورياضي وأبو الرحلات الفضائية

الرقم	الاسم	العمل
١٦	جان بول نيب	عالم فلكي / معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا
١٧	د. أيد ويلر	عالم فلك/ الولايات المتحدة
١٨	د. ألن هايل	عالم فلك ومكتشف مذنب هايل بوب مختص بعلم الكواكب
١٩	جيوردانو برونو	راهب إيطالي خبير في علم الفلك
٢٠	د. لابلاس	عالم فيزياء ورياضي ـ فرنسا
٢١	إيمانيول كانما	فيلسوف ألماني وخبير في علم الفلك
٢٢	بروفسور شارل العشي	مدير مختبر الدفع النفاث وكالة ناسا الأمريكية
٢٣	أرسطو	عالم فلسفي يوناني
٢٤	فرانسيسكو ربدي	عالم فلك وأحياء إيطالي
٢٥	لويس باستور	عالم أحياء
٢٦	كانت	عالم فلك ألماني ١٧٥٥م
٢٧	هابل	عالم فلك ١٩٢٩م
٢٨	ليروي تشاو	عالم من وكالة ناسا الفضائية ورائد فضاء
٢٩	ساليزان شابيروف	مهندس في الملاحة الجوية وكالة الفضاء الروسية
٣٠	جورج حلو	مدير مركز أيباك الفضائي
٣١	رون غريزلي	عالم فلك جامعة أريزونا الولايات المتحدة
٣٢	كريس تشيبا	عالم فلك معهد البحث العلمي الولايات المتحدة

الرقم	الاسم	العمل
٣٣	**عدنان عضيمة**	مختص بالشؤون العلمية والفلكية جريدة الاتحاد الإماراتية
٣٤	**جون هومير**	عالم فلك مختص بشؤون السفن الفضائية / أمريكا
٣٥	**روبرت هارفين**	عالم فلك/ الولايات المتحدة الأمريكية
٣٦	**جاك دوريل**	عالم فلك ـ وكالة ناسا ـ الولايات المتحدة الأمريكية
٣٧	**معين أحمد محمود**	كاتب في شؤون الفلك
٣٨	**شاندراوبكرا ماسينج**	عالمان ألّفا كتاب البذور الكونية
٣٩	**أرهينوس**	عالم فلك سويدي
٤٠	**د. كارل سيجان**	عالم فلك أميركي
٤١	**مسلم شلتوت**	عالم فلك ـ المعهد القومي للعلوم الفلكية مصر ـ حلوان
٤٢	**أينشتاين**	عالم رياضيات وفلك صاحب النظرية النسبية
٤٣	**فان ألن**	عالم فلك صاحب حزام ألن المغناطيسي فيزيائي أمريكي
٤٤	**بروس جاكوسي**	عالم فيزياء فلكي جامعة كولورادو الولايات المتحدة
٤٥	**د. ديفيد شاربونو**	عالم فلك ـ معهد سيموثنيان للفيزياء الفضائية الولايات المتحدة
٤٦	**د. إل دريك ديمنج**	عالم فلك مركز جودارد للطيران الفضائي الولايات المتحدة الأمريكية
٤٧	**د. جيفري دبليو مارسي**	عالم فلك مختص بشؤون الكواكب جامعة كاليفورنيا الولايات المتحدة
٤٨	**د. آلان بي بوس**	عالم النظريات الكوكبية ـ معهد كارنبجي واشنطن الولايات المتحدة

الرقم	الاسم	العمل
٤٩	د. جون موري	عالم فلك ـ باحث في جامعة منبيلتون
٥٠	بيتر آن أبسبوت	كاتب أمريكي متخصص في الشؤون العلمية
٥١	مايكل سواتويك	كاتب متخصص في الشؤون الفلكية والعلمية/ الولايات المتحدة
٥٢	لورانس أم كروسي	مدير مركز التعليم والبحوث في علوم الكون والفلك جامعة كينويسترون ريزيرن نيويورك
٥٣	د. ياسين محمد المليكي	عالم مشارك في المؤتمر السابع للإعجاز العلمي دبي ٢٠٠٤م
٥٤	سعيد حوى	كاتب وعالم يتحدث في أمور الإعجاز من كتبه (اللَّه جل جلاله)
٥٥	رودريغو إيباتا	عالم فلك مدير المرصد الفلكي ستراسبورغ / فرنسا
٥٦	كارل ماركس	من كتاب الفلسفة المادية الوجودية
٥٧	د. أنور عبد العليم	كاتب وباحث في الشؤون العلمية من كتبه (قصة التطور)
٥٨	رالف ألفر	كاتب في الشؤون العلمية والفلكية الولايات المتحدة
٥٩	بيجر إنك	عالم نباتي ألماني
٦٠	البروفيسور سول سبيكمان	عالم كيميائي نباتي إنجليزي
٦١	هارولد يوري	عالم كيميائي فلكي حائز على جائزة نوبل ١٩٢٣م إنجليزي
٦٢	د. زغلول راغب النجار	عالم وكاتب مصري مختص بالشؤون الجيولوجية والفلكية

الرقم	الاسم	العمل
٦٣	د. محمد سعيد رمضان البوطي	كاتب وعالم إسلامي كبير حائز على جائزة شخصية العام الإسلامي/ سوريا
٦٤	إنجلز	كاتب وجودي من كتاب الفلسفة المادية من مؤلفاته (الأنتي دوهرنغ)
٦٥	الكسندر ايفانوفيتش	عالم في الكيمياء الحيوية بأكاديمية العلوم الروسية
٦٦	جورج جاموف	كاتب في الشؤون العلمية والفلكية/ الولايات المتحدة
٦٧	ستيفن هوكنج	عالم مختص في الشؤون العلمية والفلكية / انكلترا
٦٨	الجاحظ	عالم عربي اجتماعي فلسفي من كتبه: كتاب الحيوان
٦٩	ابن النظام إبراهيم بن سيار	عالم عربي اجتماعي وفلسفي هو أستاذ الجاحظ
٧٠	د. معين صلاح الدين	كاتب عربي سوري
٧١	ستانلي ميلر	عالم كيميائي / إنجليزي
٧٢	الفرد دالاس	عالم اجتماعي/ ألماني
٧٣	هوستان ارينبوس	عالم فيزيائي/ السويد
٧٤	جيمس متشز	مستشرق له كتب ومؤلفات في القرآن الكريم وكان منصفاً في وصف القرآن الكريم
٧٥	الفيلسوف الكندي	فيلسوف عربي
٧٦	ميكاييل ترنر	عالم فلك الجمعية العلمية الوطنية أمريكا
٧٧	ابن رشد	كاتب وفيلسوف عربي من كتبه «تهافت التهافت»

الرقم	الاسم	العمل
٧٨	ابن سينا	عالم عربي في الطب والفلسفة من كتبه عيون المسائل
٧٩	إخوان الصفاء	أصحاب نظريات فلسفية من كتبهم (كتاب الرسائل)
٨٠	جليشر	عالم فلك إنجليزي ١٨٦٣ حاول الصعود إلى السماء بالمنطاد
٨١	د. أرنولد توينبي	باحث وكاتب اجتماعي بيئي فلسفي
٨٢	فرانك ألن	عالم الطبيعة البيولوجية
٨٣	تشارلز يوجين	عالم رياضيات سويسري
٨٤	بول كلارنس	عالم في الطبيعة الحيوية ـ الولايات المتحدة الأمريكية
٨٥	جورج إيريل دافيز	عالم طبيعة/ الولايات المتحدة الأمريكية
٨٦	العلامة الخنجواني	مفسر وعالم من كتبه (الفواتح الإلّهية)
٨٧	ريشارد هوفر	عالم فلك/ مركز آيمز للأبحاث وكالة ناسا
٨٨	الفارابي	فيلسوف وكاتب عربي
٨٩	فرانشيسكو	عالم فلك إيطالي حاول الصعود إلى السماء عن طريق البالون
٩٠	دونيس سكايما	عالم فلك من أشد أنصار نظرية الكون المستقر
٩١	ستيفن هوفكن	عالم فلك وفيزياء صاحب كتاب التاريخ المختصر للزمن
٩٢	جورج كرنشتاين	عالم فلك صاحب كتاب الكون التكافلي
٩٣	دوس	عالم فلك قام بدراسات كثيرة عن الجو الأرضي
٩٤	فرانك دراك	عالم فلك ١٩٦٠م كان يراقب الشموس الشبيهة بشمسنا

الرقم	الاسم	العمل
٩٥	جورج كامو	عالم فلك صاحب نظرية أن انفجاراً نووياً للنيترونات
٩٦	مارتن رايلي	عالم فلك جامعة كامبردج انكلترا درس كثافة المجرات
٩٧	بنزياس	عالم فلك ١٩٦٥ التقط الإشعاع الراديوي الوارد من جميع أنحاء الكون
٩٨	أنطواني ملوف	عالم فلك مؤيد دعاة الأزلية
٩٩	بول ديفز	عالم فلك أيد نظرية أن قوة عاقلة مدركة أنشأت الكون ـ بريطانيا
١٠٠	ألكسندر فريدمان	عالم فيزياء روسي برهن بنظريته بداية لهذا الكون
١٠١	بجيران	عالم فلك وفيزياء صاحب نظرية انتشار النظم الكوكبية في الكون
١٠٢	ستيفن دول	عالم فلك صاحب الإحصائية أربعة عشر نجماً أقرب إلى شمسنا لها كواكب وعليها حياة
١٠٣	بروفسور بييرلس	عالم فلك
١٠٤	ولتر باد	عالم فلك مدير مرصد بالومار كاليفورنيا
١٠٥	ويلسون	عالم فلك ١٩٦٥ اشترك مع بنزياس في التقاط الإشعاع الراديوي الوارد من جميع أنحاء الكون
١٠٦	لوميتر	عالم فلك بلجيكي أول من قدم نظرية حديثة عن نشأة الكون
١٠٧	توم غولد	عالم فلك ١٩٥٠ صاحب نظرية الضربة الكبرى
١٠٨	مولتون	عالم فلك
١٠٩	فايتز بكر	عالم فلك صاحب نظرية أهم مظاهر عمر الأرض

الرقم	الاسم	العمل
١١٠	توني هيويش	عالم فلك أول من اكتشف أجرام كاوي بأقطار بحدود ١٦ كم في الفضاء تدور حول محورها
١١١	شابلي	عالم فلك ١٩١٧ قدر البعد بين الشمس ومركز المجرة ١٠ ك. فرسخ
١١٢	مستر جينز	عالم فلك صاحب نظرية أصل المجموعة الشمسية
١١٣	ريتشارد كوفي	عالم فلك ورائد رئيس لجنة الإشراف على إطلاق ديسكفري
١١٤	هيرمان بوندي	عالم فلك ١٩٥٠ صاحب نظرية الضربة الكبرى
١١٥	بازل	عالم فلك ألماني ١٩٣٨ قام بأول قياس لبعد النجوم
١١٦	جوسلين بل	عالم فلك ألماني ١٩٣٨ اشترك مع بازل بتصميم أول جهاز لقياس بُعد النجوم
١١٧	كاسينس	عالم فلك إيطالي
١١٨	كويبر	عالم فلك صاحب نظرية أصل الكون
١١٩	مستر جيفرز	عالم فلك صاحب نظرية أصل الأرض
١٢٠	توماي ستافورد	عالم فلك ورائد رئيس لجنة الإشراف على إطلاق ديسكفري
١٢١	مايكل لينباخ	عالم فلك مدير إطلاق محطة الفضاء ديسكفري
١٢٢	سكوت تشاجمان	عالم فلك جامعة كالتك الولايات المتحدة الأمريكية
١٢٣	أنالسيماندر	عمل بالفلك مساعداً لطاليس
١٢٤	عبد الحليم الخطيب	عالم عربي له مؤلفات منها (أسرار معجزة القرآن الكريم وقد أخذنا من كتابه البراهين
١٢٥	أبيقور	عالم فلسفة اليونان ٥٠ سنة قبل الميلاد

الرقم	الاسم	العمل
١٢٦	**طاليس**	أول فيلسوف إغريقي تحدث عن علم الفلك قام بقياس قطر الشمس وتنبأ بالكسوف
١٢٧	**هيبا رخوس**	عالم فلك إغريقي ١٦٠ ـ ١٥٠ ق. م أول من قسم الأقدار الظاهرية للنجوم
١٢٨	**سند بن علي**	رئيس الفلكيين بمعهد الخليفة المأمون بنى مرصداً فلكياً وكان تحت إشرافه
١٢٩	**أحمد عبد اللّه المروزي**	عرف باسم الحاسب لدقة حساباته الفلكية أدخل طريقة تحديد الوقت أثناء النهار
١٣٠	**أبو الريحان المسعودي**	عالم فلك صاحب كتاب القانون المسعودي
١٣١	**عبد الرحمن بن يونس المصري**	عالم فلك عربي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر
١٣٢	**ابن القزويني**	عالم فلك له مؤلفات كثيرة. وقسم الكون إلى علوي وسفلي واهتم بعلم السماء
١٣٣	**تايخو براهي**	عالم فلك أثبت نظرية كوبر نيكوس وعرف (بالنظام التايخوي)
١٣٤	**إدوارد ميلين**	عالم فلك وفيزياء ـ الولايات المتحدة
١٣٥	**أحمد زويل**	عالم كيمياء مصري حائز على جائزة نوبل للعلوم
١٣٦	**واطسون وكريك**	عالمان اكتشفا الحمض النووي
١٣٧	**فرانك ألن**	عالم الطبيعة البيولوجية/ كندا
١٣٨	**أيسد ويلر**	عالم فلك أمريكي تحدث عن نشأة المجرات في الكون

الرقم	الاسم	العمل
١٣٩	كوبر نيكوس	أول عالم نقد نظرية بطليموس ونقد نظرية أن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض
١٤٠	أبو العباس أحمد الفرنحاني	عالم فلك عربي ذاع صيته مؤلف كتاب الحركات السماوية وجوامع النجوم
١٤١	عبد الرحمن بن عمر الصوفي	عالم فلك عربي من مؤلفاته صدر الكواكب الثابتة
١٤٢	إسحاق نيوتن	١٧٢٧م عالم فلك وفيزياء وقد اقترن اسمه بقوانين الحركة وقانون الجاذبية
١٤٣	روجيه حجار	عالم فلك وأستاذ محاضر في مادة الفيزياء في جامعة نوتردام لبنان
١٤٤	د. كارل سيجان	عالم فلك رئيس معمل الدراسات الكونية بجامعة كورنل أصله هندي
١٤٥	فريد هويل	عالم فلك صاحب كتاب (البذور الكونية) بريطاني
١٤٦	جوهان كيبلر	عالم فلك ١٦٣٠م عالم رياضيات كان يحسب مدارات الكواكب بدقة
١٤٧	جاليلو جاليلي	عالم فلك ١٦٤٢م رصد بمرصده الفلكي وأكد أن الشمس مركز الكون وهو أول من رأى أربعة كواكب تدور حول المشتري
١٤٨	تشارلز يوجين جاي	عالم طبيعة وبيئة سويسري وهو القائل أنه لا يمكن تكوين جزيء بروتيني واحد عن طريق المصادفة
١٤٩	ح. ليثر	عالم طبيعة وبيئة القائل أيضاً أنه من المحال تكوين جزيء بروتيني عن طريق المصادفة

الرقم	الاسم	العمل
١٥٠	محمد عبد السلام	بروفسور باكستاني حائز على جائزة نوبل لتوحيده قوتين من قوى الطبيعة
١٥١	أرهينيوس	عالم فلك سويدي صاحب نظرية ترفض نظرية النشوء والارتقاء
١٥٢	هويل وفادلار	عالمان فلكيان الولايات المتحدة قدرا عمر الكون بين ١٢ و١٥ مليار سنة
١٥٣	جان بول نيب	عالم فلك مرصد ميدي بيرينيه ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا أمريكا
١٥٤	سكوت تشاجمان	عالم فلك جامعة كالتك أمريكا
١٥٥	جيمس جينز	عالم فلك صاحب نظرية أن الكون كان سديماً غازياً
١٥٦	د. جامو	عالم فلك أمريكي صاحب نظرية أن الكون كان أوله غازاً موزعاً توزيعاً منظماً
١٥٧	بينزياس وويلسون	عالمان فلكيان اكتشفا الأمواج الراديوية
١٥٨	تشارلز داروين	عالم طبيعة وفلسفة وصاحب نظرية النشوء والارتقاء
١٥٩	تشارلز لينويفر	عالم فلك نيو ساوث سدني أستراليا
١٦٠	د. شكويف	عالم فلك صاحب نظرية أن الحياة بزغت تحت سماء جهنمية لكوكب يعج بالاندفاعات البركانية/ روسي
١٦١	بيتر كوبوتيكن	تطوري معروف أمريكي
١٦٢	هاينز ريخنر	أستاذ علم أحياء فرنسي
١٦٣	كينيث ووكر	باحثي الطب الفيزيولوجي أمريكي
١٦٤	فرديك سيارلينغ	عضو الأكاديمية الوطنية للعلوم أمريكي

الرقم	الاسم	العمل
١٦٥	وليام شافيز	رئيس دائرة الطب الوقائي أمريكي
١٦٦	توران بوزغان	تركي
١٦٧	ألن هاي	مدير مركز الأنفلونزا إنكليزي
١٦٨	ماريا زامبون	وكالة الحماية الصحية انكليزية
١٦٩	فرانوا ميسين	أحد خبراء منظمة الصحة العالمية
١٧٠	يوين كووك بانج	رئيس قسم الكائنات الدقيقة صيني
١٧١	شانورا ويكراماسينفهي	بروفسور بريطاني انكليزي
١٧٢	ديفيد أتنبوور	عالم طبيعة بريطاني
١٧٣	ديفيد نوبارا	منسق شؤون الأنفلونزا إنكليزي
١٧٤	مايك ديفيس	خبير بريطاني
١٧٥	جورج بولاند	طبيب أمريكي
١٧٦	بني هيتشكوك	خبير في الأمراض المعدية انكليزي
١٧٧	إزاك واير فيوز	إدارة الصحة الأميركية أمريكي
١٧٨	مايكولا هاداك	باحث سويسري
١٧٩	فاسيليا موسوك ليفك	سيدة من يوغسلافيا تعمل في مجال بحوث البيئة والأمراض
١٨٠	رويال وكنسون	عالم تاريخ الطبيعة فرنسي
١٨١	عبد الحكم عبد اللطيف الصعدي	باحث عربي

الرقم	الاسم	العمل
١٨٢	دارفين	عالم بيئة إنكليزي
١٨٣	رلي توم	باحثة متخصصة بالبيئة فرنسية
١٨٤	الفريدر رسل لاسي	صاحب كتاب تعاقب الأنواع إنكليزي
١٨٥	مولار سير	عالم نبات فرنسي
١٨٦	الدميري	عالم عربي
١٨٧	بول وتس	عالم طبيعة مشهور من النروج
١٨٨	أدولف مور	عالم حيوانات سويدي أول من اكتشف رعاية الأبوين للصغار في عالم الحيوان
١٨٩	رون أودور	عالم طبيعي فرنسي
١٩٠	سير فنجر	عالم جيولوجي معروف انكليزي
١٩١	ابن الأثير	عالم إسلامي مشهور
١٩٢	د. علي العجلة	مدير مجلة منار الإسلام أبوظبي دولة الإمارات
١٩٣	كيري سيه	عالم جيولوجي معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا أمريكا
١٩٤	د. جون بد	عالم جيولوجي اليونيسيف إنكليزي
١٩٥	د. سير ريشتر	عالم جيولوجي أمريكي صاحب مقياس زلازل ريشتر
١٩٦	د. سير جوتنبرج	عالم جيولوجي إنكليزي
١٩٧	د. سير أوريختر	عالم جيولوجي أمريكي صاحب مقياس الزلازل أو ريختر
١٩٨	رينان	مستشرق وكاتب له العديد من المؤلفات تحدث عن القرآن الكريم وكان منصفاً في حديثه

الرقم	الاسم	العمل
١٩٩	المسعودي	عالم عربي جيولوجي صاحب كتاب مروج الذهب ٣٣٦ هجري
٢٠٠	بليني وإسترابو وهيرودوت	فلاسفة إغريق أكدوا أن نشأة البراكين تعزى إلى الغازات الساخنة الصاعدة من باطن الأرض
٢٠١	أ ـ د حسن أبو العينين	عالم وكاتب عربي مصري له كتب كثيرة في علوم الأرض والجيولوجيا منها مع آيات الله في الأرض
٢٠٢	ميا تيرنر	رئيسة برنامج الغذاء العالمي باحثة اجتماعية
٢٠٣	ج ن ليونارد	عالم طبيعة إنكليزي من مؤلفاته كتاب جولة عبر العلوم
٢٠٤	فيجان وشمارس	عالم طبيعة فرنسي
٢٠٥	د. أحمد فؤاد باشا	كاتب وعالم وباحث رئيس قسم الفيزياء جامعة القاهرة ـ مصر
٢٠٦	ولسون بعكي	عالم طبيعة إنكليزي اهتم جداً بدراسة (الكسف الثلجية)
٢٠٧	الأميرال بوفورت	واضع مقياس بوفورت لقياس الريح عالم طبيعة إنكليزي
٢٠٨	أ - د مستر ريل	عالم طبيعة إنكليزي اهتم بنشأة الزوابع المدارية ومسالكها
٢٠٩	الزمخشري	عالم ومفسر عربي معروف
٢١٠	ابن سيرين	عالم عربي اشتهر بعلم النوم والرؤى والأحلام
٢١١	مستر برجسون	عالم نفس مختص بعلم النوم والرؤى والأحلام
٢١٢	إيزابيل سمبسون	رئيسة منظمة أطباء بلا حدود باحثة في الطب ولها دراسات وكتب
٢١٣	ارخميدس	عالم مشهور من كتبه المشهورة (تعبير الرؤيا)
٢١٤	القاضي الباقلاني	عالم عربي له كتاب إعجاز القرآن

الرقم	الاسم	العمل
٢١٥	اللورد أفيري	عالم طبيعة انكليزي من مؤلفاته كتاب محاسن الطبيعة وعجائب الكون
٢١٦	فخر الدين الرازي	عالم عربي مشهور اعتني بتفسيره بالنواحي العلمية صاحب تفسير التفسير الكبير ومفاتيح الغيب
٢١٧	البروفيسور هوارد كريتشفيلد	عالم طبيعة إنكليزي له اهتمامات بآلية الرعد والبرق وقدَّم دراسات حول الموضوع
٢١٨	مستر ألفاريز الأب	عالم طبيعة وحيوان له نظريات حول انقراض الديناصورات
٢١٩	مستر ألفاريز الابن	عالم طبيعة وحيوان إنكليزي له نظريات حول انقراض الديناصورات والماموت
٢٢٠	د. خالص الجلبي	طبيب وباحث عربي له مؤلفات عديدة منها (الطب محراب الإيمان)
٢٢١	بروفيسور جيمس ترفل	عالم طب وتشريح له مؤلفات منها (نحن متفردون)
٢٢٢	بروفيسور فرويد	عالم نفس مشهور صاحب كتاب تفسير الأحلام عام ١٩١٠
٢٢٣	الشيخ محمد عبده	عالم وفقيه ومفكر عربي له كتب ومؤلفات كثيرة
٢٢٤	عامر الشعبي	عالم وفقيه عربي
٢٢٥	أبو الليث السمرقندي	عالم عربي له في التفسير واللغة مؤلفات كثيرة
٢٢٦	الإمام السيوطي	عالم وفقيه ومفسر عربي له مؤلفات تزيد عن ٣٠ مؤلف
٢٢٧	الإمام الشوكاني	عالم عربي وفقيه ومفسر له مؤلفات كثيرة
٢٢٨	د. محمد طلعت	باحث وكاتب عربي من كتبة المعروفة كتاب (محيط العلوم)

الرقم	الاسم	العمل
٢٢٩	البروفيسور إميل فيتشر	عالم وطبيب متخصص في دراسة البروتين حاصل على جائزة نوبل في دراسة البروتين
٢٣٠	د. محمد راتب النابلسي	باحث وكاتب عربي له مؤلفات كثيرة منها (آيات الله في الكون) (آيات الله في الإنسان)
٢٣١	الشيخ محمود شلتوت	عالم وفقيه وإمام للأزهر الشريف له مؤلفات كثيرة
٢٣٢	الحسن البصري	عالم وفقيه عربي وإمام وحجة في الإسلام
٢٣٣	بلاشير	مستشرق له أبحاث كثيرة في القرآن الكريم ولقد نقد نظرية تؤكد له بأن أوائل السور دخيلة على نص القرآن
٢٣٤	الشيخ عبد الغني النابلسي	عالم نفس وتفسير أحلام من كتبه (تعطير الأنام في تفسير الأحلام)
٢٣٥	كارل جوستاف يونج	تلميذ فرويد العالم النفسي عارض أستاذه في كثير من النظريات في عالم الرؤى والأحلام
٢٣٦	د. مستر أزرنسكي	باحث إنكليزي في الدراسات النفسية اعتنى بدراسة النشاطات البيولوجية والفيزيولجية في الدماغ والجسم
٢٣٧	الشيخ محمد بن علي خلف الحسيني	عالم عربي وشيخ القرّاء بالديار المصرية له مؤلفات منها (إرشاد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن)
٢٣٨	شفالي	مستشرق ألماني له مؤلفات في اللغة
٢٣٩	كالفن هول	عالم نفس أمريكي استطاع أن يجمع عشرة آلاف من الأحلام على مدى عشر سنوات وقام بدراستها من كتبه (معنى الأحلام)
٢٤٠	ابن خلدون	عالم عربي مختص في علم الاجتماع وعلم النفس وله تفسيرات كثيرة حول الأحلام والرؤى. له كتاب مقدمة إبن خلدون
٢٤١	نصر بن عاصم الليثي	عالم لغة وفقيه عام ٨٩ هجري

الرقم	الاسم	العمل
٢٤٢	ابن قيم الجوزية	عالم كبير مشهور ومعروف درس النفس البشرية والروح ومن كتبه (الروح لابن القيم)
٢٤٣	مستر بيرغر	عالم طب إنكليزي مشهور اختص في دراسة الدماغ البشري أثبت أن نمط الكهرباء في الدماغ يتغير بين اليقظة والنوم
٢٤٤	أرتـــمـــيـــدوس الأقسوسي	عالم نفس من أشهر من تكلموا في الأحلام وقام برحلات حول العالم مما ساعده على معرفة المفاهيم المختلفة لدى الناس
٢٤٥	بروفيسور سير أزير ينسكي	عالم طب وعلم نفس أول من أثبت أن بؤبؤ العين يتحرك ويتقلب بسرعة أثناء النوم
٢٤٦	آن فارادي	عالم نفس إنكليزي درس علم الأحلام وله آراء كثيرة حول الأمر
٢٤٧	باتريشيا غارفيلد	عالم نفس درس النوم والأحلام والرؤى وألف فيها مؤلفات روسي
٢٤٨	غايل ديلاني	عالم نفس وفيلسوف تحدَّث في علم الرؤى والأحلام بولوني
٢٤٩	الدكتور ألن هويسون	عالم وطبيب أمريكي من جامعة هارفارد أول من نادى أن آليات عصبية في جذع الدماغ تقوم بصوغ الأحلام
٢٥٠	سيبويه	عالم لغة عربي معروف له مؤلفات في اللغة وآراء ونظريات
٢٥١	الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور	عالم عربي مفسر له كتب عدة في الإعجاز
٢٥٢	الإمام الزركشي	عالم عربي وله كتب ومؤلفات كثيرة منها البرهان، ذكر عشرين وجهاً لتفسير أوائل السور

الرقم	الاسم	العمل
٢٥٣	هرشفيلد	مستشرق إنكليزي له دراسات موسعة في القرآن الكريم
٢٥٤	أحمد بن المبارك	عالم عربي فقيه له مؤلفات منها (الذهب الإبريز)
٢٥٥	الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي	عالم عربي له مؤلفات منها رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات
٢٥٦	عبد الصبور مرزوق	عالم عربي معاصر له مؤلفات كثيرة منها كتابه (عليها تسعة عشر)
٢٥٧	الدكتور فاضل السامرائي	عالم لغة معاصر له مؤلفات كثيرة من كتبه (معاني النحو)
٢٥٨	بُهل	مستشرق ألماني له مؤلفات وأبحاث في القرآن الكريم واللغة
٢٥٩	الخليل بن أحمد الفراهيدي	عالم لغة عربي
٢٦٠	سهل بن عبد الله التستري	عالم وفقيه عربي
٢٦١	الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني	عالم وفقيه عربي من مؤلفاته مناهل العرفان في علوم القرآن
٢٦٢	ابن حجر العسقلاني	عالم وفقيه عربي إمام وحجة في العلم والفقه له مؤلفات كثيرة
٢٦٣	جوته	من الكتاب والمستشرقين انصف بكتبه القرآن الكريم ومن أقواله (إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية)
٢٦٤	نولد كه	مستشرق ألماني له مؤلفات كثيرة في اللغة له كتاب (تاريخ القرآن)
٢٦٥	محمد عبد اللطيف ابن الخطيب	فقيه عربي من كتبه (الفرقان)

الرقم	الاسم	العمل
٢٦٦	سعيد بن جبير	عالم وفقيه عربي معروف له كتب في التفسير وتحدث عن فواتح السور فقال (ولو عرف الناس تأليفها تعلموا اسم الله الأعظم)
٢٦٧	يو كاي	من الكتّاب المشهورين مستشرق تحدث عن الإسلام والقرآن الكريم ، كان منصفاً وعادلاً في آرائه وحكمه على القرآن الكري
٢٦٨	هنري دكاستري	مستشرق انكليزي له مؤلفات في دراسة القرآن من أهم أقواله (إن القرآن الكريم يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)
٢٦٩	واشنطن يروينج	مستشرق انكليزي له مؤلفات في أبحاث القرآن الكريم من أهم أقواله (يحوي القرآن أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً)

مراجع
الموسوعة الكونية الكبرى

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ صحيح البخاري
٣ ـ صحيح مسلم
٤ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان
٥ ـ سنن ابن ماجه
٦ ـ مسند الإمام أحمد
٧ ـ سنن الترمذي
٨ ـ سنن النسائي
٩ ـ سنن أبي داود
١٠ ـ صحيح الجامع الصغير/ للسيوطي
١١ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة/ للألباني
١٢ ـ المعجم الأوسط والكبير / للطبراني
١٣ ـ صحيح ابن خزيمة
١٤ ـ رياض الصالحين/ للإمام الحافظ النووي الدمشقي
١٥ ـ المستدرك/ للحاكم
١٦ ـ الصفوة المنتقاة من كتب الرواة للأحاديث الصحيحة/ للمؤلف
١٧ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس/ للشيخ إسماعيل العجلوني
١٨ ـ مختصر تفسير ابن كثير
١٩ ـ تفسير ابن جرير الطبري

٢٠ ـ تفسير الفخر الرازي/ التفسير الكبير ومفاتح الغيب/ دار الفكر
٢١ ـ التفسير الوسيط/ أ ـ د وهبة الزحيلي
٢٢ ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/ أبو بكر الجزائري
٢٣ ـ تفسير القرآن الكريم جزء عمَّ/ محمد بن صالح عثيمين
٢٤ ـ تفسير الجلالين/ للسيوطي
٢٥ ـ صفوة التفاسير/ للصابوني الدار العصرية
٢٦ ـ كلمات القرآن الكريم/ الشيخ حسنين محمد مخلوف
٢٧ ـ الموسوعة القرآنية الميسرة/ دار الفكر دمشق
٢٨ ـ التفسير الواضح الميسر/ محمد علي الصابوني
٢٩ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن ناصر السعدي
٣٠ ـ تفسير الثعالبي/ الجواهر الحسان في تفسير القرآن
٣١ ـ فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني
٣٢ ـ الروح/ ابن قيم الجوزية
٣٣ ـ كبرى اليقينيات الكونية / الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
٣٤ ـ شرح النووي على مسلم/ الإمام النووي
٣٥ ـ مختار الصحاح/ دار المعارف مصر
٣٦ ـ آيات اللّه في البحار/ للمؤلف
٣٧ ـ آيات اللّه في السماء/ للمؤلف
٣٨ ـ آيات اللّه في الروح والنفس والجسد/ للمؤلف
٣٩ ـ الهبوط على المريخ وبيان قدرة اللّه/ للمؤلف
٤٠ ـ الاستنساخ البشري بين الحقيقة والوهم/ للمؤلف
٤١ ـ موسوعة الآخرة/ للمؤلف
٤٢ ـ القرآن الكريم والعلم الحديث/ الدكتور منصور محمد حسب النبي
٤٣ ـ المنظومة الشمسية/ د. علي موسى د. مخلص الريس/ دار دمشق

٤٤ ـ إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان/ الدكتور منصور حسب النبي
٤٥ ـ الكون والحياة/ د. مخلص الريس د. علي موسى
٤٦ ـ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم/ د. زكريا ياهيمي
٤٧ ـ آيات اللّه في الآفاق/ أ ـ د محمد راتب النابلسي/ دار المكتبي دمشق
٤٨ ـ الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني/ د. سمير عبد الحليم
٤٩ ـ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة/ يوسف الحاج أحمد
٥٠ ـ اللّه يتجلى في عصر العلم/ تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين
٥١ ـ رصيد العلم والإيمان/ الدكتور أحمد فؤاد باشا
٥٢ ـ علم الفلك والكون/ د. عواد الزحلف
٥٣ ـ تاريخ موجز للزمان/ ستيفن هوكنج/ ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي
٥٤ ـ الكون بداية ونهاية/ د. محمد الجزار
٥٥ ـ آيات اللّه الكونية في القرآن الكريم/ الدكتور محمد بن جمعة بن سالم
٥٦ ـ موسوعة الكون والفضاء والأرض/ د. موريس أسعد شربل ـ د. رشيد فرحات
٥٧ ـ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم/ محمد سامي محمد علي
٥٨ ـ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ د. كارم السيد غنيم
٥٩ ـ آيات اللّه في السماء/ د. زغلول النجار
٦٠ ـ المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم/ د. زغلول النجار
٦١ ـ من آيات الإعجاز العلمي النبات في القرآن الكريم. جزء ٤ ـ ٥/ د. زغلول النجار
٦٢ ـ موجز تاريخ الكون من الانفجار العظيم إلى الاستنساخ البشري/ د. هاني رزق/ دار الفكر/ سورية
٦٣ ـ الموسوعة الحديثة كوكبنا في الكون/ عويدات للنشر والطباعة

٦٤ ـ كوكب الأرض/ سلسلة دليل المعرفة دار العلم للملايين
٦٥ ـ الأطلس الفلكي / محمد عصام الميداني دار دمشق للنشر والتوزيع
٦٦ ـ موسوعة الطبيعة الميسرة/ مكتبة لبنان
٦٧ ـ الموسوعة الذهبية من آدم إلى اختراع الآلات البسيطة/ مؤسسة سجل العرب
٦٨ ـ النجوم والكواكب سلسلة دليل المعرفة/ دار العلم للملايين
٦٩ ـ الأطلس العلمي فيزيولوجيا الإنسان / دار الكتاب اللبناني
٧٠ ـ جسم الإنسان/ موسوعة لاروس/ عويدات للنشر والطباعة
٧١ ـ الكون/ موسوعة لاروس/ عويدات للنشر والتوزيع
٧٢ ـ الموسوعة العلمية الحديثة/ كولين رونان الأهلية للنشر والتوزيع
٧٣ ـ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن/ والسنة آيات اللّه في الإنسان/ أ ـ د محمد راتب النابلسي
٧٤ ـ خلق الإنسان/ أبو الحسن سعيد بن هبة اللّه/ دار الكتب العلمية
٧٥ ـ دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن / د. كريم حسنين ـ دار نهضة مصر
٧٦ ـ علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة/ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ مكة المكرمة
٧٧ ـ المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة/ فلينظر الإنسان إلى طعامه/ د. أحمد شوقي خليل
٧٨ ـ المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة/ أطوار الخلق وحواس الإنسان/ د. أحمد شوقي خليل
٧٩ ـ المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة الشفاء النفسي وأسرار النوم وعلم الجمال/ د. شوقي خليل
٨٠ ـ الطب النبوي/ ابن قيم الجوزية دار الفكر ـ بيروت ـ دمشق
٨١ ـ كيف نتوجه إلى العلوم والقرآن مصدرها/ د. نور الدين عتر
٨٢ ـ القرآن الكريم إعجاز تشريعي متجدد/ د. محمود أحمد الزين

٨٣ ـ مباحث في إعجاز القرآن الكريم/ أ ـ د مصطفى مسلّم
٨٤ ـ دلائل الإعجاز/ الإمام عبد القاهر الجرجاني تعليق/ د. محمد عبد المنعم خفاجي
٨٥ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي
٨٦ ـ موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي/ أ ـ د. أحمد شوقي خليل ١ ـ ٥
٨٧ ـ الإعجاز العلمي في الإسلام السنة النبوية/ محمد كامل عبد الصمد
٨٨ ـ كتاب الخبر اليقين في معجزات النبي الأمين/ د. أحمد عوض أبو الشباب ـ المكتبة العصرية
٨٩ ـ معجزات الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ/ محمد صالح مهندس
٩٠ ـ نبوءات الرسول ما تحقق منها وما لم يتحقق/ سماحة الشيخ أبو الحسن أحمد الندوي
٩١ ـ الإعجاز العلمي في السنة النبوية جزء أول/ جزء ثاني/ الدكتور زغلول النجار
٩٢ ـ معجزات محمد رسول اللَّه / محمد توفيق الحكيم
٩٣ ـ نهاية العالم/ الشيخ محمد متولي الشعراوي
٩٤ ـ دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة دار المعارف/ القاهرة
٩٥ ـ إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح. السحاب. المطر/ هيئة الإعجاز العلمي/ مكة المكرمة
٩٦ ـ أضواء على إعجاز القرآن الكريم/ د. عكرمة سليم صبري
٩٧ ـ آيات اللَّه في الآفاق/ عبد المجيد الزنداني
٩٨ ـ غزو الفضاء بين أهل الأرض والسماء/ عبد الرزاق نوفل
٩٩ ـ النوم والأرق والأحلام بين الطب والقرآن/ حسان شمسي باشا
١٠٠ ـ الإشارات العلمية في القرآن الكريم/ السيد كارم السيد غنيم

١٠١ ـ الإسلام وقوانين الوجود / محمد جمال الدين الفندي

١٠٢ ـ الطب محراب الإيمان/ خالص جلبي

١٠٣ ـ كل شيء عن الصحراء/ سام ويريل إيشتين دار المعارف

١٠٤ ـ أشكال الصحارى المصورة/ د. محمد مجدي تراب

١٠٥ ـ كل شيء عن الأدغال/ أرمسترونج سيبري ـ ترجمة الدكتور علي علي المرسي

١٠٦ ـ قصة الإيمان/ الشيخ نديم الجسر

١٠٧ ـ الإعجاز الطبي في القرآن الكريم/ السيد الجميلي

١٠٨ ـ الإسلام والحقائق العلمية/ محمود القاسم

١٠٩ ـ التوحيد/ د. عبد المجيد الزنداني

١١٠ ـ القرآن وعلوم العصر/ إبراهيم عراجي ـ الموسوعات العالمية

١١١ ـ روح الدين الإسلامي/ عفيف طبارة/ الإمارات العربية المتحدة/ المجمع الثقافي/ أبوظبي

١١٢ ـ سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلّهية/ ابن خليفة عليوي

١١٣ ـ محاضرات في الإعجاز العلمي في القرآن/ د. عبد المجيد الزنداني

١١٤ ـ القرآن والعلم الحديث/ عبد الرزاق نوفل

١١٥ ـ مع اللَّه في السماء/ أحمد زكي

١١٦ ـ مجلة منار الإسلام/ دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبوظبي/

١١٧ ـ مجلة الوعي الإسلامي/ دولة الكويت

١١٨ ـ مجلة الإعجاز العلمي/ المملكة العربية السعودية/ مكة المكرمة

١١٩ ـ مجلة أكاديمية البحث العلمي/ القاهرة

١٢٠ ـ مجلة علم وعالم/ دولة الكويت

١٢١ ـ مجلة العلوم/ دولة الكويت/ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

١٢٢ ـ المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ دولة الإمارات العربية/ دبي

١٢٣ ـ الموسوعة العالمية/ دولة الإمارات
١٢٤ ـ الموسوعة البريطانية/ دولة الإمارات العربية المتحدة/ المجمع الثقافي/ أبوظبي
١٢٥ ـ الموسوعة الأمريكية/ دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبوظبي/ المجمع الثقافي
١٢٦ ـ الموسوعة العربية/ دار الفكر/ دمشق ٨ أجزاء
١٢٧ ـ الموسوعة الإسلامية/ دولة الإمارات العربية المتحدة/ المجمع الثقافي/ أبوظبي
١٢٨ ـ الموسوعة البريطانية/ لعالم الطبيعة/ دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبوظبي/ المجمع الثقافي
١٢٩ ـ مجلة نيتشر العلمية المتخصصة
١٣٠ ـ موقع سبيس دوت كوم على الإنترنت Space.com
١٣١ ـ نشرات NASA وكالة ناسا الفضائية الأمريكية
١٣٢ ـ نشرات وكالة ESA إيسا الفضائية الأوروبية
١٣٣ ـ مجلة نيو بانتشت العلمية المتخصصة
١٣٤ ـ جريدة الاتحاد الإماراتية أبوظبي/ دولة الإمارات العربية المتحدة
١٣٥ ـ جريدة الخليج الإماراتية الشارقة/ دولة الإمارات العربية المتحدة
١٣٦ ـ نشرات معهد بروكهافن الوطني/ نيويورك
١٣٧ ـ نشرات مركز هارفارد سيمبشونيان للفيزياء الفضائية
١٣٨ ـ نشرات الجمعية الفيزيائية الأمريكية
١٣٩ ـ نشرات معهد علم الفلك / جامعة كمبريدج
١٤٠ ـ الكون ذلك المجهول/ جلال عبد الفتاح
١٤١ ـ الكون بين العلم والإيمان/ محمد صبحي
١٤٢ ـ الخيوط الخفية/ محمد عيسى داود

فهرس محتويات الجزء السادس عشر

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

فهرس محتويات الجزء السابع عشر

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع